التعليقات العلوانية

على العقيدة الواسطية

للشيخ /
أبي عبدالله سليمان بن ناصر العلوان
- ثبته الله -

التعليقات العلوانية

على

العقيدة الواسطية

للشيخ / أبي عبد الله سليمان بن ناصر العلوان ثبته الله

الطبعة الأولى

١٣٤٩هـ

مُقدِّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله معز الإسلام بنصره،ومذل الشرك بقهره،ومصرف الأمور بأمره،ومستدرج الكافرين بمكره،الذي قدر الأيام دولا بعدله،وجعل العاقبة للمتقين بفضله،وأظهر دينه على الدين كله،أحمده على إظفاره وإظهاره،وإعزازه لأوليائه،ونصره لأنصاره،وأسأله أن يطهر بلاد المسلمين من أدناس الشرك وأوباره،لم يكن له كفوا أحد،وأشهد أن محمدا عبده ورسوله دافع الشرك وداحض الإثم،الذي أسري به ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى،وعرج به إلى السماوات العلا إلى سدرة المنتهى،صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه وسلم تسليما كثيرا،أما بعد:

فهذا كتاب:((التعليقات العلوانية على العقيدة الواسطية)) للشيخ أبي عبدالله سليمان بن ناصر العلوان –ثبته الله–،جمع من دروس الشيخ التي شرح فيها العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية،وهو من أنفع الشروح على العقيدة الواسطية،ولقد توقف الشيخ عند باب (الإيمان قول وعمل).

أسأل الله أن يثبت الشيخ ويفرج عنه،وأن ينصر المسلمين في كل مكان.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

عبدالرحمن الناصر

شرح مقدمة المصنف

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الَّذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا.

وأَشْهَدُ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ إِقْرَارًا بِهِ وَتَوْحِيدًا.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تسليمًا مَزِيدًا.

الشرح

الواسطية سميت بهذا الاسم؛ **لأنها كتبت في واسط** وهي إحدى مدن بلد العراق، كالحموية والتدمورية وغير ذلك من مسميات مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره من أهل العلم الذين يكتبون الكتاب في بلد ثم ينسبونه إليه.

وقيل سميت الواسطية؛ لأنها متوسطة بين مذاهب أهل الضلال، وهي متوسطة بين مذهب الجهمية والأشاعرة والمعتزلة والماتريدية والكرامية والمرجئة والخوارج والجبرية والقدرية وغير هؤلاء من المنحرفين، لأن التوسط أو الوسط هو التوسط بين الشيئين.

استفتح رحمه الله تعالى رسالته المختصرة التي ضمنها معتقد أهل السنة والجماعة الذي اتفقوا عليه؛ لأنه يوجد أشياء لم يذكرها شيخ الإسلام وهو يراها، كما في فتاواه وفي رسائل متعددة، لكن لأن الخلاف قد جرى ولم يحصل في ذلك إجماع ولا اتفاق لخص رحمه الله تعالى في هذه الرسالة ما اتفق عليه العلماء في أشياء قد يكون متفقًا عليها، وليس معنى هذا أن ما لم يذكره غير متفق عليه، لكن هو أتى للأصول العامة التي اتفق عليها أهل السنة والجماعة.

نبدأ بالبسملة أولاً اقتداء بالكتاب العزيز وتأسيًا بالنبي ﷺ في مكاتباته ومراسلاته، **والأصل في المكاتبات البداء بالبسملة بخلاف المحادثات الكلامية، فالأصل في ذلك البداء بالحمدلة** ، وهذا هو الثابت عن النبي ﷺ ، وإن كان بعض العلماء يرى استفتاح الكتب بخطبة الحاجة (الحمد لله نحمده **ولكن لم يرد في ذلك دليل.**

وفي حديث ابن مسعود ﵁ وإسناده صحيح: ((**كان رسول الله ﷺ يعلمنا خطبة الحاجة كما كان يعلمنا السورة من القرآن :إن الحمد لله نحمده**))إلى آخره، وهذا لم يثبت أنه في المكاتبات، وبالتالي نزل على

المخاطبات لفعله ﷺ في خطبه، بدليل فعله في مكاتباته.

وحين كتب إلى هرقل اقتصر على البسملة،((**مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ**)) وغير ذلك من الأدلة، ثم ثنى رحمه الله تعالى بالحمدلة فحمد لله جل وعلا، والألف واللام في الحمد، استغراق لجميع المحامد، وربما لا أركز على قضية الفردية، ونأخذ الشرح مجملاً لنأخذ أكبر قدر ممكن إن شاء الله في المستقبل.

اعتقاد الفرقة الناجية إجمالا

أَمَّا بَعْدُ: فَهَذَا اعْتِقَادُ الْفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ الْمَنْصُورَةِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ؛ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ: وَهُوَ الإِيمانُ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، والإِيمَانِ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ.

الشرح

الشيخ رحمه الله تعالى في هذه الرسالة ذكر الأصول المتفق عليها بين أهل السنة والجماعة من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسوله والبعث بعد الموت، والإيمان بالقدر خيره وشره وهذا لا يختلف فيه العلماء لأن الله جل وعلا قال: ﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾، وقال الله جل وعلا:﴿ **لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ**﴾.

وقال الله جل وعلا:﴿**أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾ إلى آخر الآيات، والأدلة على هذا كثيرة، ولا يختلف في ذلك المسلمون، **ومعنى الإيمان بالقدر** أنك تؤمن بأن ما شاء الله وأراده فإنه يقع فما يمكن أن يتخلف ذلك، لأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأن القلم جرى بما هو كائن إلى يوم القيامة، وأنه لا يمنع عن قدر الله شيء لذل ك قال ابن عقيل رحمه الله تعالى كما حكى عنه ابن القيم في نونيته:

وحقيقة القدر الذي حار الورى
في شأنه هو قدرة الرحمن

هذا قول الإمام أحمد أن القدر هو قدرة الرحمن، ومعنى قدرة الرحمن: أي لا يمنع من قدر الله شيء.

وحقيقة القدر الذي حار الورى
في شأنه هو قدرة الرحمن
واستحسن ابن عقيل ذا من أحمد
لما حكاه عن الرضا الرباني
وقال الإمام: شفا القلوب بلفظة

ذات اختـــصــــــار وهــــي ذات بـــيـــان

معتقد أهل السنة والجماعة في باب الأسماء والصفات

وَمِنَ الإيمَانِ بِاللهِ: الإيمَانُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم ، مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلاَ تَعْطِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلاَ تَمْثِيلٍ، بَلْ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللهَ

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

فَلاَ يَنْفُونَ عَنْهُ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وَلاَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَّوَاضِعِهِ، وَلاَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَاءِ اللهِ وآيَاتِهِ، وَلاَ يُكَيِّفُونَ وَلاَ يُمَثِّلُونَ صِفَاتِهِ بِصِفَاتِ خَلْقِهِ. لأَنَّهُ سُبْحَانَهُ: لاَ سَمِيَّ لَهُ، وَلاَ كُفْءَ لَهُ، وَلاَ نِدَّ لَهُ، ولاَ يُقَاسُ بِخَلْقِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. فَإِنَّهُ أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ وَبِغَيْرِهِ، وَأَصْدَقُ قِيلاً، وَأَحْسَنُ حَدِيثًا مِنْ خَلْقِهِ. ثُمَّ رُسُلُه صَادِقُونَ مُصَدَّقُونَ؛ بِخِلاَفِ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَلَيْهِ مَا لاَ يَعْلَمُونَ. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠:١٨٢].

فَسَبَّحَ نَفْسَهُ عَمَّا وَصَفَهُ بِهِ الْمُخَالِفُونَ لِلرُّسُلِ، وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ؛ لِسَلاَمَةِ مَا قَالُوهُ مِنَ النَّقْصِ وَالْعَيْبِ.

وَهُوَ سُبْحَانَهُ قَدْ جَمَعَ فِيما وَصَفَ وَسَمَّى بِهِ نَفْسَهُ بينَ النَّفْيِ وَالإِثْبَاتِ.

فَلاَ عُدُولَ لأَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ عَمَّا جَاءَ بِهِ الْمُرْسَلُونَ؛ فَإِنَّهُ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ.

الشرح

ثم شرع رحمه الله تعالى **يبين معتقد أهل السنة والجماعة في باب الأسماء والصفات** أن أهل السنة يؤمنون بما جاء عن الله على مراد الله، وبما جاء عن الرسول ﷺ على مراد رسول الله ﷺ ، يثبتون لله ما أثبته لنفسه وينفون عن الله ما نفاه عن نفسه، فيثبتون لله الأسماء والصفات لقول الله جل وعلا: ﴿**وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا**﴾ وذكر الصفات جاء في الصحيحين في قوله ﷺ حيث سأل الرجل عن السبب والسر في كونه يقرأ: ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**﴾ في كل صلاة، فقال لأنه صفة الرحمن.

وفي حديث ابن عباس عند عبد الرزاق حين سمع حديثًا في الصفات فعلم أن هذا وارد ، وليس كما يدعى ابن حجر رحمه الله تعالى بأن ذكر الأسماء جاء في القرآن وإنما الصفات لم يرد لا في الكتاب ولا في السنة هذا غير صحيح. ورد في السنة وورد على لسان الصحابة.

أما في السنة ففي الصحيحين، وأما عن لسان الصحابة فبأصح إسناد رواه عبد الرزاق من رواية عبد الله بن طاووس عن أبيه عن ابن عباس رضي الله عنه، مما يدل دلالة واضحة أن ذكر الصفات جاء، وأن لفظ

الأسماء والصفات هما لفظان شرعيان واردان في الكتاب والسنة، فأهل السنة يؤمنون بذلك، ويسوقون الأدلة على ما أثبته لنفسه إثباتًا بلا تمثيل وتنزيهًا بلا تعطيل، لأن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله وهو السميع البصير.

وقد نظم عقيدة أهل السنة والجماعة ابن القيم في نونيته فقال:

لسنا نشبه وصفه بصفاتنا ... إن المشبه عابد الأوثان
كلا ولا نخليه من أوصافه ... إن المعطل عابد البهتان
من شبه الرحمن العظيم بخلقه ... فهو الشبيه بمشرك نصراني
أو عطل الرحمن عن أوصافه ... فهو الكفور وليس ذا الإيمان

والذي ينبغي أن نفهمه قبل أن نشرع في تفاصيل ما يذكر شيخ الإسلام رحمه الله تعالى أن شيخ الإسلام قدم مقدمة مجملة، ثم شرع بعد ذلك -رحمه الله تعالى- في التفصيل ، فنجمل حيث أجمل ونفصل حيث فصل، ليكون أوعى وأخصر في الشرح.

وأول الأشياء التي ينبغي أن نفهمها: أن الأسماء مشتقة، وأنها ذات مدلول وذات معنى، وإلى هذا المعنى أشار ابن القيم في النونية قال:

أسماؤه أوصاف مدح كلها ... مشتقة قد حملت بمعاني

خلافًا للمعتزلة الذين يقولون أن الله سميع بلا سمع، عليم بلا علم، وخلافًا للمفوضة الذين يقولون نثبت لله ما أثبته لنفسه ونمرها كما جاءت وهم لا يمرونها كما جاءت في المعنى، يمرنها كما جاءت في اللفظ، فهم يثبتون اللفظ دون المعنى.

فهناك لا يقولون لاسم الله السميع اشتقاق السمع، وفي هذا الباب قال العلماء أن المفوضة شر من المعطلة، وهم معطلة، لأنهم يأتون بألفاظ موهنة فأهل السنة والجماعة يثبتون لله جل وعلا اللفظ والمعنى دون تكييف ودون تمثيل، كما قال نعيم بن حماد رحمه الله تعالى: من شبه الله بخلقه فإنه كافر، وقال عنه رحمه الله تعالى، فإنه شبه الله جل وعلا بالمخلوقات، من نفى عن الله ما أثبته لنفسه فقد شبه الله بالمعدومات، ولذلك قال العلماء عن المعطلة، حين وجد في قلوب المعطلة تشبيه يقولون: ورد لله السمع، ورد لله البصر هذا كله متواتر بنص القرآن، فيقولون إن أثبتنا هذه الأمور يعني هذا مشابهة المخلوق للخالق، هم يتصورون ذلك ولذلك يقولون: لا نثبت لله هذه الأمور حتى نبتعد عن مشابهة المخلوق للخالق، فوقعوا في أسوأ مما فروا منه، شبهوا الله بالمعدومات، فحين يقولون أن الله لا سميع لا بصير ولا يرضى ولا يغضب إذا بمنزلة الجمادات والمعدومات، ولذلك حين قال إبراهيم لأبيه: ﴿**يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا**

لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ لم يقل آزر وهو كافر: وربك لا يسمع ولا يبصر.

فقد كان مشركًا ولكن مؤمن بأن الله سميع وبصير، وإلا لم يكن لقول إبراهيم معنى واعترض عليه المشركون حين دعاه بأنه لا يسمع ولا يبصر، ولم يقولوا ربك كذا لا يسمع ولا يبصر ، فمثل هذا مما أجمعت عليه الرسل ولذلك حماد بن زيد، حين ناظر أحد الجهمية فقال له: في بيتك نخلة قال: نعم، قال: لها جذع، قال: لا، قال فيها فرع، قال: لا، قال فيها سعف، قال: لا، قال فيها ثمرة، قال: لا، قال: إذن هي ليست نخلة،ولا تسمى نخلة، كذلك أنتم نقول لكم: لكم رب، تقولون: نعم، يسمع: لا، قال، يبصر: لا، يرضى: لا، ينزل: لا، استوي على العرش: لا، إذن لا رب لكم.

كذلك الجهمية قيل لهم هل لكم رب قالوا نعم، قيل يسمع؟ قالوا لا، قيل يبصر؟ قالوا لا قيل ينزل قالوا لا قال فكيف لكم رب، لأن الرب إذا لا يتصف بالبصر ولا بالسمع ولا يرضى ولا يغضب فليس برب، فلذلك أهل السنة متفقون على إثبات هذه الأمور وهم مؤمنون أيضا بأنهم لا يشبهون ولا يمثلون.

والتشابه في الأسماء بين الخالق والمخلوق ليسا تشابهًا في المعاني، الله وصف المخلوق بأنه سميع، ووصف نفسه بأنه سميع بصير، لكن ليس هذا كهذا لأن هذا الخالق وهذا المخلوق والله قال عن نفسه: **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾**.

والمخلوق مآله إلى الله، والله جل وعلا يقول: **﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾**، وقال: **﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾**.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في العقيدة الواسطية:وهو سبحانه قد جمع حين وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات وهذه طريقة الرسل، يجمعون بين النفي والإثبات، ويأتون بالنفي المجمل، والإثبات المفصل، كما شرح هذا شيخ الإسلام ابن تيمية في رحمه الله تعالى في كتاب **(التدمرية)** وهم متبعون في ذلك لكتاب ربهم فإنه جل وعلا يجمع بين النفي والإثبات فلا عدول إذا كان الأمر هكذا فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون فإن من عدل عن طريقتهم واعترض على هديهم فقد ضل ضلالاً مبينًا.

والذين يسعون جاهدين للتخلي عن طريقة السلف وتسمية كتبهم بالكتب الصفراء ودراسة الكتب الفكرية والعقلية والكتب التي تعتمد على الرأي ومخالفة ما جاءت به الرسل هؤلاء منحرفون، وهذا الانحراف حقيقة لا يتمثل فقط في دينهم حتى في عقولهم وتفكيرهم لأنهم كان يسمون أنفسهم أهل عقل ويسمون كتبهم فكرية والحقيقة أنهم ليسوا من الفكر في شيء لأن الفكر الصحيح لا يناقض النقل الصحيح فدل هذا على أن العقول فاسدة ومارجة، وأنهم لا يحملون من العقل شيئًا وليس معنى هذا

محاربة كل كتب الفكر لأن بعضها مبنيا على الكتاب والسنة ولكن العدو يسمونها كتب فكرية أنا أتحدث عن أمثال كتب الجابري وأمثال هذه الكتب المنحرفة التي تدعو للتخلي عن النقل ودعوة إلى العقل، كأمثال الطائفة المسماة بالعقلانية، وأمثال كثيرين من المسمين الآن بالعصرانيين.

قوله: فإنه الصراط المستقيم: الصراط خبر إن ﴿**صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ**﴾، بدل، وبدل المرفوع مرفوع، ومن دعاء المؤمنين في صلاتهم حين يقولون فاتحة الكتاب ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ*صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ**﴾الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا.

فلا يستغني العبد عن ربه طرفة عين فهو بحاجة إلى سؤاله الصراط المستقيم، وكان من دعاء النبي ﷺ في صلاة الليل: ﴿**اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم**﴾، ويتأكد هذا الدعاء حين تشتبه عليه المسائل وتختلط عليه الأوراق ويتشتت ذهنه في الآراء، فنسأل الله جل وعلا الهداية لما اختلف فيه من الحق.

الإيمان بما وصف الله به نفسه في كتابه

وَقَدْ دَخَلَ فِي هِذِهِ الْجُمْلَةِ مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ فِي سُورَةِ الإِخْلاَصِ الَّتِي تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ، حَيثُ يَقُولُ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَد لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَد وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[الإخلاص: ١: ٤].

وَمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي أَعْظَمِ آيَةٍ فِي كِتابِهِ: حَيْثُ يَقُولُ:﴿اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

الشرح

شرع المؤلف رحمه الله تعالى يتحدث عن سورة الإخلاص وما جاء فيها من الإثبات والنفي وأنها تعدل ثلث القرآن، وكون هذه السورة تعدل ثلث القرآن هذا **محل إجماع** لأن الأحاديث في ذلك متواترة عن رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ: ﴿**والذي نفسي بيده إنها تعدل ثلث القرآن**﴾، قيل تعدل ثلث القرآن بالثواب، وقيل إن القرآن متمثل بثلاثة أمور لا رابع لها: توحيد، وأحكام، وقصص، وقد جاءت سورة الإخلاص بكل أنواع التوحيد، فعدلت من هذه الحيثية ثلث القرآن فقوله جل وعلا: ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**﴾ هذا فيه توحيد الربوبية؛ لأنه إقرار بوجود الله، وفيه أيضًا توحيد الإلهية، وفيه توحيد الأسماء والصفات (الله) فإن أثبت اسم الله فإنه أثبت أن لله أسماءً وصفات، وهذا يعني باللازم أن تفرد الله لأن الله مأخوذ من أله يأله، ومن عبد يعبد، ما معنى الإله، هو المألوه والمعبود محبة وتعظيمًا وإجلالاً.

﴿**اللَّهُ الصَّمَدُ**﴾ الصمد اسم من أسماء الله جل وعلا فيه إثبات الأسماء والصفات، **وأصح ما قيل في معنى الصمد** إما أن يقال: السيد، الذي قد كمل في سؤدده أو الذي تصمد إليه الخلائق في حوائجهم.

﴿**لَمْ يَلِدْ**﴾ هذا نفي ﴿**وَلَمْ يُولَدْ**﴾ وهذا تنزيه لله جل وعلا.

﴿**وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ**﴾ أي مثيلاً ونظيرًا ولا شبيهًا أي مكافئًا من البشرية، ولا من غيرها، لم يكن له مكافئ مطلقًا.

قال الله جل وعلا: ﴿**مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ**﴾ ثم قال: (وما وصف الله به نفسه من أعظم آية جاءت في كتاب الله)

أعظم آية ما هي ؟ هي آية الكرسي، والأحاديث في ذلك صحيحة فإن آية الكرسي أعظم آية في كتاب الله، وفيه الدلالة على التوحيد والدلالة على عظمة الله، بل كل آية ، بل كل حرف في هذه السورة يدل على توحيد الله، وكل كلمة تدل على التوحيد وعلى عظمته فقوله جل وعلا: ﴿**اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ**﴾ فيها التوحيد كله ﴿**اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ**﴾ .نفيا لجميع ما يعبد من دون الله، فمن صرف العبادة لغير الله، فإنه مشرك كافر، - كثير من الناس يقرأ هذه السورة - كثير من المسلمين يحفظ هذه السورة، ولكن الذين لا يفهمون معناها أكثر من الذين يفهمون حقيقتها، وما ورائها من الأسرار، النبي ﷺ يقول: ﴿**من قرأ آية الكرسي دبر كل صلاة لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت**﴾. رواه النسائي في عمل اليوم والليلة وسنده صحيح من طريق الحميري عن الألهاني عن أبي أمامة رضي الله عنه.

فالذي يقول: (الله لا إله إلا هو) وهو يطوف على القبور ويدعو غير الله.

وأنتم ترون الملايين قبل ثلاثة أيام في كربلاء وفي العراق يحتفلون بعاشوراء ويدعون غير الله عند قبر الحسين وعند المعظمين في نفوسهم وقد يكونوا معظمين في حقيقة الأمر ولكنهم يدعون غير الله عز وجل، هؤلاء كلهم وثنيون، كلهم وثنيون ومشركون لأنهم يدعون غير الله جل وعلا ويسألونهم المدد والنصرة والاستقرار وحلول الأمن في بلادهم، وهم يقولون (لا إله) ولكنهم لا يفهمون هذا الكلام ولا يعرفون معناها.

﴿**الْحَيُّ الْقَيُّومُ**﴾ إثبات اسمين من أسماء الله جل وعلا.

﴿**الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ**﴾ أي لا أحد يشفع عنده إلا بإذنه، الشفاعة لا تحل لأحد إلا بأمرين: إذن الله للشافع، ورضاه عن المشفوع، والله لا يرضى من الأقوال والأعمال إلا الأعمال الخالصة التي تكون لله لا يشوبها شيء من الابتداع.

﴿**يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ**﴾ إطلاق صفة العلم لله جل وعلا.

وهو العليم أحاط علمًا بالذي
في الكون من سر ومن إعلان
وبكل شيء علمه سبحانه
هو العليم وليس ذا نسيان

قوله: ﴿**وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ**﴾ أي: إلا بما يعلمهم الله جل وعلا.

قوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ قال ابن عباس: «الكرسي موضع القدمين» رواه الدارمي بسند على شرط الشيخين.

قوله: ﴿وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ أي لا يكرثه ولا يثقله، ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾

فيه .إثبات أسماء الله جل وعلا والصفات :

أسماؤه أوصاف ألفاظ مدح
كلها مشتقة قد حملت لمعاني

ولذلك من قرأ هذه الآية في ليلة لم يزل عليه من الله حافظ ولا يقربه شيطان حتى يصبح، روى ذلك البخاري معلقًا ورواه النسائي بسند صحيح في الحث على قراءة هذه الآية في الليل قبل أن ينام ليكون محفوظًا ويبتعد عنه الشيطان ولا يقترب منه.

شرع شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في هذه العقيدة المختصرة في سرد وذكر الآيات الدالة على أسماء الله وصفاته وقد ذكر رحمه الله تعالى آيات كثيرة في إثبات الصفات لله جل وعلا، وذكر في أدلة كل صفة، ثلاثة أدلة، أو أربعة أدلة، أو خمسة أدلة، تارة يزيد وتارة ينقصه فهو رحمه الله تعالى ابتدأ بسرد الآيات ثم ثنى بذكر الأحاديث ليبين أن عقيدة أهل السنة والجماعة قائمة على الوحيين قائمة على الكتاب وعلى السنة وأنهم يعتمدون في إثبات الأسماء والصفات على آيات القرآن وعلى الأحاديث الثابتة عن النبي ﷺ، لا يعتمدون في ذلك على مجرد عقولهم ولا على ما يستحسنونه، ولذلك **حكى ابن تيمية رحمه الله تعالى اتفاق أهل السنة على أنه لا مجال للعقل في إثبات الأسماء والصفات**، وإن جوز هذا بعض أهل البدع كالأِشاعرة وغيرهم ممن يقحمون العقل في إثبات الأسماء والصفات، فأهل السنة لا يقحمون العقل في هذا الباب ويقولون بأن هذا الباب باب توقيفي آية أو حديث، شرع رحمه الله تعالى يتحدث عن إثبات اسم العليم وصفة العلم لله جل وعلا:

القاعدة في هذا الباب أن كل اسم يشتق منه صفة، ما هناك اسم لا يؤخذ منه صفة كل اسم يشتق منه صفة، فلذلك من أسماء الله جل وعلا (العليم) يؤخذ منه إثبات صفة العلم لله جل وعلا، قال ابن ا ليقم رحمه الله تعالى في النونية:

أسماؤه أوصاف مدح كلها
مشتقة قد حملت لمعاني

فقوله: (أسماؤه أوصاف مدح): إذا لم يكن صفة مدح ويطلق على الله فهو ليس باسم، كالحديث

المشهور : ﴿**إن الله هو المسعر**﴾، المسعر ليس اسم من أسماء الله لأن هذا ليس بمدح.

وفي قوله ﷺ: ﴿**إن الله هو الدهر**﴾، الدهر ليس من أسماء الله لأن الدهر ليس بصفة مدح **لابد أن يكون ذلك وصف مدح، حتى نجعله اسمًا من أسماء الله جل وعلا، هذا المعنى ذكره ابن القيم.**

(أسماؤه أوصاف مدح كلها مشتقة): لا بد أن يشتق منه صفة.

(قد حملت لمعاني): ردًّا على المفوضة وعلى المعتزلة، المعتزلة يقولون سميع بلا سمع، إذن ليس له معنى، والمفوضة يقولون نجري هذه الأسماء والصفات على ظواهرها دون إثبات حقائقها.

صفة العلم

وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيم﴾ [الحديد:٣].

وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ﴾ [الفرقان:٥٨].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [التحريم:٢].

﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرِ﴾ [سبأ: ١].

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ [سبأ: ٢].

﴿وَعِندَه مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِين﴾ [الأنعام: ٥٩].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِه﴾ [فصلت:٤٧].

وَقَوْلُهُ: ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق:١٢].

الشرح

أورد المؤلف رحمه الله قول الله جل وعلا: ﴿**هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾.

﴿**هُوَ الْأَوَّلُ**﴾: لا يفسر هذه الآية أحد أبلغ ولا أشمل معنى من رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ والخبر في الصحيح مسلم: ﴿**أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء**﴾، والخبر في صحيح مسلم.

وهذه كلها أسماء من أسماء الله جل وعلا، فنثبت لله جل وعلا اسم الأول والآخر والظاهر والباطن.

﴿**وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾: نثبت صفة العلم لله جل وعلا: وأهل السنة والجماعة يثبتون ذلك إثباتًا بلا تمثيل وتنزيهًا بلا تعطيل؛ لأن الله جل وعلا ليس كمثله شيء، لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله وهو السميع البصير.

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى في نونيته:

وهـو الـعـلـيـم أحـاط عـلـمًـا بالـذي
في الـكـون مــن ســـر ومــن إعــلان
وبـكــل شـــيء عـلـمـه ســبـحـانـه
فــهــو الـعـلـيـم ولـيـس ذا نســـيـان

والأشاعرة يشاركون أهل السنة في إثبات صفة العلم لله جل وعلا لأنهم يثبتون سبع صفات ومن ذلك: العلم، وكررت مرارًا أن إثبات الأشاعرة ليس كإثبات أهل السنة، حينما نقول بأن الأشاعرة يثبتون سبع صفات ليس معنى ذلك أنهم يثبتونها كإثبات أهل السنة لأنهم لو كانوا يثبتونها كإثبات أهل السنة لآل بهم الأمر إلى إثبات ما عداه؛ لأن الدليل الذي دلهم على إثبات السبع هو الدليل الذي يصلح أن يكون دليلاً وحجة على إثبات ما عداه، والدليل الذي دلهم على إثبات معنى السبع هو ما نحتج به عليهم على نفي ما عدا السبع أيضًا.

وذكر رحمه الله تعالى آيات كثيرة في إثبات الصفات لله جل وعلا، وذكر في أدلة كل صفة، ثلاثة أدلة، أو أربعة أدلة، أو خمسة أدلة، تارة يزيد وتارة ينقصه فهو رحمه الله تعالى ابتدأ بسرد الآيات ثم ثنى بذكر الأحاديث ليبين أن عقيدة أهل السنة والجماعة قائمة على الوحيين قائمة على الكتاب وعلى السنة وأنهم يعتمدون في إثبات الأسماء والصفات على آيات القرآن وعلى الأحاديث الثابتة عن النبي ﷺ، لا يعتمدون في ذلك على مجرد عقولهم ولا على ما يستحسنونه، ولذلك حكى ابن تيمية رحمه الله تعالى اتفاق أهل السنة على أنه لا مجال للعقل في إثبات الأسماء والصفات، وإن جوز هذا بعض أهل البدع كالأشاعرة وغيرهم ممن يقحمون العقل في إثبات الأسماء والصفات، فأهل السنة لا يقحمون العقل في هذا الباب ويقولون بأن هذا الباب باب توقيفي آية أو حديث، شرع رحمه الله تعالى يتحدث عن إثبات اسم العليم وصفة العلم لله جل وعلا:

القاعدة في هذا الباب أن كل اسم يشتق منه صفة، ما هناك اسم لا يؤخذ منه صفة كل اسم يشتق منه صفة، فلذلك من أسماء الله جل وعلا (العليم) يؤخذ منه إثبات صفة العلم لله جل وعلا، قال ابن ا ليقم رحمه الله تعالى في النونية:

أسـمـاؤه أوصـــاف مـــدح كــلــهـــا
مشـــــتـــقـــة قـــد حمـــلـــت لمـــعـــاني

فقوله:أسماؤه أوصاف مدح: إذا لم يكن صفة مدح ويطلق على الله فهو ليس باسم، كالحديث

المشهور : ﴿**إن الله هو المسعر**﴾، المسعر ليس اسم من أسماء الله لأن هذا ليس بمدح.

وفي قوله ﷺ: ﴿**إن الله هو الدهر**﴾، الدهر ليس من أسماء الله لأن الدهر ليس بصفة مدح لابد أن يكون ذلك وصف مدح، حتى نجعله اسمًا من أسماء الله جل وعلا، هذا المعنى ذكره ابن القيم.

(أسماؤه أوصاف مدح كلها مشتقة): لا بد أن يشتق منه صفة.

قد حملت لمعاني:ردًّا على المفوضة وعلى المعتزلة، المعتزلة يقولون سميع بلا سمع، إذن ليس له معنى، والمفوضة يقولون نجري هذه الأسماء والصفات على ظواهرها دون إثبات حقائقها.

قوله جل وعلا: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾:

قول الله جل وعلا:﴿**الْحَيُّ الْقَيُّومُ**﴾ نثبت لله عز وجل صفة الحي ومن لوازم الحي أن يكون سميعا بصيرًا عليمًا؛ لأنه هو المدبر وهو المتصرف في أمور الكون وهو العليم الحكيم، وهو الحكيم الخبير، هذه كلها تفيد إثبات الأسماء والصفات لله جل وعلا.

ما معنى الحكيم في أسماء الله ؟ لا بدأن نفهم أسماء الله جل وعلا ونتأمل في الصفات لأن هذا يزيد في الإيمان والخشية، فالحكيم هو الذي يضع الأمور مواضعها، وقيل الحكيم الذي لا يخفى عليه شيء، يعني لا يضع الشيء إلا لحكمة، ولا يخلق إلا لحكمة ولا يفعل إلا لحكمة، والخبير، ما معنى الخبير هو المحيط ببواطن الأشياء وظواهرها.

وقوله جل وعلا: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾:

فيه إثبات صفة العلم هو العلم المطلق الذي لا يعلمه إلا الله؛ لأن علم المخلوق علم نسبي.

قـل للـذي يـدعي في العـلم فلســـفة
حفظـت شـــيـئًا وغـابـت عنـك أشــيــاء

هذا في بعض العلوم الشرعية لأنه لا يوجد شخصية محيطة بكل العلوم الشرعية فكيف تحيط بالعلوم الأخرى وفي نفس الوقت يعلم أشياء وتغيب عنه أشياء، في نفس الوقت لا يعلم أمور الكون أيضًا ولا يعلم ما يجري في المجتمع، الله جل وعلا الناس يدعونه في موطن واحد بالملايين، بالمليارات، يسألونه حوائجهم، على تعدد اللغات، الهند فيها ما لا يقل عن خمسائة لغة ومع ذلك لا تختلف عليه الأصوات، ولا تختلف عليه الأسماء ولا تختلط عليه اللغات ولا الحاجات، يعلم الجميع، يعلم ماذا دعاه فلان وبأي لغة، ويعلم ما هو أعظم من ذلك، الحقيقة هذا هو المألوه حقيقة المعبود بصدق؛ ولذلك إبراهيم الخليل بماذا احتج على أبيه المشرك قال: ﴿**يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا**﴾ لم يقل

أبو إبراهيم: وربك لا يسمع ولا يبصر، بل أذعن لذلك.

الله سميع بصير: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ ﴿**وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ**﴾ ففيه إثبات صفة العلم لله جل وعلا: ﴿**فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾

والقرآن كله من فاتحته إلى خاتمته يقرر أمور التوحيد، بعضها بدلالة المطابقة، وبعضها بدلالة التضمن، وبعضها بدلالة الالتزام، ما معنى هذا ؟

دلالة المطابقة: هي دلالة الدليل على كل المعنى.

ودلالة التضمن: هي دلالة الدليل على بعض المعنى.

ودلالة الالتزام: هي دلالة الدليل على أمر خارج لازم للمعنى.

صفتا الرزق والقوة

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات:٥٨].

الشرح

بعد ذلك نرى شيخ الإسلام رحمه اله تعالى يورد الآيات الدالة على إثبات الأسماء والصفات لله جل وعلا، وذلك لبيان وتوضيح أصول أهل السنة والجماعة وأنهم يعتمدون في إثبات ذلك على الكتاب والسنة، فإنهم لا يأتون بشيء من آرائهم ولا عقولهم ويفهمون ذلك على فهم الصحابة ﷺ فإنهم هم الذين عايشوا التنزيل وصحبوا رسول الله ﷺ ، فكان فهمهم أقوى من غيرهم.

قوله جل وعلا: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾:

فيه إثبات اسم الرزاق لله جل وعلا أي كثير الرزق، قال الله جل وعلا: **﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ﴾**

فالله جل وعلا يرزق من يشاء من عباده ويعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، فمن أنعم الله عليه بدنيا فلا يعني هذا حب الله له، فقد ينعم الله جل وعلا على شر البرية، ولكنه جل وعلا لا يعطي الإيمان إلا من يحب، فمن أسبغ عليه نعمة الإسلام ومن عليه بالهداية فقد أحبه الله،**﴿فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾** وهذه النعم التي أعظمها نعمة الإسلام إذا شكرت قرت، وكثير من الناس لا يعرف نعمة الله عليه إلا في مأكله ومشربه، وإذا ربح في تجارة بدأ يرفع يده ويحمد الله، ولكنه ينسى نعمة الله عليه في كونه صلى مع المسلمين وفي كونه أدى الصلاة، في كونه جل وعلا عافاه من المنحرفين، ومن ضلال الضالين، من كفر المتمردين ينسى نعمة الله عليه، كان لبيد كثيرًا ما يتمثل بقوله:

الحمد لله أن لم يأتني أجلي
حتى اكتسيت من الإسلام سربالا

وقوله:﴿ذُو﴾:

أي صاحب القوة، فيه إثبات صفة القوة لله جل وعلا قوله الله جل وعلا: **﴿هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾**، العزيز الذي لا يرام جنابه، ولذلك ثلاث معاني أشار إليها ابن القيم في النونية:

وهو العزيز فلا يرام جنابه
أنى يرام جناب ذو السلطان

والــعــزيــز الــقــاهــر الــغــلاب لم
يــغــلــبــه شــــيء هــذه صـــفـــتـــان
والــعــزيــز بــقــوة هــي وصــــفــه
الــعــز حــيــنــئــذ ثــلاث مــعــاني

وقوله:﴿الْمَتِينُ﴾:

أي الشديد، وقد قال لوط: ﴿أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ يعني ربه جل وعلا، فإذا كان الله هو الرزاق وعُلم بأن الله هو القوي المتين فهذا يدعو إلى التعلق بالله وطلب الرزق منه، ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾ كثير من الخطباء بل والعلماء يقولون: إن أمر الله بين الكاف والنون، وهذا غلط، ليس أمر الله بين الكاف والنون، لأن الله قال: ﴿ **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾إذن متى يكون، بعد النون، ليس بين الكاف والنون كن فيكون.، هذا قول الله جل وعلا إذا أمر الله بالشيء كان، لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه، ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾ .

قال الله جل وعلا: ﴿**أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ**﴾ فالله جل وعلا فرق بين الخلق وبين الأمر، فالأمر أمره، والخلق خلقه، وهذا يبعث على قوة التعلق بالله وعدم تهيب المخلوقين، فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئًا.

تأمل في إبراهيم من قوة تعلقه بالله ودراسته للأسماء ليست دراسة نظرية لمجرد أنه يثبت، هذا واقع بلا شك ولكن معنى ذلك أيضًا أنه يتأثر بذلك ويعايش هذه القضايا في واقعه وتتدفق هذه الأمور في عروقه ودمه، يعرف أن الله هو الرزاق، إذن يستحضر هذا المفهوم، ليس مجرد نظري وإذا جاء يطلب الرزق طلب من المخلوق.

يقول إن الله جل وعلا هو القوي، ثم يتوسل بغيره، يقول: إن الله هو السميع البصير، ويعتمد على مخلوق خلقه رب العالمين، ولذلك إذا طلع عليه مخلوق لا يفعل المعصية، وإذ اطلع عليه رب العالمين يفعل المعصية، ويجعل الله أهون الناظرين إليه، إذن ما استفدنا منه، كونك تثبت الألفاظ وتنفي المعاني، إذن دراسة الأسماء دراسة تكون نظرية وعملية نعايشها في واقعنا حتى يزداد إيماننا وتعلقنا بالله، كثير من الناس لا يفهم المعاني، كثير من الناس يبتعد عن دراستها، وتفهم معانيها وتحقيق آثارها ومعرفة ذلك بالحق والصدق.

إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والتسليم حين ألقي في النار، ماذا قال: حسبنا الله ونعم الوكيل. فمن كان بالله أعرف كان منه أقرب، تعلق بالله؛ لأنه يعرف أن الله هو الذي يستطيع وهو الذي قدره عليه وهو القوي وهو القادر على إنقاذه، وهو القادر دفع الضرر عنه فتراه هنا تعلق بالله وقال: ﴿حسبنا

الله ونعم الوكيل﴾.

الله جل وعلا يقول: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾

إذا انـقـطـعـت أطـمـاع عـبـد عـن الـورى
تـعـلـق بالـرب الـكـريم رجـاؤه
فـأصـبـح حـرًّا عـزة ومـنـاعـة
عـلـى وجـهـه أنـواره وضـيـاؤه
وإن عـلـقـت بالخـلـق أطـمـاع نـفـسـه
تـبـاعـد مـا يـرجـو وطـال عـنـاؤه
فـلا تـرج إلا الله في الخـطـب وحـده
ولـو صـح في خـل الصـفـاء صـفـاؤه

صفتا السمع والبصر

وَقَوْلُهُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، **وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾** [النساء: ٥٨].

الشرح

قوله جل وعلا: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾:

هذا نفي، الله جل وعلا نفى عن نفسه المثلية، فليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله **﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾**، نثبت لله هذين الوصفين فالله سميع والله بصير والجهمية لا يثبتون ذلك، حتى قال بعض أئمة الجهمية لو أستطيع ان أحذف هذه الآية من كتاب الله لحذفتها.

إذن نفهم معنى السميع نثبت لله السمع ، ونبتعد عن آراء الجهمية والمعتزلة والأشاعرة ونؤمن أن الله سميع بسمع، يسمع ويبصر، ويبصر النملة في ظلمة الليل على صفاة سوداء، وهذا للتقريب للأفهام وإلا فالأمر أعظم من ذلك، إذا كنا نؤمن أن الله هو السميع إذن لماذا نتورع عن الغيبة والنميمة مثلاً في حضرة مثلاً من لا نحب أن يسمعه، والله يسمعنا ويرانا، بصير يبصر، الإنسان ينظر إلى امرأة لا تحل له لا يستطيع بحضرة شيخه أو بحضرة طالب علم ينظر إليها، ولكن ربما ينظر حين لا يراه أحد، هذا من ضعف إيمانه بالغيب ومن ضعف تحقيق معاني الأسماء والصفات في القلوب،

وقوله جل وعلا: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾:

في إثبات صفة السمع لله ويثبتون صفة البصر لله، وأهل السنة والجماعة يثبتون ذلك إثباتًا بلا تمثيل وتنزيهًا بلا تعطيل.

لسـنا نشـبه ربنا بصـفاتنا — إن المشـبه عـابد الأوثان
كلا ولا نخليه من أوصـافه — إن المعطـل عـابد البهتـان
من شـبه الرحمن العظيم بخلقه — فهو الشـبيه بمشـرك نصـراني
أو عطل الرحمن عن أوصـافه — فهو الكفور وليس ذا الإيمان

صفتا الإرادة والمشيئة

وَقَوْلُه :﴿وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاء اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩]. وَقَوْلُه:﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُواْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة:٢٥٣]. وَقَوْلُهُ:﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾[المائدة: ١]. وَقَوْلُهُ:﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء﴾ [الأنعام: ١٢٥].

الشرح

فقوله جل وعلا: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾:

فيه إثبات المشيئة لله جل وعلا، يشرع لكل مسلم إذا دخل جنة أو بستان أو زراعته وإذا أنعم الله عليه نعمة أو دخل بيته وداخله إعجاب ببستانه، أو ببيته أو ولده أو أهله، أو ماله أن يقول: ما شاء الله، لا قوة إلا بالله، فإن العين حق، وقد يعين العبد نفسه ، فإذا قال ذلك حصن نفسه بكلام الله جل وعلا

﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾:

فيه إثبات لمشيئة الله جل وعلا، لا قوة إلا بالله فيه إثبات القوة لله جل وعلا، وأهل السنة والجماعة لا يختلفون في إثبات المشيئة لله جل وعلا والمشيئة مرادفة للإرادة الكونية القدرية، فإن الإرادة نوعان: كونية قدرية، وشرعية دينية. أشار المؤلف رحمه الله تعالى إليهما في قوله جل وعلا:﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾،يقول الله جل وعلا: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ نثبت لله جل وعلا الإرادة ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ ﴾ نثبت لله جل وعلا الإرادة.

والإرادة نوعان:

النوع الأول: إرادة كونية قدرية، وهذه الإرادة ملازمة ومرادفة للمشيئة وهذه لا بد أن تقع وقد يحبها الله وقد لا يحبها، فقد أراد الله كفر إبليس، وأراد الله كفر فرعون، وأراد الله وجود الشر في المجتمعات، فنؤمن بذلك ونؤمن بأن النبي صلى الله عليه وسلم قال ﴿**والشر ليس إليك**﴾ أي ليس إلى الله، أي لا يدخل في أسمائه ولا في صفاته، ولكن الشر مخلوق الله بإجماع أهل السنة والجماعة لأن الله خالق كل شيء، ليس كقول الطائفة القدرية الذين يقصون خلق الشر عن خلق الله، إذن يجعلونه خالقًا مع الله تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا.

النوع الثاني: إرادة شرعية دينية، وهذه أحبها الله جل وعلا وأرادها، أحبها وأرادها، لكن لا يلزم

من ذلك وقوعها، الله جل علا يقول: ﴿**وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا**﴾. الله جل وعلا أراد ذلك لكن هل يلزم من ذلك أن الناس كلهم يعبدون الله، الله أوجب عليهم لكن لا يلزم من الإرادة أن الناس يوجد منهم هذا الأمر، لكن هذا محبوب لله،﴿**وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ**﴾، بر الوالدين، أراده الله من كل عبد وأحبه الله لكن لا يلزم أن كل شخص يبر بوالديه فالإرادة الشرعية الدينية محبوبة لله جل وعلا والله جل وعلا يحبها ولكن لا يلزم وقوعها، إذن نثبت لله جل وعلا الإرادتين، الإرادة الكونية القدرية، والإرادة الشرعية الدينية.

صفة المحبة

وَقَوْلُهُ :﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

﴿وَأَقْسِطُوا إِنّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

﴿فَمَا ٱسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٧]. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]. وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾[آل عمران: ٣١]. وَقَوْلُهُ:﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤].

وَقَوْلُهُ:﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾[البروج: ١٤].

الشرح

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في الحديث عن أسماء الله وصفاته، وذكر الآيات الدالة على ذلك، ولا يختلف أهل السنة أن باب الأسماء والصفات توقيفي فلا يجوز إثبات اسم ولا صفة لمجرد القياس، ولا بالمرادف في أصح قولي العلماء، وأهل السنة يثبتون لله ما أثبته لنفسه من الأسماء والصفات وما أثبته له رسوله محمد ﷺ فيما جاء عنه في الأحاديث الصحاح.

قال الله جل وعلا: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ فقد جاء ذكر الأسماء في كتاب الله جل وعلا ، وجاء ذكر الصفات في الأحاديث والآثار عن الصحابة رضي الله عنهم، كالحديث المتفق على صحته إنها صفة الرحمن، وكحديث ابن عباس في الصفات، والمعنى ذكر لفظ الصفات، فالقرآن جاء بذكر صفات الله جل وعلا كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾وكقول الله جل وعلا: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾، وكقول الله جل وعلا: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ وغير ذلك.

تقدم في بداية شرح الكتاب أن شيخ الإسلام عني بذكر الأسماء والصفات المتفق عليها بين العلماء، وفيه أسماء ثابتة على الصحيح لم يذكرها لوجود الاختلاف وفيه صفات ثابتة وهو يراها في مواضع من كتبه لم يذكرها لوجود الاختلاف.

قوله جل وعلا: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾:

﴿وَأَحْسِنُوا﴾: أمر الله جل وعلا بالإحسان، ووضح النبي ﷺ معنى الإحسان وأنه في كل شيء، فقال في حديث شداد بن أوس: «**إن الله قد كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا**

القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته﴾ الشاهد قوله: ﴿**إن الله قد كتب الإحسان على كل شيء**﴾، كتب الإحسان على الآدميين وكتب الإحسان على الدواب والبهائم والحشرات، ولذلك نهى النبي ﷺ عن تعذيب الإنسان أو الحيوان أو الحشرات بالنار فقال:((**لا يعذب بالنار إلا رب النار**)) رواه البخاري وغيره.

قوله: ﴿**إن الله يحب**﴾ وهذا الشاهد من الآية للباب فقد سرد شيخ الإسلام رحمه الله الآيات الواردة أو بعض الآيات الواردة في إثبات صفة المحبة الله جل وعلا، وقد شرق بذلك أهل البدع من الجهمية والمعتزلة والأِشاعرة وغيرهم.

فامتنعوا عن إثبات صفة المحبة وزعم الجعد بأن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليمًا فضحى به خالد بن عبد الله القسري بفتوى من علماء أهل السنة وحين صنع ذلك شكروا سعيه وحمدوا أمره، وأشار إلى هذا الإمام ابن القيم رحمه الله في نونيته فقال:

ولأجل ذا قام بفعل خالد
قسري يوم ذبائح القربان
إذا قال إبراهيم ليس خليله
كلا ولا موسى الكليم الداني
فترى الضحية كل صاحب سنة
لله درك من أخ قربان

وفي رواية :**لله درك من إمام قربان.**

وقد زعم بعض المنحرفين فكريا وعقديا أن هذا قتل سياسة ولم يقتل دينًا وينادون بذات كثرة مبطلين مضايقة ومحاصرة أهل البدع في أقوالهم وأفعالهم وفي نفس الوقت يمارسون أسلوب القمع مع التيارات والمذاهب الأخرى التي لا تتماشى مع أقوالهم ولا مذاهبهم.

وقد قاموا بالأمس بممارسة نفس أسلوب القمع في قمع شيخ الإسلام ابن تيمية وفي قمع شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب، وفي قمع أهل السنة الحقيقيين في هذا العصر، وينادون بالقمع الفكري، وهم في نفس الوقت يمتنعون من قمع أهل البدع.

والصواب ما جاء به مالك أن كل من دعا إلى بدعة مخالفة للكتاب والسنة يجوز لأهل الحل والعقد التضييق عليه واستتابته فإن تاب وإلا قتل تعذيرًا، ومرجع هذا إلى العلماء الصادقين، وإلى الفقهاء المعنيين

بضبط الحلال والحرام وإلى أهل التقوى والورع، حتى لا يحصل في ذلك تسيب بين إفراط وتفريط بين أهل البدع ينادون بتمكين أهل الضلال من طرح ما يريدون تحت مسمى روح التسامح، والحرية وبين آخرين ينادون بقمع كل من لا يسايرهم في أهوائهم وشهواتهم لا يختلف أهل السنة في إثبات صفة المحبة لله جل وعلا، فقد قال الأِشاعرة إن المحبة علامة على الرضا، وهذا اثر من أثر المحبة وليس هذا هو معنى المحبة.

وقال آخرون: إن الله يحب بمعنى إن الله يقبل ويعطي، وهذا غلط، فهؤلاء يفصلون عن الله صفة المحبة، وهم على مراتب منهم من ينفي ذلك بالكلية، كجعد بن درهم والجهم بن صفوان، الجهم أخذ هذه البدعة عن الجعد فنسبت إليه، وإلا فالأصل هي نسبة إلى الجعد، فإن الجعد قبل الجهم.

والجعد بن درهم تلقى هذه البدعة عن اليهود والجهم تلقى ذلك عن الجعد وإليه نسبت طائفة الجهمية فهؤلاء لا يثبتون المحبة مطلقًا والأشِاعرة يتأولون المحبة يثبتون اللفظ لكن يتأولون المعنى، ولو لم يرد من أدلة الكتاب والسنة لإثبات صفة المحبة إلا دليل واحد لقيل لعل المعنى يقصد بكذا ولكن في آيات القرآن مئات الأدلة وجاء في السنة مئات الأدلة فهي صريحة في إثبات صفة المحبة لله جل وعلا، فإن الله جل وعلا يحب، يحب الطائعين يحب المخلصين، يحب الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر.

وفيه إثبات صفة المحبة لله جل وعلا، فإن الله جل وعلا يحب الطائعين، يحب المخلصين، يحب الآمرين بالمعروف، الناهين عن المنكر، يحب الذين يقاتلون في سبيله صفًّا كأنهم بنيان مرصوص، ولذلك قال بعض السلف: ليس الشأن أن تحب –هذا فرض عليك– إنما الشأن أن تُحب؛ لأن الله إذا أحبك هذا يعني أنه رضي الله عليك، يدخلك جنته، أيضًا يحب المحسنين، المحسنين في أقوالهم، وأفعالهم، وأحكامهم

وقوله: ﴿**وَأَقْسِطُوا**﴾ القسط يقصد به العدل، بخلاف القاسط يعنى به الجائر؛ لذلك قال الحجاج لبعض الأئمة: ما تقول فيَّ ؟ قال: أنت أمير قاسط، فقال لمن حوله: ماذا يقصد، فقالوا: مدحك أيها الأمير، قال: ما مدحني، هذا ذمني؛ أما سمعتم قول الله: ﴿**وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا**﴾ بخلاف المقسط فهو العادل، وقد تفطن لذلك وعلم أنه ما أراد مدحه، لكن غيره لا يتفطن لذلك.

فالقاسط الجائر بخلاف المقسط، الله جل وعلا أمر بالقسط وهو العدل، والعدل محبوب من الله في كل شيء، وتحبه النفوس، واتفق عليه العقلاء، والعالم كله وإن كانوا يمارسون الظلم في حياتهم، ولكن حين يظلمون يبحثون عن العدل، ولذلك قال المتنبي:

والظلم من شيم النفوس فإن ... ذا عفة فلعلة لا يظلم

ولقبح الظلم حرمه الله على نفسه، وقد جاء في الحديث القدسي الذي رواه مسلم من حديث أبي ذر: ((**يا عبادي إني حرمت الظلم علي نفسي وجعلته بينكم محرم فلا تظالموا**))، ولذلك نفى الله عن نفسه الظلم في قوله: ﴿**وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ**﴾، وفي قوله: ﴿**وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ**﴾، وغير ذلك من الأدلة.

أمر الله بالقسط الذي هو العدل في أقوالكم وأفعالكم وأحكامكم، و في كل حياتكم وشؤونكم وشجونكم مع أولادكم ومع زوجاتكم ومع جيرانكم ومع بني جنسكم، ومع من تتفقون معه في ذات المنهج، ومع من تختلفون معه، العدل مطلوب في كل شيء، فلا قرار في العالم إلا بالعدل، به قامت السموات والأرض، قال تعالى: ﴿**وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾ لم يقل الله: القاسطين، قال: المقسطين، ففيه إثبات ذات الصفة (**المحبة**) وذلك في قوله: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ**﴾

ولا يختلف أهل السنة في إثبات صفة المحبة لله جل وعلا، وأهل السنة في باب الأسماء والصفات يثبتون الصفة لله إثباتاً بلا تمثيل وتنزيهًا بلا تعطيل، ثم يذكرون بعد ذلك أثرها ولوازمها، من لوازم المحبة أن الله يرضى، من لوازم المحبة أن الله يدخل المؤمن ويجازيه بالجنة، ولكن ليس هذا معنى المحبة، فهذا أثر من آثارها وأحد لوازمها، الله يحب المقسطين، كما يحب المحسنين كما تقدم في أقوالهم وأفعالهم وأحكامهم، والمقسطين في كل شيء، لا يجورون إذا غضبوا، ولا ينتصرون بالباطل حين يقدرون، يعفون ويصفحون ويتجاوزون، الله جل وعلا قال: ﴿**وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ**﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٦].

قوله: ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾:

الشاهد أن الله يحب المتقين، التقوى فعل المأمور واجتناب المحظور، وقال طلق بن حبيب: التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخشى عقاب الله. فالتقوى فعل الحلال واجتناب الحرام، إلى غير ذلك، وكلها معان متقاربة.

مؤدى هذه المعاني إلى فعل ما أمرك الله به واجتناب ما نهاك الله عنه، فلا يفتقدك حيث أمرك، ولا يراك حيث نهاك.

وقوله: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ**﴾:

التوابين صيغة مبالغة أي كثيرو التوبة، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل»، التوبة محمودة مطلقًا، سواء كان يستحضر ذنبًا، أو لا يستحضر ذنبا؛ لأنه مهما كان العبد ففيه شيء من النقص، فليس بشرط أن يقول الإنسان—أستغفر الله– حين يستحضر ذنبًا، هذا إعجاب بالنفس، من تصور هذا في نفسه فهو معجب بنفسه،عليه أن يداوي قلبه؛ لأنه ذو قلب مريض، أبو بكر وهو أبو بكر– وحسبك به جلالة وقدرًا هو من أهل الجنة بإجماع المسلمين وهو أفضل البشرية بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذه الأمة– حين قال يا رسول الله علمني دعاء أدعو به في صلاتي، قال: ﴿قل اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم﴾ والنبي صلى الله عليه وسلم هو خير من وطئ على الأرض كان إذا فرغ من صلاته ماذا يقول؟ أستغفر الله.. ثلاثا، اللهم أنت السلام ،ومنك السلام ، تباركت يا ذا الجلال والإكرام، والله جل وعلا قال لنبيه: ﴿**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا**﴾.

وجاء في الصحيحين في حديث عائشة: كان الرسول صلى الله عليه وسلم أكثر ما يقول في ركوعه وسجوده: ﴿سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي﴾، يتأول القرآن.

وكل ذلك في إثبات صفة المحبة، ومن لم يثبت ذلك فما عرف الله حق المعرفة وألحد في أسماء الله وآياته، والله يقول: ﴿**وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ**﴾ أي: يزيغون عن الحق.

وقوله: ﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾:

أي من الذنوب والآثام، والمتطهرين: الطهارة الحسية، يسبغون الوضوء حيث أمرهم الله ويغتسلون حيث يوجد سبب الغسل، فلا يتخلفون عن ذلك، ولسان حال هؤلاء يقول: ﴿**وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى**﴾، فهؤلاء لا يسارعون إلى الطاعة، أو هم يعيدون كل البعد عن الوقوع في الآثام، و مخلفات الجاهلية ،وإذا وجد من أحدهم ذنب سارع إلى الاستغفار والتوبة والصدقة والذكر خوفًا من الله، وخوفًا من ضرر الذنوب والآثام، فإن هذه الآثام تجتمع على القلب، وتهلكه والعياذ بالله وقد تؤدي به إلى سوء الخاتمة، وقد ذكر ابن دقيق العيد رحمه الله تعالى بأن أكل الربا مسوغ وعلامة على سوء الخاتمة، نسأل الله السلامة والعافية – وكذلك الغيبة والنميمة وبهت الناس، وهذا كله مجرب في سوء الخاتمة، فالناس المولعون بأعراض الناس، المتتبعون لعثراتهم الذين يبهتون وينمون بدون حق، فلان فيه كذا،بدون خجل يتندرون بشينه، وعيبه، هؤلاء قد يصيبهم الله في أخريات أيامهم بالخبال، ويقعون في سوء الخاتمة.

قوله: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾:

أي إن كنتم تدعون وتقولون بألسنتكم نحن نحب الله فهذا اختبار لكم وامتحان، ﴿**فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ**﴾، هذه الآية تسمى آية المحنة وتسمى آية المحبة، حيث ادعى قوم محبة الله، فامتحنهم باتباعه، ويؤخذ من ذلك أن العمل داخل في مسمى الإيمان ففيه الرد على المرجئة.

ويؤخذ من ذلك أن الدعوة ليست بالأقوال وهو الرد على الكرامية، والجهمية، وغلاة المرجئة، والأشاعرة ، وغيرهم من أهل البدع الذين يقولون بألسنتهم ولا يباشرون ذلك بأفعالهم، ويدعون محبة الله، لو كانت الدعوة باللسان لما امتحن الله هؤلاء الداعين ، ولكانت دعواهم كافية عن العمل، ولكن حين يدعون ويقولون بألسنتهم اختبرهم الله بالفعل فهو المحك بين المؤمنين الصادقين وبين المنافقين أو غلاة الجهمية والمرجئة والأشاعرة والكرامية والسالمية وطوائف أهل البدع.

فالذين يقولون: نحن آمنا وأسلمنا وهم مقيمون على الشرك، وخرق الشريعة وعلى التحاكم إلى منظمة الأمم و مجالس الحقوق الدولية، إلى غير ذلك ويدعون الإسلام- هؤلاء كذبة، الإسلام ليس مجرد كلمة، لو كان الإسلام كلمة لقالها أبو طالب وقالها أبو لهب، وقالها أبو جهل،لو كانت مجرد كلمة لقالها هؤلاء جميعا ،ولنالوا بها رحمة الله ، قبح الله أبا جهل لقد كان أعلم منهم بكلمة لا إله إلا الله.

امتنع أبو طالب عن قول لا إله إلا الله وهو يعلم أن قولها لا يعني التبرؤ من ملة عبد المطلب،وملة عبد المطلب خير من مؤسسات الحقوق الدولية ، وخير من تشريعات هيئة الأمم الكفرية، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿يا عمي، قلها كلمة أحاج لك بها عند الله﴾ فقال له أبو جهل:أترغب عن ملة عبد المطلب؟ عرف أنه إن قالها موقناً تبرأ من ملة عبد المطلب ؛ولذلك الحديث في صحيح مسلم قال: ﷺ: ﴿من قال لا إله إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله ، حرم ماله ودمه وحسابه على الله عز جل﴾، قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى: في مسائل كتاب التوحيد على هذا الحديث قال: وهذا من أعظم ما يبين معنى : " لا إله إلا الله " فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصما للدم والمال ، بل ولا معرفة معناها مع لفظها ، بل ولا الإقرار بذلك ، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له ، بل لا يحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله ، فإن شك أو توقف لم يحرم ماله ولا دمه ، فيا لها من مسألة ما أعظمها وأجلها ، ويا له من بيان ما أوضحه ، وحجة ما أقطعها للمنازع.

فهؤلاء ادعوا محبة الله فامتحنهم الله جل وعلا، والشاهد من الآية ﴿يحببكم الله﴾ في إثبات صفة المحبة لله تعالى.

فعلى كل مسلم أن يسعى إلى نيل هذه المرحلة العظيمة والمنزلة الرفيعة ويتقرب إلى الله جل وعلا بما

يمكنه ليحظى بهذه المحبة، وقد جاء في صحيح البخاري عن سليمان بن بلال عن الشريف عن عطاء عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: ﴿قال الله تعالى: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه،فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي عليها، ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض عبدي المؤمن يكره الموت، و أكره مساءته﴾.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾:

الله جل وعلا يحب الذين يجاهدون ويقاتلون عدو الله، ويواجهونه بعزيمة الصادقين وقوة المؤمنين،ويوحدون الصفوف في مواجهة التحديات الخارجية، ويقاتلونه في فلسطين، ويقاتلونه في العراق، ويقاتلونه في كشمير ويقاتلونه في الشيشان، ويقاتلونه في كل مكان تُعلى فيه كلمة الله ولتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى.

الله سبحانه جل وعلا يحب هؤلاء، وكثير من أبناء هذا العصر جعل هؤلاء مبغضين إرهابيين مكروهين، يلصقون بهم كل تهمة، ويتحدثون عنهم بما لا يتحدثون عن اليهود والنصارى،لا مانع إذا رأى الإنسان على إخوانه غلطا أن يوجه وأن يصحح لكن بالعدل والقسط الذي قامت به السموات والأرض،مع إظهار المحبة والنصح.

أما أن يتخلف الإنسان عن نصرتهم ثم يسكت ويتباكى من أحداث سبتمبر إلى عاشوراء، فيبكي على النصارى ويبكي على مشركي عاشوراء في كربلاء، وما أدراك ما كربلاء وهكذا،ولا يتباكون على الضحايا الذين يسقطون في كل يوم،ويتباكون على المشركين الوثنيين من الرافضة واليهود والنصارى.

هؤلاء مخذولون منهزمون فكريا وعقديا وسياسيا وفي نفس الوقت هؤلاء يكتبون أشد الألفاظ، هناك ألفاظ لا يطلقونها على أعداء الدين، كدعوى أن هؤلاء فجرة، أو أن هؤلاء لايسترشدون بآراء العقلاء، أو أن هؤلاء سفهاء، ، وهذه الصفات لا يطلقونها على مشركي عاشوراء،ولا على المشركين القائمين على لعن الصحابة في هذه الأماكن، وإنما يطلقون هذه الألفاظ على الموحدين، ونحن لا نمنع كون الإنسان ينقد،بل هذا حق مشروع له،مادام يسير على الكتاب والسنة،ولكن لماذا يكون هؤلاء الذين يفتكون بالمشركين فجرة،؟لماذا هذا فاجر وذاك ليس بفاجر؟ لولا الظلم والبغي والعدوان وسوء المنهج لما قيل ذلك.

قوله جل وعلا: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾:

الودود شديد المحبة، وفي ذلك إثبات لصفة الحب لله جل وعلا.

هكذا تحدثنا عن إثبات صفة المحبة ولا يختلف في ذلك أهل السنة، وشرق بذلك أهل البدعة من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة وغيرهم.

وهؤلاء مراتب، المرتبة الأولى: الذين ينكرون الأسماء والصفات مطلقًا، وهؤلاء كثيرون من الباطنية والإسماعيلية والرافضة والجهمية ونحو هؤلاء، وكثير من الناس حين يتحدث عن النفاة يربط ذلك بالجهمية، وهذا حق لكن لا يختصون بذلك.

الرافضة أخبث من الجهمية في باب الأسماء والصفات.

النوع الثاني: الذين يثبتون الألفاظ دون المعاني، وهؤلاء طوائف كثيرون منهم المعتزلة، يقولون بأن الله سميع بلا سمع، عليم بلا علم، رحيم بلا رحمة، وهذا مناقض للمنقول ومكابرة في المعقول، فلا يصح أن يوصف أحد بأنه سميع ولكن لا سمع له، فلا يصح أن يسمى زيد ويصح أن يقال ليس في شخص.

وانحرف في هذا الباب المفوضة حيث يؤمنون بالأسماء والصفات ولا يثبتون المعاني، ،أهل العلم يعتبرون المفوضة شر من المعتزلة على اعتبار أن المفوضة موهمون بعباراتهم وكلامهم أنهم على مذهب أئمة السلف، لأنهم يقولون نثبت هذه الأسماء والصفات ولكن لا يثبتون المعاني ، ولذلك يقولون تقرأ ولكن لا تفهم أي بمنزلة الأميين الذين يقرؤون ولا يعون.

طوائف من هؤلاء ليس كلهم يقولون: ولا بأس أن الإنسان لا يقرأ آيات الأسماء والصفات حتى لا يقع في قلبه شيء من حقائقها، وقد رد عليهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في كتابه (الرد على الملاحدة والزنادقة) وهو مطبوع (المجلد السادس من الفتاوى المصرية) وهو كتاب عظيم ومهم، فهذا يقتضي أن النبي ﷺ أخطأ حين قال: من قرأ آية الكرسي دبر كل صلاة لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت،أو يقتضي أن يكون الخطاب خاص بالعلماء دون غيرهم، وكلا الاحتمالين ضلال وانحراف في الفكر والمنهج والعقيدة.

سبب ضلال هؤلاء سوء مصادر التلقي عندهم، والحقيقة أن مصادر التلقي هي سبب ضلال هؤلاء، كما أن هداية أهل السنة والجماعة سببها حسن التلقي عندهم، ولا ينفي وجود انحرافات فردية لدى طوائف من أهل السنة، الكلام على الأصول وليس كلام على الفرديات.

أهل السنة يقولون أن مصادر التلقي هي الكتاب والسنة، الأشاعرة والمتكلمون وغيرهم يقولون بأن مصادر التلقي هي العقل ثم النقل فيقدمون العقل على النقل، وهؤلاء أيضًا في تناقض آخر يجوزون التناقض في العقل والنقل، وأهل السنة لا يؤمنون بذلك؛ يقولون بأن العقل الصحيح لا يخالف النقل السليم.

وإذا تعارض نص لفظ وارد	والعقل حتى ليس يلتقيان
فالعقل إما فاسد ويظنه	الرائي صحيحا وهو بالبطلان
أو أن ذاك النص ليس بثابت	ما قاله المعصوم بالبرهان

القسم الثالث: الذين يؤمنون بالألفاظ ويحرفون المعاني، كالأشاعرة والكرامية والماتردية ، وآخرين – يقولون نثبت لله هذا اللفظ ولكن معناه كذا وكذا، يقولون: نقول بقوله الله جل وعلا:﴿**فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ**﴾ ولكن المحبة علامة على القبول، يقولون نثبت لله الرحمة ولكن علامة على إرادة الإحسان والجزاء، وهذا تحريف للكلم عن مواضعه لعدة أمور:

الأمر الأول: أنهم يقولون ذلك تحاشيًا عن مماثلة صفات المخلوق للخالق، وهم في الحقيقة يشبهون أولاً ثم يعطلون ثانيًا ثم يشبهون ثالثًا، الأمر الذي أدى بهم إلى هذا التأويل الفاسد لغة وشرعًا هو أنهم يظنون أنه إذا وافق اللفظ اللفظ وجد التماثل، وهذا جهل، حتى بعض أهل السنة يجهل القضية،وهي أن المنفي في القرآن هو التماثل لم ينف التشابه ،وهذا وضحه شيخ الإسلام بقوة في مناظرة العقيدة الواسطية، المنفي التماثل ولم ينف التشابه؛ لأن التشابه نسبي.

الأمر الثاني: لما شبهوا– وجد في النفوس هذا التشبيه– عطلوا، نفوا حقائق هذه الأسماء والصفات عن الله، ثم وقعوا حين فروا منه ثالثاً وقعوا في التشبيه، شبهوا الله بالجمادات والمعدومات؛ لأن الذي لا يسمع ولا يبصر ولا يرحم ولا يغضب وليس بمستو على عرشه هذا ليس بإله ولا بخالق.

تقدم بالأمس أن طوائف من المشركين يؤمنون بهذا سواء كان من مشركي قريش أومن مشركي القرون الأولى، والدليل على ذلك قوله سبحانه وتعالى حين قال إبراهيم لأبيه:﴿**يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا**﴾، لم يقل آزر وهو مشرك مع أنه يريد أن يحاج ابنه إبراهيم لم يقل: وربك لا يسمع ولا يبصر، فكان إبراهيم يحتج عليه بأن الله هو السميع البصير ولم يكونوا يعارضونه بشيء من ذلك،فيقول إبراهيم عن آلهتهم بأنها لا تسمع ولا تبصر،إذاً لا يعبد الذي لا يسمع ولا يبصر إنما يعبد الذي يسمع ويبصر، لم يكن أحد منهم يعترض و يقول: وربك لا يسمع ولا يبصر ،كانوا يؤمنون بذلك، ولكن يأتون بحجج أخرى.

صفة الرحمة

وَقَوْلُهُ : ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ [الفاتحة: ١].

﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾[غافر: ٧].

﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾[الأحزاب: ٤٣]. **﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾** [الأعراف: ١٥٦]. **﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾** [الأنعام: ٥٤] . **﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾** [يونس: ١٠٧]. **﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾** [يوسف: ٦٤].

الشرح

قوله جل وعلا: **﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾**:

الباء للاستعانة، أي أبدأ مستعينًا بالله متوكلاً عليه، متعلقًا به ،مفوضًا الأمر إليه، والبسملة فيها كل معاني التوحيد، إذا قال العبد (بسم الله) هو أقر بوجود الله، إذن هذا هو توحيد الربوبية، وفي نفس الوقت آمن بتوحيد الأسماء والصفات، وذلك في ثلاثة أمور: لفظ الجلالة : الله، الأمر الثاني : الرحمن،الأمر الثالث: الرحيم

وفي البسملة توحيد الإلهية، لأنه قال بسم الله، لم يقل باسم الشيطان ولم يقل باسم الآلهة كالمشركين والباطنيين وغيرهم. هو قال: بسم الله، وإله من إله يأله إلهة، أي عبد يعبد عبادة، والإله حقيقة هو المألوه حبا وتعظيما، وإجلالاً، ولا يختلف العلماء في أن معنى كلمة الإخلاص (لا إله إلا الله) أي لا إله يعبد بحق إلا الله ومن قال: لا إله لنا، أو لا إله معبود، أولا إله موجود فقد غلط، وهذا قول المتكلمين، – وقد وقع في ذلك كثير من النحاة– حين يعربون كلمة الإخلاص، لا نافية للجنس إله اسمها، إلا أداة حصر، الاسم الشريف يكون بدلا من خبر محذوف تقديره معبود، ومنهم من يقول لنا، ومنهم من يقول موجود، وهذا كله غلط، الخبر المحذوف تقديره حق، لأن الآلهة المعبودة كثيرة، قال الله جل وعلا: **﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾**، **﴿أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ﴾**، **﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾**.

وتقسيم التوحيد إلى ثلاثة أقسام ربوبية وألوهية وأسماء وصفات أمر اجتهادي مأخوذ من أدلة القرآن والسنة، والأكثرون من العلماء يجعلونه ثلاثة أقسام، وذهب ابن تيمية وابن القيم وجماعة إلى أنه قسمان، فيدخل أحدهما في الآخر.

بعث الله الرسل بتوحيد الإلهية، وكانت الخصومة بين الرسل وأممهم في توحيد الإلهية، ولم يكن هؤلاء

ينكرون وجود الله، فقد أخبر الله عنهم في مواطن أنهم يقرون بأن الله هو الخالق والرازق ولكن لا يفردون الله بالعبادة، ولا ينفي هذا وجود طوائف لا يؤمنون حتى بوجود الله كالدهرية الذين يقولون: أرحام تدفع وأرض تبلع، ﴿**أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ**﴾.

إذن نأخذ من ذلك ،من الآية: ﴿**بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**﴾ [سورة النمل:٣٠] إثبات اسمي الله جل وعلا (الرحمن الرحيم) فالرحمن اسمه وصفته ولا يطلق إلا على الله، والرحيم اسمه وصفته ولكن يطلق الوصف على غير الله ،لا بأس أن تقول: زيد رحيم، كما قال الله عن نبيه ﴿**بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**﴾ لكن لا يجوز بالإجماع أن تقول: فلان رحمن فهذا اللفظ لا يطلق إلا على الله، ومن تسمى به أو اتصف به ألبسه الله جلباب الكذب والخذلان، فحين تحركت نفس مسيلمة إلى التسمي بذلك –علق به (مسيلمة الكذاب) وهو يسمي نفسه (رحمن اليمامة) ،ولا يكاد يعرفه البشر إلا بمسيلمة الكذاب، فمن نازع الله في أسمائه وصفاته علق به اسم آخر، كالمشرعين الآن الذين ينازعون الله في اسمه (الحكم): ﴿**إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ**﴾ إن الله هو الحكم، وينصبون أنفسهم مشرعين، هذا رئيس لجنة التشريع وهذا نائبه، وهذا وزيره، ولذلك علق بهم اسم الطاغوت، لا يعرفون إلا بالطواغيت، ولذلك أمر الله بالكفر بهم وأرسل الرسل في ذلك، ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**﴾ هذا اسمهم وهذا وصفهم في القرآن.

وقوله جل وعلا: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾:

فالله واسع الرحمة وواسع العلم، وتقدم الحديث عن العلم وأن الله موصوف بالعلم، وأن الأشاعرة يشاركون أهل السنة في ذلك، وأن إثبات الأشاعرة يختلف عن إثبات أهل السنة، ففيه إثبات لصفة الرحمة.

وجاء في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: فيما يروي عن ربه:((**إن رحمتي سبقت غضبي**)) وقال تعالى: ﴿**إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ**﴾.

والرحمة نوعان: رحمة مخلوقة مذكورة في قول الرسول ﷺ:((**إن الله خلق مائة رحمة أنزل واحدة واختبأ عنده تسعة وتسعين**)) النوع الثاني: الرحمة التي هي صفة من صفات الله، من قال بأنها مخلوقة فإنه كافر، وهي صفة كمال، الأشاعرة يفسرون الرحمة بالرقة، ثم لا يجوزون هذا على الله ،ثم يضطرون إلى نفي صفة الرحمة عن الله فهم في الحقيقة أتوا من التشبيه، فهم يشبهون ثم يعطلون، ثم يشبهون ثالثًا.

ولله در بعض أئمة السلف وهو حماد بن زيد، حين ناظر أحد الجهمية فقال له: في بيتك نخلة قال: نعم، قال: لها جذع، قال: لا، قال فيها فرع، قال: لا، قال فيها سعف، قال: لا، قال فيها ثمرة،

قال: لا، قال: إذن هي ليست نخلة،ولا تسمى نخلة، كذلك أنتم نقول لكم: لكم رب، تقولون: نعم، يسمع: لا، قال، يبصر: لا، يرضى: لا، ينزل: لا، استوي على العرش: لا، إذن لا رب لكم.

لأن الذي لا يتصف بهذه الصفات ليس ربا ، الله هو الموصوف بالسمع والبصر، والرحمة والغضب والمحبة والنزول والاستواء ونحو ذلك من الصفات المجمع عليها ،وتواترت بها الأدلة.

وقوله جل وعلا: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾:

بخلاف الرحمن، رحمن في الدنيا والآخرة، والرحمة لا تكون إلا للمؤمنين، **﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾** بخلاف الكافرين، قال الله جل وعلا: **﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾**، فإن الله غضب على هؤلاء، نثبت رحمة الله للمؤمنين ، وغضبه على اليهود والنصارى والكافرين من المشركين وغيرهم، فالرحمة للمؤمنين، **﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾** ولذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله، ولن يغضب مثله أبدا﴾.

فنثبت لله جل وعلا صفة الرحمة وصفة الغضب، الرحمة بالمؤمنين والغضب على الكافرين، وهذه الصفات صفات كمال وهي حقائق تثبت على حقائقها فلا يجوز تحريفها ولا العدول بها عن حقائقها ومعانيها.

وتجب البراءة من الممثلة الذين يقولون رحمة الله كرحمة المخلوق، ومن المعطلة الذين ينفون عن الله ذلك.

تحدثت بالأمس عن وجود طوائف في القرن الرابع والخامس والسادس وأوائل السابع وإلى عصرنا هذا، لكن يقلون ويكثرون، وكان لهم في نفوذ في القرن الرابع والخامس والسادس يحكون مذهب الأشاعرة على أنه اعتقاد أهل السنة، وهذا تقرؤه في كتاب الفرق بين الفرق لأبي بكر البغدادي، وتقرؤه في كتب القرطبي، وتقرؤه في كتب النووي، يقول: قال أهل السنة، يقصدون بذلك الأشاعرة، فوجب التنبه لذلك، للذين لا يعرفون، يظنون أن هذا يقصدون به حكاية مذاهب أهل السنة المتمسكين بما عليه النبي ﷺ وعليه الصحابة من الخلفاء الراشدين وبقية العشرة المبشرين بالجنة وآخرين.

قوله: **﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾**ففيه إثبات صفة الرحمة وفي هذا أن الرحمة وسعت كل شيء، ولكن قال الله عز وجل: **﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾**إذن فلا تنال الكافرين ،ولا تنال المشركين، إذن فمن أراد رحمة الله فليسع إلى طاعة الله وطاعة رسله، وقد جاء في صحيح البخاري من رواية فليح بن سليمان، عن هلال بن علي عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:((**كل أمتي يدخلون**

الجنة إلا من أبى قالوا: يا رسول الله ومن يأبى؟ قال: من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى)).

وتقدم قبل قليل أن الرحمة تطلق على الرحمة المخلوقة كقوله صلى الله عليه وسلم:((**إن الله خلق مائة رحمة**)) وقول الله جل وعلا للجنة:((**أنت رحمتي**))،والرحمة صفة من صفات الله جل وعلا كالمذكور في هذه الآيات فلا يختلف في ذلك أهل العلم.

فأهل السنة يثبتون لله جل وعلا صفة الرحمة إثباتًا بلا تمثيل وتنزيها بلا تعطيل، لأن الله ليس كمثله شيء ولا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله وهو السميع البصير.

وقال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾:

كتب بمعنى أوجب، فالله جل وعلا أوجب على نفسه ولم يوجبه عليه مخلوق، والناس مختلفون في هذا ، فمنهم من قال : إن هذا واجب أوجبه المخلوق على الله، وهذا مذهب المعتزلة ومذهب طائفة من المبتدعة، ومنهم من قال إن الله لا يوجب على نفسه شيئا وهذا ضلال وانحراف مخالف للقرآن.

هدى الله أهل السنة والجماعة لما اختلف فيه فيقولون بأن الله يوجب على نفسه ولا يوجب عليه المخلوق، والله يوجب على نفسه إنعامًا وتفضلاً:

ما للعباد عليه حق واجب … كلا ولا سعي لديه ضائع
إن عذبوا فبعدله أو نعموا … فبفضله وهو الكريم الواسع

﴿**كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ**﴾ في ذلك إثبات توحيد الأسماء والصفات وهذا بدلالة المطابقة، وفيه إثبات توحيد الربوبية بدلالة التضمن، الدليل على بعض معناه، وفيه إثبات توحيد الإلهية بدلالة الالتزام، ما معنى ذلك؟

الدلالات ثلاث :دلالة المطابقة وهي دلالة الدليل على كل معناه، دلالة تضمن: وهي دلالة الدليل على بعض معناه، دلالة التزام، دلالة الدليل على أمر خارج لازم للمعنى.

وقوله جل وعلا: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾:

فيه إثبات اسمين الغفور اسمه وصفته، والرحيم اسمه وصفته.

فنثبت لله صفة المغفرة، ونثبت لله صفة الرحمة، إثباتًا بلا تمثيل، وتنزيها بلا تعطيل، ولكن ينبغي كما تقدم بالأمس حيث تحدثت بتوسع وقبل الأمس أيضًا أن نعلم أن هذه الأسماء ليست مجرد ألفاظ نثبتها

ونؤمن بمعانيها دون تطبيق ذلك في أرض الواقع، الأسماء والصفات لها آثار، فحين نؤمن بأن الله هو الغفور ونثبت لله صفة المغفرة، لا بد أن نتصف نحن أيضًا بصفة المغفرة والتجاوز عن آفات المخلوقين، نثبت لله صفة الرحمة، فنتصف بالرحمة، فإن الله قد كتب الإحسان على كل شيء، فإذن الرحمة ممتدة على البهائم والطيور والحشرات، فليس من الرحمة في شيء أن نسلط ألسنتنا على الآخرين بدون حق، ليس من الرحمة في شيء أن نعذب بالنار حتى الحشرات، ليس من الرحمة في شيء أن نوجع ظهور العباد بالسياط، ليس من الرحمة في شيء أن نقتات بلحوم العلماء والدعاة والمصلحين، ليس من الرحمة في شيء أن نبهت المخلوقين وإن كنا نختلف معهم في الفكر والمنهج ،ليس من الرحمة في شيء أن نظلم العباد.

إذن لا بد أن يكون لذلك أثر، فكوننا نؤمن ولا نجد أثرا هذا هو انحراف ،كالذين يؤمنون باللفظ هم سيان في الضلال والانحراف طائفة لا يؤمنون بالألفاظ، وطائفة يؤمنون بالألفاظ ولا يؤمنون بالمعاني المثبتة لله ولا تتمثل فيهم حقيقة ذلك في واقعهم، وطائفة يؤمنون بالألفاظ والمعاني ولكن لا تتمثل حقيقة ذلك في واقعهم، هؤلاء ضالون وهؤلاء منحرفون وإن كان الضلال والانحراف يتفاوت من شخص إلى آخر.

قوله: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾:

فالله خير حافظا لجوء إلى الله واتكال عليه وتفويض الأمر إليه، فمن علم بأن الله هو الحافظ، وأن الله هو الحكيم، فهذا يجعله يتوكل عليه أكثر ويفزع إليه أكثر من غيره، ويقدر ما ينقص في قلب العبد من تحقيق هذا المعنى بقدر ما يقل توكله على الله والاعتماد على الله وتفويض الأمر إلى الله، فالله جل وعلا خير حافظًا وهو أرحم الراحمين.

وفيه إثبات الرحمة للمخلوق، ولكن الله هو أرحم الراحمين، ولكن لم ينف الله جل وعلا عن الآخرين الرحمة، ولكن رحمة المخلوق نسبية، وغير معتدلة، قد يرحم في شيء ويجور ويظلم في شيء آخر، لكن الله جل وعلا حكم عدل يقوم بالقسط وهو أرحم الراحمين، ورحمته وسعت كل شيء فالله جل وعلا: ﴿هو خير حافظًا﴾ فنؤمن بذلك ونتوكل عليه ونفوض أمرنا إليه؛ ولا نؤمن بمجرد الألفاظ، وفي نفس الوقت نستحكم غيره ونستنصر بغيره ونلجأ إلى غيره، الإمام ابن عقيل رحمه الله تعالى، ابن عقيل رحمه الله هو نموذج من هذا، نموذج من الذين يؤمنون بالألفاظ ونموذج أيضًا من الذين لا يؤمنون بمعتقدات أهل السنة والجماعة في إثبات المعاني فيحرف المعاني، ويقول عن الرحمة إرادة الإنعام،ويقال إنه تاب في آخره، لكن ماذا يقول في المعاني، هو مؤمن بالمعاني حقيقة ، مؤمن بأثر هذه المعاني وبأثرها على المخلوق

فهو يقول: أنا لا أنظر ولا أقيس إيماني بالازدحام عند باب المساجد ولا في قول لبيك اللهم لبيك، ولكن أنظر وأقيس إيماني أين يفزع قلبي عند حدوث النكبات والشدائد.

بعض الناس حين تحصل له نكبة أو شدة وله واسطة أو مكانة أو ارتماء في أحضان مخلوق يفزع قلبه إلى هذا المخلوق وأنه هو الذي يتوسط له أو ينجيه من هذا الكرب فيخذل.

وبعض الناس يلجأ إلى الله ويتوكل عليه وينيب إليه ولسان حاله يقول: ﴿**فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**﴾.

إذا انقطعت أطماع عبد عن الورى — تعلق بالرب الكريم رجاؤه
فأصبح حرا عزة وقناعة — على وجهه أنواره وضياؤه
و إن علقت بالخلق أطماع نفسه — تباعد ما يرجو وطال عناؤه
فلا ترج إلا الله في الخطب وحده — ولو صح في خل الصفاء صفاؤه

إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم، حيين ألقى في النار ماذا قال؟ ﴿**حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**﴾ لم يلجأ إلى مخلوق ولا من يتوسم فيه خيرًا في نصرته، فلم يبعث وسائط للقوم المجرمين يخفقون عنه العقوبة، لجأ إلى الله فلذلك نجاه الله من القوم الظالمين قال: ﴿**حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**﴾ أي كفيلي الله ونعم الوكيل وله نفوض أمرنا، فقال جل وعلا: ﴿**يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ**﴾.

نبينا محمد ﷺ حين قيل له ﴿**إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ**﴾ ماذا قال؟ قال: ﴿**حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**﴾.

والنماذج الحية الموجودة المتمثلةفي أئمة الهدى ومصابيح الدجى إلى عصرنا هذا كثيرة من الذين يلجؤون إلى الله ولا يلجؤون لمخلوق.

شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى حين ذهب على البلاد المصرية، وتواطأ أهل مصر على قتله، فتوجه إليه بعض المحبين له وقالوا له: إنهم قد أعدوا لك عددهم وعددهم يريدون قتلك، وكان متوسداً على طرف من الحصى ،لو قيل ذلك لبعض الناس ربما احمر وجهه واصفر، وربما أغمي عليه في مكانه،لكنه استقعد وأخذ ترابًا ثم نفخ فيه وقال:إن هم إلا كالتراب،وقيل إنه قال:إن هم إلا كالذباب ...

وحين سجن ماذا قال؟ قال: (ما يصنع بي أعدائي)، ليس كالواحد منا حين يسجن يبحث عن واسطة لتخرجه ويقول: (رب أخرجني) قل: (رب ثبتني)، الناس الذين سجنوا وقال الواحد منهم (رب

أخرجني) غلط ، قل(رب ثبتني): كم شخص دخل السجن، وخرج منحلاً عن عقيدته منحرفًا ضالاً أو زنديقا أو فاسقًا أو عارًا على أهل الحق، فسل الله الثبات، ولا حرج أن تسأل بعد ذلك المخرج، لكن سل الله الثبات، كم شخص سجن ودعا الله أن يخرج فخرج ،وخرج منحرفًا ،كم شخص سجن وسأل الله الخروج فخرج وصار خبيثًا ووبالاً على هذه الأمة، سل الله الثبات... يقول الإمام:(ماذا يصنع بي أعدائي إن سجنوني فسجني خلوة)، هذا أثر من آثار الإيمان بالأسماء والصفات، فإذاً لا بد أن ندرس الأسماء والصفات وأن نطبق ذلك على أرض الواقع، وتتمثل آثاره في واقعنا، إذا كنا نؤمن بالألفاظ دون المعاني،ولا تتمثل آثار ذلك في واقعنا – إذاً ما استفدنا من الإيمان بالأسماء والصفات، الإمام بعد ذلك يقول: (إن سجنوني فسجني خلوة، وإن قتلوني فقتلي شهادة، إن أخرجوني فإخراجي سياحة).

صفات الرضا والغضب والسخط والكراهية والمقت

قَوْلُهُ: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة:١١٩].

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ﴾ [النساء:٩٣]. وَقَوْلُهُ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ [محمد:٢٨].﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف:٥٥].وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٦]. وَقَوْلُهُ:﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف:٣].

الشرح

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في الحديث عن صفات الله جل وعلا: صفة الرضا وصفة الغضب وصفة الكره والمقت.

فلا يختلف أهل السنة والجماعة في إثبات ذلك وهذه الصفات من الصفات الفعلية الاختيارية.

وصفات الله جل وعلا نوعان:

صفات ذاتية، كالوجه واليدين ونحو ذلك، **وصفات فعلية اختيارية** كالرضا والغضب والمقت والكره والانتقام ونحو ذلك، وأهل السنة والجماعة لا يختلفون في إثبات هذا وذاك، ولا يحرفون الكلم عن مواضعه يؤمنون بكل ما جاء عن الله على مراد الله، وبكل ما جاء عن رسول الله ﷺ على مراد رسول الله ﷺ.

ويؤمنون بأن هذه الصفات صفات كمال لله جل وعلا.

ويؤمنون بغيرها مما دلت عليه الأدلة من الكتاب والسنة أو أحدُهما.

قوله جل وعلا: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾:

أي عن الصحابة ففيه إثبات صفة الرضا، وهي من الصفات الفعلية الاختيارية، فالله جل وعلا يرضى عن القوم المؤمنين، ﴿وَرَضُوا عَنْه﴾ أي حيث حباهم وأكرمهم ونصرهم وأعزهم وأدخلهم جنته.

وقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ **للذين أحسنوا**: أي قاموا بأمر الله وأمر رسوله ﷺ، **الحسنى**: أي الجنة. **وزيادة**: النظر إلى وجه الرب جل وعلا.

فيؤخذ من ذلك إثبات صفة الرضا، ويؤخذ من ذلك إثبات الصفات الفعلية لله جل وعلا، ويؤخذ من ذلك إثبات الصفات الاختيارية لله جل وعلا، ففيه الرد على المعتزلة وعلى الجبرية وعلى الأشاعرة

وغيرهم من أهل البدع، وفيه الرد على الرافضة حيث رضي الله على الصحابة أجمعين وهؤلاء يلعنون من ﷺ ويمدحون من سخط الله عليه من دعاة الشرك كنصير الشرك الطوسي يمدحونه ويثنون عليه وكنصير التتر ابن العلقمي ويعتبرون تواطؤه ومؤامرته على الإسلام أو يمتدحون تواطؤه ومؤامرته مع التتر على الإسلام والمسلمين.

فتاريخ الرافضة اليوم أخبث من تاريخهم بالأمس فهم في كل عصر وفي كل جيل حمير لليهود والنصارى.

ويؤخذ من ذلك إثبات القدرة للعبد والمشيئة للعبد، فمشيئة المخلوق تابعة لمشيئة الخالق، قال الله جل وعلا: ﴿**وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾.

وقوله جل وعلا: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا﴾:

قوله: ﴿ **وَمَنْ**﴾ من صيغ العموم اسم شرط لازم تجزم فعلين: الأول: فعل الشرط، والثاني: جوابه وجزاؤه، ولا يتحقق جواب الشرط إلا بتحقق فعل الشرط.

﴿**وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا**﴾ القتل هو: إزهاق النفس، بحديدة أو غيرها، قوله: ﴿ **مُؤْمِنًا**﴾ خرج من ذلك الكافر؛ لأن الكافر ليس له حرمة كحرمة المسلم، ولأن الكفار يدعون إلى الإسلام، فحين يجيبون تعصم دمائهم وأموالهم، وحين يمتنعون يدعون إلى الجزية فحين يجيبون تقبل منهم ويكف عنهم، وحين يمتنعون يقاتلون بإجماع المسلمين، وهذا يسمى عند الفقهاء بجهاد الطلب، وهو أن تطلب الكفار في عقر ديارهم وتبحث عنهم في أماكنهم لتكون كلمة الله هي العليا، يستثنى من ذلك المستأمن والمعاهد الذي يأتي لمصالح المسلمين أي يأتي بأمان ليؤدي مهمة دنيوية ولا ينقض العهد ولا ينكثه فلا يجوز الاعتداء عليه بإجماع؛ لقوله ﷺ:((**من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة**)).

المؤمن له حرمة عظيمة وقد قرن الله جل وعلا قتله بغير حق بالشرك بالله، فقال الله جل وعلا: ﴿**وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا**﴾، وقال النبي ﷺ:﴿**كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الشرك بالله والقتل**﴾، حديث جيد.

وهذا الكعبة على عظيم منزلتها عند الله وكبير قدرها في قلوب المؤمنين، هي لا تقارن في القداسة والعظمة والحرمة بحرمة المسلم، وحين نظر ابن عمر إلى الكعبة قال: (ما أعظم حرمتك عند الله، ووالله للمؤمن أعظم حرمة منك).

وقال ﷺ والخبر في الصحيحين:﴿**لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة**﴾.

قوله:﴿**مُتَعَمِّدًا**﴾ خرج من ذلك قتل الخطأ، ﴿**وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ**﴾.

وقوله: ﴿**فَجَزَاؤُهُ**﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط،﴿**فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا**﴾، الخلود هو المكث الطويل، وجاء الخلود في القرآن على نوعين، النوع الأول، **التأكيد بأبدا**، وهذا يختص به الكفار، فإنهم ماكثون في جهنم أبد الآبدين ودهر الداهرين.

قال الله جل وعلا:﴿**كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا**﴾، وقال تعالى: ﴿**لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا**﴾، قال الحسن البصري وغيره من العلماء: كلما مضى حقب، أتى حقب آخر، وهكذا يعذبون إلى غير أمد، ولا يختلف في ذلك العلماء والفقهاء.

والنوع الثاني: الحكم بالخلود دون تأكيده بأبدا، الأول جاء في الكفار، والثاني جاء في عصاة المسلمين قال الله جل وعلا في المؤمنون: ﴿**فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾، هذا لا يعني التأبيد ولا يعني الكفر، قال الله جل وعلا في لعنة من قتل مؤمنا ﴿**فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا**﴾ وهذا لا يعني أنه كافر لأنه لم يقل أبدا.

فالذين يريقون دماء المسلمين بغير حق معرضون للوعيد الشديد، ولا يحكم عليهم بأعيانهم لأنهم في النار، لأن الذي لا يختلف فيه أهل السنة والجماعة أنهم لا يحكمون على أهل الكبائر لا بجنة ولا نار، بل لا يحكمون على المسلمين لا بجنة ولا بنار، ولكنهم يرجون للمحسنين ويخافون على المسيئين، ويقولون في مثل قوله ﷺ: ﴿**لا يدخل الجنة قاطع رحم**﴾، ونحو ذلك أن هذا من نصوص الوعيد، ويقولون بأن الله جل وعلا لا يخلف وعده ولكن قد يخلف وعيده؛ لأن إخلاف الوعيد صفة كمال بخلاف إخلاف الوعد.

قوله: ﴿**وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ**﴾ هل الشاهد من ذكر هذه الآية في هذا الباب إثبات أن الله جل وعلا يغضب ويلعن، يغضب على من يستحق الغضب ويلعن من يستحق اللعن ويستوجبه، قال الله جل وعلا: ﴿**غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ**﴾ فالغضب صفة كمال لله جل وعلا، وقال النبي ﷺ كما يروي عن ربه: ﴿**إن رحمتي سبقت غضبي**﴾، وقال النبي ﷺ:﴿**إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله، ولن يغضب بعده**﴾ وغير ذلك من الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ في إثبات صفة الغضب، فالجهمية والمعتزلة والأشاعرة والماتردية وغيرهم، ينكرون صفة الغضب ولا يثبتون ذلك لله، ويرون أن إثبات

هذه الصفة يعني تماثل صفات الخالق بالمخلوق، وتقدم مرارا بأن هؤلاء يشبهون أولا ثم يعطلون ثانيا ثم يشبهون ثالثا، فالذي حدى بهم إلى إنكار صفة الغضب هو التشبيه المستقر في قلوبهم، والإلحاد المتمكن من أدمغتهم، حين نتحدث عن الإلحاد في باب الأسماء والصفات نقصد الميل دائما، ليس هو الإلحاد بمعناه الشمولي الذي هو إنكار وجود الخالق، أو الملاحدة التي تقول: إنما هي أرحام تدفع وأرض تبلع، نتحدث عن الإلحاد في باب الأسماء والصفات وما أعنيه هو الميل لقول الله جل وعلا: ﴿**وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ**﴾ أي يميلون، وهو من اللحد في القبر لأنه مائل.

الأشاعرة يعتذرون عن إثبات صفة الغضب لله بأمور:

الأمر الأول: يقولون: إن الغضب غليان الدم هذا في المخلوق والله منزه عن ذلك.

والأمر الثاني: لا يعتبرون الغضب صفة كمال.

الأمر الثالث: يقولون: حين نثبت لله صفة الغضب فنحن نشابه المخلوق بالخالق.

وإلا فهم يقرون بأن الله أطلق على نفسه فلا ينكرون القرآن.

الجواب عن هذا أمور:

الأول: أن الغضب لم يثبت في حق المخلوق أنه غليان في الدم؛ لأن الغضب يأتي للمخلوق في عدة أمور عدة أسباب فقد يكون هذا وقد يكون لسبب آخر، والناس يتفاوتون في الغضب، فالذين يغضبون حين تنتهك حرمات الله، غير الذين يغضبون حين تخالف أوامرهم.

الأمر الثاني: أنه حين يكون الغضب للمخلوق لا يؤدي هذا إلى تماثل الخالق مع المخلوق، لأن الله جل وعلا نفى عن نفسه المماثلة فقال: ﴿**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**﴾ فالله جل وعلا سمى بعض عباده ووصف بعض عباده بالسمع والبصر وسمى نفسه سميعا بصيرا، سمى عباده أحياءًا وسمى نفسه حيًّا فلا يلزم من وجود السمع والبصر والحياة للمخلوق أن تكون مماثلة أو مشابهة للخالق، لأن هذا الخالق وهذا المخلوق، والله جل وعلا جعل في عباده قدرة وله صفة القدرة وقدرة المخلوق تختلف عن قدرة الخالق.

والدليل الذي دلَّل الأشاعرة عليه لنفي صفة الغضب عن الله هو الحقيقة دليل نستطيع أن نستدل به على نفي الصفات السبع التي يثبتونها لله، فحين يثبتون لله صفة العلم، نقول فيه مشابهة لأن علم المخلوق مثل علم الخالق، الحين يقولون لا، يختلف، نقول الدليل الذي يُستدل به على الاختلاف هو نفس الدليل الذي يستدل به على الاختلاف في صفة الغضب، والدليل الذي يستدل به على إثبات

صفة العلم لله هو نفس الدليل الذي يستدل به على صفة الغضب لله لا يختلف هذا عن ذاك، إلا الذين يكابرون ويجمعون بين متناقضات ويفرقون بين المتناقضات هؤلاء خارجون عن نطاق الخطاب لأنهم ليسوا في عداد العقلاء، وهؤلاء الأشاعرة يدعون العقل ودائما ينادون بالعقل، يقدسون العقل أمام تقديس النقل.

وهؤلاء الذين ينادون بالعقل هم أجهل الناس بالمعقولات، وهم أبعد الناس عن الهدى وكثيرا إذا رأيت الرجل ينادي بشيء فهو يريد أن يغطي عيبه ونقصه، كواقع كثير الآن من هذا العصر المنتسبون للدعوة وإن كان لهم فضل يختلفون عن هؤلاء لكن حين يوجد عندهم نقص في مناقشة قضايا المسلمين ينادون الآن بالحكمة والتريث والعقل فهم يخذلون أو عندهم خذلان كبير للدين فيريدون تغطية الخذلان بالمناداة بالتريث والعقل والحكمة وبعد النظر، هم ما عملوا شيئًا من العقل والحكمة وبعد النظر، هم ما عملوا شيئا من ذلك، هم يسارعون في إدانة الأحداث المتعلقة بالوثنين وباليهود والنصارى، وأين العقل ؟ ولا يسارعون بإدانة الأحداث المتعلقة بالمسلمين، هذا يأتي العقل، ولا يأتي العقل عند الوثنيين.

فهؤلاء من هذا الباب يعتبرون أهل بدع وأهل ضلال، وإن لم يشابهوا هؤلاء ولم يضلوا كما ضلوا لكن في ضلال في أبواب أخرى وانحرافات، ولعل التأسيس الفكري والمنهجي هو الذي يؤدي بالعبد إلى هذا الضلال، والانحراف، فالذي لا يبني الأصول ولا التمسك ولا فكره ولا دينه ولا عقيدته على الكتاب والسنة فأتصور والعلم عند الله بأن يكون مآله كمآل هؤلاء، والذي يبني ثقافته وعلمه على مجرد الجرائد والمجلات والبحوث العامة والثقافة العامة ونحو ذلك يكون ملجأ وبؤرة للمتناقضات والبعد عن التماثل.

قوله:﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ**﴾:

أي هؤلاء الذين غضب الله عليهم وتتخطفهم الملائكة السر في ذلك أنهم اتبعوا ما أسخط الله، ويأخذ من ذلك إثبات صفة السخط لله، وهذه الصفة من الصفات الفعلية الاختيارية.

﴿**وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ**﴾ يأخذ من ذلك إثبات صفة الكره لله، وهما من صفات الكمال، ونعوت الجلال، وأخذ من ذلك إثبات صفة الرضا لقوله: ﴿**رِضْوَانَهُ**﴾ وقد تقدم ﴿**رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ**﴾وقال تعالى: ﴿**وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ**﴾ وأهل السنة يثبتون ذلك إثباتا بلا تمثيل وتنزيها بلا تعطيل، فلا يحرفون الكلم عن مواضعه ولا يلحدون في أسماء الله آياته ولا صفاته، لأن الله موصوف بصفات الكمال، ومن لم يستقر في ذهنه وفي فطرته بأن صفات المخلوق لا تماثل صفات الخالق وعنده قاعدة واضحة في التفريق بين الخالق والمخلوق لا يقع في ذهنه ما يقع في قلوب الأشاعرة أبدا، لأن هؤلاء يقع في أذهانهم بسبب التعاليم الفاسدة. من ذلك أن الأشاعرة يقدمون العقل على النقل فهذا أدى بهم إلى التناقض، ومن ذلك

التربية فهم يتربون على كتب المتكلمين فإن هذه الكتب مؤداها أنه لا يصح إيمانًا حتى يحصل شك واضطراب وتناقض ونحو ذلك، ولذلك قال بعض أكابرهم: يا ليتني أموت على عقيدة إحدى عجائز نيسابور.

وقال آخر وهو الشهرساني:

لعمري لقد طفت المعاهد كلها
وسيرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر: إلا واضعًا كف حائرٍ
على ذقن أو قارع سن نادم

وقال الرازي:

نهاية إقدام العقول عقال
وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا
وغاية دنيانا أذًى ووبالُ
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا
سوى أن جمعنا فيه قيل وقال

لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلاً، ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن.

أقرأ في الإثبات:﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**﴾ ﴿**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ**﴾، وفي النفي: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾ ،﴿**وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا**﴾، ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي.

وقوله جل وعلا:﴿**فَلَمَّا آَسَفُونَا**﴾ أي: أغضبونا، فيه إثبات صفة الغضب لله جل وعلا. ويثبت النص لا حرج منه، إثبات صفة الأسف.

﴿**انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ**﴾ فيه إثبات صفة الانتقام لله جل وعلا.

وقد قال بعض أهل السنة: المنتقم اسم من أسماء الله فهو اسمه وصفته، وأنكر شيخ الإسلام ابن تيمية مثل هذا، وأنكر أن يكون المنتقم اسما لله لأن لم يرد دليل في ذلك فهو صفة لله، لأنه لم يرد إلى

على وجه الإثبات، أو مضاف ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ فقد جاء مضافًا.

فالله ينتقم ممن يستحق الانتقام، كما أن الله يمكر بما يستحق المكر، ويستهزئ بما يستحق الاستهزاء، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ وسيأتي الحديث عن ذلك.

﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا * فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾.

وقوله: ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ فيه إثبات صفة الكره لله جل وعلا، وفيه أن الله جل وعلا ثبط هؤلاء فهذا اللفظ يطلق على الله جل وعلا، فهذه صفات كمال لله جل وعلا.

فيطلق لله ما أطلقه على نفسه، ولا نتحاشا شيئًا من ذلك، لأن القلوب لم تألف ذلك أو لم تسمعه من قبل، ما أطلقه الله على نفسه يجب إطلاقه والإيمان به، من وقع في قلبه شيء من ذلك فليعرضه على من يعلم، يرشده إلى الصواب ويدله إلى الهدى.

وقوله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ﴾ مقتًا: نصب على التمييز، أي كبر من المقت.

اسم بمعنى من مبين نكرة
ينصب تمييزا بما قد فسره

﴿أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ فهذا عظيم عند الله، وكبير، وممقوت، أن يقول العبد ما لا يفعل، فيه إثبات صفة المقت لله جل وعلا، فهذه بقية الصفات الفعلية الاختيارية، ويأتي إن شاء الله زيادة تقرير للصفات الفعلية الاختيارية وللصفات الذاتية.

صفتا الإتيان والمجيء

وَقَولُهُ:﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلآئِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ﴾[البقرة:٢١٠]﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلآئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾[الأنعام:١٥٨].﴿كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر:٢١:٢٢].

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاء بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنزِيلاً﴾ [الفرقان:٢٥].

الشرح

ما زال ابن تيمية رحمه الله تعالى في العقيدة الواسطية في سرد الآيات الدالة على إثبات الأسماء والصفات لله تعالى، فإن أهل السنة يؤمنون بكل ما جاء في الكتاب والسنة فيثبتون لله الأسماء والصفات إثباتا بلا تمثيل وتنزيهاً بلا تعطيل؛ لأن الله جل وعلا ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله وهو السميع البصير، فيخالفون أهل البدع من المعطلة والمؤولة والمفوضة.

ما الفرق بين التعطيل والتأويل ؟ التعطيل :نفي الصفة ، والتأويل : إطلاق اللفظ ،واستبدال المعنى بغيره . المعتزلة يقولون أن الله – جل وعلا – سميع بلا سمع، عليم بلا علم، والأشاعرة يطلقون الألفاظ ،ويستعيضون عن إثبات المعاني بمعان أخرى فهذه تسمى الألفاظ المجردة.

هل كل اسم نفهم منه صفة؟

مثال ذلك: وهو السميع البصير؛ نشتق من الاسم صفتين وهما السمع والبصر، طيب أسماء الله مشتقة أم لا؟

يقول بن القيم – رحمه الله تعالى – في النونية:

أسماؤه أوصاف مدح كلها مشتقة قد حملت لمعاني

يشـترط لكي نثبت لله اسماً شـروط: أن يدل على معنى،يجب أن يدل على معنى،مثلا الدهر، النبي ﷺ يقول «**إن الله هو الدهر**» هل نقول عن الدهر أنه اسم من أسماء الله أو لا؟ اتفق أهل السنة على أن الدهر ليس اسماً من أسماء الله

لماذا ؟ مع أنه يطلق على الله؛ لأنه اسم لا يدل على معنى ،فمعناه :يصرف الليل والنهار

وأيضاً لو كان الدهر اسماً من أسماء الله لكان قول المشركين ﴿**وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ**﴾صحيحاً، لأن الدهر هو الله – لو قيل هذا – فالدهر ليس اسماً من أسماء الله، واتفق أهل السـنة على أن الدهر ليس اسماً من أسماء الله، وخالفهم بن حزم – رحمه الله .

الشرط الأول: أن تكون دالة على معان، وهذا معنى قول بن القيم: **أسماؤه أوصاف مدح كلها**

الشرط الثاني: أن تدل على مدحٍ كلها، ولذلك اختلف أهل العلم في المسعر ، فقال البعض: إن المسعر ليس اسما من أسماء الله.

الشرط الثالث: أن تكون مشتقة، وأشار إلى هذا بقوله: مشتقة قد حولت لمعاني.

في هذا البيت رد أيضاً على المعتزلة ورد على الجهمية ورد على المفوضة وهذا في قول بن القيم قد حولت لمعاني .

ما الفرق بين الاسم والصفة؟

الفرق الأول: أن الصفات تشتق من الأسماء ،فكل اسم تؤخذ منه صفة.

الفرق الثاني :أن الأسماء دالة على الذات.

والصفات نوعان:

١- صفات فعلية اختيارية،

٢- وصفات ذاتية.

الفرق الثالث: أنَّ التعبيد في الأسماء للمخلوقين يكون للأسماء دون الصفات ما لم تضف إلى الذات فلا يصح أن تقول : عبد الوجه، هذا حرام؛ لأن الوجه صفة من صفات الله وليس اسماً ، في غير ذلك يكون .

نتحدث الآن عن الأدلة التي ذكرها شيخ الإسلام بن تيمية – رحمه الله تعالى – في إثبات الصفات الفعلية الاختيارية.

قوله – جل وعلا – ﴿**هَلْ يَنْظُرُونَ**﴾ فيه إثبات صفة المجيء لله تعالى، يخاطب الله المؤمنين ليعتبروا بالأمم السابقة؛ لأن الأصل في المؤمن أن يستفيد ويتعظ بما حدث للأمم السابقة، فما جاء في القرآن من خطاب اليهود، ومن خطاب النصارى، ومن خطاب المشركين — هو في الحقيقة خطاب لنا ، لنبتعد عن خصالهم وننأى بأنفسنا عنهم، فقوله – جل وعلا – ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ**﴾ ،هذا يعني أن المسلمين ليسوا على شيء حتى يقيموا كتاب الله ويتبعوا سنة رسول الله ﷺ.

فقوله – جل وعلا – ﴿**هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ**﴾ فيه إثبات المجيء لله – جل وعلا – فإن الله – جل وعلا – يأتي يوم القيامة لفصل القضاء، وهذا من الصفات الفعلية الاختيارية، وأهل السنة يؤمنون بذلك.

وخالف في ذلك أهل البدع؛ من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة وغيرهم؛ ويقولون عن المجيء بأنه مجاز وهذا غلط من وجوه:

الوجه الأول: أن الأصل في الكلام الحقيقة دون المجاز؛ فقد حكى ابن عبد البر- رحمه الله – في المجلد السابع من التمهيد الاتفاق، ولو لم تكن الحقيقة هي الأصل في الكلام لكن الناس في اضطراب، يتحدثون ويقولون نعني المجاز؛ فلا يكون للحقيقة معنى.

الأمر الثاني: أن المجاز لم يكن له أصـــل في كلام الله ولا كلام رســـوله، ولم يكن معروفاً في القرون المفضـــلة، وقد حدث بعد ذلك و يعبرون عنه بمعنيين؛ الأول ما أمكن نفيه، الثاني هو ما ليس له حقيقة، وله أكثر من معنى أيضاً عند من يقولون بالمجاز.

الأمر الثالث: أن الله – جل وعلا – أخبر عن مجيئه في أكثر من آية وهذا يتعذر معه المجاز فحين تخبر عن شـــخص تقول قدم زيد ثم بعد قليل تقول جاء زيد ثم بعد قليل تقول أقبل زيد، هل يتأتى المجاز في ذلك؟ أنت تخبر عن مجيئه في ثلاثة مواضـــع بألفاظ مترادفة؛ تقول جاء زيدٌ، أقبل زيد، أتى زيد، يتعذر المجاز في هذه الحالة؛ لأن هذا تأكيد لهذا وهذا تأكيد لهذا، لكن لو جاء في موضـــع واحد لربما احتمل – مع أنه باطل في باب الأسماء والصفات – فحينما يأتي في أكثر من آية ولا سيما حين يقرن الله – جل وعلا – مجيء الملائكة ومجيء الآيات بمجيئه، فهذا يبطل كل قول وكل دعوى في المجاز ،فإن الله جل وعلا يقول: ﴿**هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ**﴾ وقول الله – جل وعلا – ﴿**وجاء ربك والملك صفاً صفاً**﴾ فأخبر الله – جل وعلا – عن مجيئه وعن مجيء الملائكة، ولم يختلف الصـــحابة والتابعون والأئمة المتبوعون في أن المعنى في قول الله – جل وعلا – ﴿**هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ**﴾ أي لفصل القضاء يوم القيامة.

قوله ﴿**وَالْمَلَائِكَةِ**﴾فيه إثبات الملائكة؛ فالمؤمنون يثبتون ذلك ،ويؤمنون بأن لله ملائكة؛ يثبتون ذلك إجمالاً بالإجمال وتفصيلاً بالتفصيل،﴿**كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ**﴾ ،فمن الإجمال حديث الرسولﷺ «هذاالبيت المعمور يصـــلي فيه كل يوم ســـبعون ألف ملك ثم لا يعودون » يختص الإيمان بجبريل وميكائيل وإســرافيل ،وغيره من المســمين في كتاب الله، وعلى لســان رســول الله ﷺ، فقد قال النبي ﷺ ﴿**أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله، ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة خمسمائة عام**﴾ رواه أبو داود وغيره.

قوله ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي بالفصل بينهم، وجاءهم ما كانوا يوعدون، فريق في الجنة وفريق في السعير. وقوله – جل وعلا – ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أي لقبض أرواحهم ، ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ أي لفصل القضاء يوم القيامة، ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ من عذاب وبطش وبراكين وزلازل وفيضانات وغير ذلك ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ فإن التوبة لا تقبل في موطنين؛ فالأول حين تطلع الشمس من مغربها فلا ينفع نفسا لم تكن آمنت من قبل؛ فلا ينفع نفساً أسلمت وآمنت لم تكن آمنت من قبل، الأمر الثاني :حين تبلغ الروح الحلقوم، فلا تقبل توبة أحد؛ فلا يقبل إسلام الكافر ولا توبة العاصي،هناك قول ثالث في المسألة: أنه إذا خرج الدجال فلا توبة لأحد، وهذا جاء في صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، ولكن الأدلة في الأمر الأول أكثر وأشهر وأصح؛ فإن التوبة بخروج الدجال مقبولة، فلا تمتنع التوبة إلا في الأمرين الماضيين.

وتمضي هذه الآية في إثبات الصفات لله – جل وعلا – ويؤخذ من ذلك إثبات الصفات الفعلية، ويؤخذ منها إثبات الصفات الاختيارية، فالصفات قائمة بالله – جل وعلا.

وقوله – جل وعلا – ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا * وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ الأصل في اللفظ حمله على حقيقته، وأن المجيء هو لله يوم القيامة لفصل القضاء ،وقال الأشاعرة وجاء أمر ربك.

وبعض النحاة المتأثرين بمذهب الأشاعرة حين يُمَثِّلون للمضاف الذي حل المضاف إليه مقامه يمثلون بهذه الآية؛ يقولون: إن الأصل" وجاء أمر ربك" فحذف المضاف وأقيم المضاف مقامه ، فصارت الآية "وجاء ربك " وهي في الأصل : "وجاء أمر ربك". وذلك على قول ابن مالك :

وما يلي المضاف يأتي خلفا   عنه في الإعراب إذا ما حذفا

يجاب عن هذا من وجوه:

الوجه الأول: أن هذا نفي لمدلول الكلمة، وهب أن المعنى كما يزعمون،؛ فما يصـــنعون بالآية الماضـــية ﴿**أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ**﴾ الله – جل وعلا – ذكر هذا، وذكر ذاك في موضـع واحد؛ فعلم أن المعنى ﴿**وجاء ربك**﴾ أي جاء بنفسـه لفصـل القضـاء ،وأنه ليس مجيء أمره .

الوجه الثاني: أن أمر الله – جل وعلا – يكون بكن، كما في قول الله – جل وعلا – ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾ فلا يحتاج إلى إدراج "وجاء" .

الوجه الثالث: أن التقدير يحتاج إلى دليل، ولا دليل في ذلك ولا قرينة.

يؤخذ من الآية إثبات الصفات لله – جل وعلا – ؛ إثبات الصفات الفعلية والاختيارية، وإثبات مجيء الرب؛ فنثبت لله – جل وعلا – ذلك إثباتاً بلا تمثيل وتنزيهاً بلا تعطيل.

وقوله : ﴿**وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا**﴾ يلحق هذا بما قيل في الآية السابقة من إثبات المجيء لفصـــل القضـــاء ، ويفهم منها كذلك إثبات صـــفة العلو لله – جل وعلا –،﴿**وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا**﴾ أي أن الله – جل وعلا – فوقهم، وأهل الســـنة يؤمنون بكل ذلك؛ فلا يكيفون ولا يمثلون ولا يلحدون ولا يعدلون عن الإيمان بالألفاظ والمعاني بدون دليل، لأن الأصل حمل الألفاظ على حقائقها ، ولا يجوز إخراج اللفظ عن حقيقته؛ لأن هذا يفتح باب شر، ويفتح باب اعتداء على الأدلة ويفتح باب السطو على النصوص؛ فلا يزدجر مبتدع لا يعجبه شيء من القرآن إلا وادعى فيه المجاز، أو تقدير حذف المضـــاف، أو أن اللفظ ليس عليه ظاهره، والله – جل وعلا – خاطب العرب بما يفهمون وبما يعون ؛ولذلك حين كان مشركو قريش وغيرهم من العرب والعجم يسلمون لم يكن الواحد منهم يستشـكل هذه الآيات الدالة على أسماء الله وصـفاته؛ لم يكن الواحد منهم يحرف الأسماء أو لا يؤمن بالصـــفات؛ فكانوا يفهمون ذلك ويؤمنون به ، وكان النبي ﷺ يحثهم على حفظ الآيات –كآية الكرسي– الدالة على أسماء الله وصفاته وقال ﴿**من قرأ آية الكرسي دبر كل صلاة لم يمنعه من دخول**

الجنة إلا أن يموت﴾ رواه النسائي وغيره في عمل اليوم والليلة وإسناده صحيح.

ولم يكن الواحد منهم يستشكل شيئاً من المذكور في هذه الآية من أسماء الله وصفاته، والسبب في ذلك أنهم كانوا من قبل على الشرك، وكانوا على الوثنية، وكانوا على الكفر،لم تكن لهم أفكار يؤصلون عليها نفي الأسماء عن الله والصفات، فحين يسلم الواحد منهم ينقاد للكتاب والسنة، وكان الشرك يعني إما عدم الإيمان بالرسالة أو الإيمان بغير بالله، وكانوا في الجملة يؤمنون بالأسماء والصفات ، حتى آزر والد إبراهيم حين قال له إبراهيم ﴿**يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا**﴾،لم يقل له آزر: وربك لا يسمع ولا يبصر، بل كانوا يؤمنون بذلك ، وكانوا يتجاوبون مع هذه الأدلة؛ يؤمنون بأن الله سميع بصير، ما كانوا يستشكلون شيئاً من ذلك ، وعلى هذا درج الصحابة كلهم،كما جاء من بعدهم التابعون لهم بإحسان، ووجد في أواخرهم من كان يستشكل بعض الأمور ، كما في حديث ابن عباس حين نقل حديثا في الصفات، فوجد عند ذلك شيئا فقال " ما أردت هؤلاء ، يجدون رقة عند محكمه ، ويهلكون عند متشابهه "ولا يعني ذلك أن الأسماء والصفات من المتشابه ، ولكن هذا التشابه نسبي بمعنى أنه يشتبه عليّ، وليس بأصله مشتبها ؛ هو في أصله محكم بيّن بدليل أنه لم يكن أحد يستشكل شيئاً من ذلك في واقع الصحابة رضي الله عنهم.

ثم خرج أهل البدع كالجعد بن درهم؛ الجعد بن درهم تلقى بدعته عن لبيد بن الأعصم الذي سحر النبي ﷺ ثم بدأ يتحدث في الأسماء والصفات ، ويشيع ذلك، ويلبس على الآخرين، فتلقى بدعته عنه الجهم بن صفوان ونسبت بدعة الجهمية إليه، وإلا فالأصل أن الذي أسس هذه البدعة هو الجعد بن درهم، وعنه أخذ هذه البدعة الجهم بن صفوان لكنها نسبت للجهم لأسباب:

السبب الأول: أنه أثار ذلك في أكثر من بلد،

الأمر الثاني: أنه كان يؤصل لهذا بأكثر من الجعد.

الأمر الثالث: أنها اشتهرت عنه ، ولم تشتهر عن الجعد.

الأمر الرابع: أنه توسع في ذلك أكثر من توسع الجعد .

ولذلك حين يتوب بعض هؤلاء لا تكون توبته موفقة ،مثلا أبو الحسن الأشعري على جلالة قدره

وعلو منزلته كان على مذهب المعتزلة ، ثم أسس المذهب الأشعري ، والأشاعرة قسمان غلاة وغير غلاة، ثم إنه حين تبين له الحق ،وأعلن توبته على الملأ من المنبر، لم تكن توبته موفقة من كل وجه، وفي نفس الوقت الذين ينتسبون للمذهب الأشعري هم لا يأخذون بآراء أبي الحسن الأشعري المتأخرة، هم باقون على آراء أبي الحسن الأشعري المتقدمة، ولذلك فيهم من ينفي العلو، مع أن أبا الحسن الأشعري ذاته كان يؤمن بالعلو، لا يؤمن بالأسماء والصفات دون تحديد لذلك ،عند الخوض في مسألة الجبر والقدر ومتعلقاته، لكنه في نهاية الأمر أثبت العلو، وبين ذلك بالأدلة ، وقال إن القرآن هو كلام الله ، وأثبت لله جملة الأسماء والصفات وأثبت لله الأفعال الاختيارية ،لكن هؤلاء بقوا على ما كان عليه من قبل، ولم يأخذوا بما صار إليه من بعد ، فهؤلاء ينتسبون إلى أبي الحسن ظلماً وزوراً ، لا ينتسبون حقيقة ، وفي نفس الوقت لا يحل لأحد أن يقول أنا أشعري ولو كان على مذهب أبي الحسن المتأخر؛ لأن هذا يحدث لبساً في الأمة ، وتحريفاً للكلم عن مواضعه .

صفة الوجه

وَقَوْلُه:﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُوالْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾[الرحمن:٢٧].

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ [القصص:٨٨].

الشرح

ما زال – رحمه الله تعالى – يتحدث عن الصفات الذاتية حين تحدث عن الصفات الفعلية الاختيارية ولا يختلف العلماء في إثبات هذا وذاك فإن الله – جل وعلا – موصوف بصفات الكمال، منعوت بنعوت الجلال والموصوف بصفات الكمال المنعوت بنعوت الجلال هو المستحق للعبودية وحده لا شريك له، أفمن يخلق كمن لا يخلق؟ أفمن يرزق كمن لا يرزق؟ أفمن يحيي ويميت كم لا يحيي ولا يميت؟ أفمن يدبر الأمر في السماء والأرض كمن لا يدير شيئاً، وكثيراً ما يستدل الله – جل وعلا– على عباده بتوحيد الربوبية على توحيد الإلهية وهذا كثير في كلام الله، كقوله تعالى﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى**﴾ الله – جل وعلا – يستدل على العباد بخلقهم ورزقهم على إفراد الله بالعبادة وأنه المألوه المعبود حقاً دونما سواه ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ**﴾ والإله هو المألوه محبة وتعظيماً وخوفاً ورجاءاً، والصواب في الإله أنه وصف الله – جل وعلا – ولا يختلف العلماء في إطلاق ذلك على الرب، وإن كانوا يختلفون في التسمية بهذا، ولكن الأسماء المتعدية لا مانع من التعبيد بها، ولكن هناك فرق بين التعبيد وبين اتخاذه اسماً، فلا حرج من التسمي بعبد الإله لأنه الإله حين يعرف بالألف واللام ينصرف الذهن إلى الرب – جل وعلا – هذا مجرد استطراد، فالحديث الآن عن الصفات الذاتية لله – جل وعلا – لا يختلف العلماء أن الصفات لله تثبت بالكتاب أو السنة الصحيحة، ولا يدخل في ذلك القياس؛ فإن القياس في المسائل الفقهية المعللة ، هناك مسائل فقهية غير معللة لا يدخلها القياس أيضاً، أما الأسماء والصفات فلا قياس فيها، وتقدم مراراً أنه يجب التقيد باللفظ في باب الأسماء والصفات دون المرادف؛ لأن المرادف قد يكون أقل معنى فقوله –جل وعلا–: ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ**﴾ أي كل مخلوق على هذه الحياة كتب عليه الفناء ولا يبقى إلا من استثناه الرب

– جل وعلا – كالجنة والنار والملائكة وقد استثنى الله – جل وعلا – نفسه فقال﴿**وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**﴾ ففيه إثبات صفة الوجه لله – جل وعلا – إثباتا بلا تمثيل، وتنزيهاً بلا تعطيل؛ فإن الله لا يقاس بخلقه؛ فلا سمي له ﴿**هَلْ تعلمُ له سمياً**﴾، ولا كفء له ﴿ **وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ**﴾، ولا ند له ﴿**فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾.

فقوله ﴿**وَجْهُ رَبِّكَ**﴾ فيها مغايرة بين الوجه وبين الذات، ففيها الرد على الجهمية والمعتزلة، والأشاعرة والكرامية الماتريدية وعامة طوائف أهل البدع الذين يمتنعون عن إثبات صفة الوجه ويقولون أن الوجه المراد به الذات، الله في هذه الآية أ ضاف الوجه للذات، وهذا نصٌ صريح بالمغايرة، يؤكد هذا قوله ﷺ ﴿**أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم**﴾ وهذا رواه أبو داود في سننه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص وإسناده جيد في دعاء الدخول إلى المسجد.

ولا يختلف أهل السنة في إثبات صفة الوجه لله – جل وعلا – إثباتاً بلا تمثيل وتنزيهاً بلا تعطيل، الجهمية ينفون ذلك مطلقاً، والأشاعرة يحرفون هذا، وينادون بالمجاز، والمجاز ما يمكن نفيه، ولذلك هم ينفون ذلك عن الله؛ تارة يفسرون الوجه بالذات، وتارة يطلقون لفظ المجاز، وتارة يقولون بأن الوجه يقصد به الثواب.

ويجاب عن هذا من وجوه:

الوجه الأول: أن ما يضاف إلى لله **نوعان**،

النوع الأول: أعيان قائمة بنفسها فهذه إضافة المخلوق إلى خالقه كقول الله – جل وعلا – ﴿**نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا**﴾وكما تقولون هذا بيت الله وكعبة الله، إضافة المخلوق إلى الخالق لأن هذه الأعيان قائمة بنفسها.

النوع الثاني: أعيان قائمة بغيرها، النوع الثاني صفات قائمة بغيرها؛ الوجه قائم بنفسه أم قائم بالله؟ إذاً صفات قائمة بالله، هذه إضافة الصفة إلى الموصوف، **وصفات الله من الله ليست بمخلوقة بإجماع**

المسلمين ولقد قال الإمام مالك – رحمه الله تعالى – ومن زعم أن شيئاً من الله مخلوق فإنه كافر؛ يعني من صفاته؛ أو أسمائه ، لكن الله موصوف بصفة الخلق يسمى باسم الخالق.

الوجه الثاني: أن إضافة الوجه إلى الذات تبطل قول من قال بأن المقصود بالوجه هو الذات فإن الله – جل وعلا – قال:﴿**وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ**﴾ لا يصح أن تقول ويبقى ذات ربك؛ هذا باطل لغة وشرعة وعقلاً.

الوجه الثالث: أن الذين يقولون أن الوجه هو السواد، لا يصح أن يقال ويبقى سواد ربك، لأن هذا ليس بصفة مدح، ولا يصح أن تقول ويبقى سواد ربك ذو الجلال والإكرام؛ لأن (ذو) للوجه وليس للرب؛ لو كان للرب لقال الله ذي الجلال والإكرام؛ الله قال (ويبقى وجه ربك ذو) إذاً الصفة لمن؟ للوجه وليس للرب (الذات)؛ فالبتالي لا يصح أن تقول ويبقى سواد وجه ذو الجلال والإكرام؛ الصواب ذو الجلال والإكرام؛ فعلم أن المقصود بذلك هو وجه الرب – جل وعلا – وأنها من الصفات الذاتية التي أجمع عليها المسلمون.

وقوله – جل وعلا – ﴿**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ**﴾ أي مما كتب عليه الهلاك؛ أخبر الله في كتابه أنه لن يكتب الهلاك لا على الجنة ولا على النار، وغير ذلك مما هو مستثنى كالعرش والقلم ونحو ذلك، إذاً هذا من ألفاظ العموم يراد به الخصوص كقول الله – جل وعلا – ﴿**تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا**﴾ أي مما يقبل التدمير، ﴿**وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ**﴾ هل أوتيت كل شيء؟ هذا باطل شرعاً وعقلاً؛ هي أوتيت كل شيء مما يحتاجه الملوك، الشاهد في هذه الآية ﴿**إِلَّا وَجْهَهُ**﴾ الله – جل وعلا – لم يقل إلا وجهاً؛ قال إلا وجهه، الهاء تعود على من؟ على الله – جل وعلا – فأضيف الوجه إلى الذات، ومن لوازم ذلك أن يبقى ما أريد به وجه الله، ولكن ليس هو معنى الآية؛ هذا من باب اللوازم.

والمعنى الصحيح للآية أن نثبت الوجه لله – جل وعلا – ولا يبقى إلا ما أريد به وجهه من الإخلاص لله – جل وعلا – والحذر من الرياء ومراءاة الناس وتطلب مدحهم وثناءهم؛ هذا لا يبقى؛

وقد قال ﷺ:«**حق على الله ألا يرتفع شيء من أمر الدنيا إلا وضعه الله**» ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**﴾ فهذا الذي يبقى؛ فعليه يحاسبون ويجازون بأعمالهم؛ إن خيراً فخيرٌ وإن شراً فشرٌ.

وقد ذكر الشيخ – رحمه الله تعالى – آيتين في إثبات صفة الوجه، وهو الآن في سياق سرد الآيات، ويأتي إن شاء الله تعالى سياق سرد الأحاديث والتعليق على أصول أهل السنة والجماعة في إثبات الأسماء والصفات؛ وأهل السنة لا يختلفون في إثبات ما أثبته الله لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ .

وحكيت بالأمس كلام ابن عبد البر في المجلد السابع من التمهيد أن الأصل في ذلك الحقائق وحكى اتفاق العلماء على ذلك؛ الأصل في ذلك الحقيقة دون المجاز؛ فما أطلقه الله على نفسه أو أطلقه عليه رسوله ﷺ فنؤمن بذلك حقيقة ونؤمن بأن الله ليس كمثله شيء.

نظم بن القيم في نونيته اعتقاد أهل السنة والجماعة في هذا الباب فقال:

لسنا نشبه وصفه بصفاتنا
إن المشبه عابد الأوثان
كلا ولا نخليه من أوصافه
إن المعطل عابد البهتان
من شبه الرحمن العظيم بخلقه
فهو الشبيه بالمشرك النصراني
أو عطل الرحمن عن أوصافه
فهو الكفور وليس ذا الإيمان

صفة اليد

وَقَوْلُهُ:﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]. **﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾** [المائدة: ٦٤].

الشرح

شـــرع رحمه الله تعالى يتحدث ويورد الآيات الدالة على إثبات صـــفة اليدين لله – جل وعلا – والأدلة في ذلك متواترة؛ فقوله – جل وعلا – مخاطباً إبليس**﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْـــجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾** وحين حاج آدم موسى قال موسى: أنت آدم الذي خلقك الله بيده.

الأشـــاعرة يحرفون ذلك؛ يقولون أن معنى اليد القدرة، يجاب على ذلك يقال: إذن لا يتميز آدم على غيره؛ الناس كلهم حتى إبليس مخلوق بقدرة الله، إذاً ما فيه تميز بين إبليس الملعون المبعد عن رحمة الله وبين أنبياء الله ورسله، تباً لقولٍ يؤول بالناس إلى هذا الاعتقاد الفاسد.

الأشـاعرة يقولون أيضاً **﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾** أي بنعمتي، وهذا ظلال؛ لأن نعم الله متعددة، ولماذا يخلق آدم بنعمتين؟ والله يقول **﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُـــوهَا﴾** وقد امتن الله على آدم بذلك، والقرآن صريح في إثبات صفة اليدين لله – جل وعلا –.

وقوله – جل وعلا – **﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ﴾**اليهود؛ يطلق الكل ويراد به البعض، وهذا كثير في كلام الله – جل وعلا – **﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾** هل كل اليهود يقولون عزير ابن الله؟

الجواب: لا، كقول الله – جل وعلا – **﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾** هل كل الناس يقولون ذلك؟ هذه حفنة من كفار قريش،**﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾** ، **فكان فارس والـــروم لم يـــقـــولـــوا، الـــذي قـــال ذلـــك بـــعـــض كـــفـــار قـــريـــش، ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَـــوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْـــبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾**، **﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَـــارَى الْمَسِـــيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾** هل النصـــارى كلهم يقولون أن المســـيح ابن الله؟ لا؛ هذا إطلاق الكل يراد به البعض، **ومثل هذا كثير في كلام الله وكلام رسوله ﷺ**، وفهم هذا يعين على فهم القرآن ويعين على فهم السنة ويعين على فهم المراد، فقوله – جل وعلا – **﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾** يريدون بذلك بأن الله بخيل، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً،

فرد الله عليهم بقوله ﴿**غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ**﴾ قطعاً لا يراد بذلك النعمة؛ فلا يصح أن تقول للنعمة مبسوطتان، إذاً أين النعمة الأخرى؟ فبالتالي قطعاً يراد بذلك إثبات صفة اليدين لله – جل وعلا – يوضح ذلك قوله ﷺ ﴿**وكلتا يدي ربي يمين**﴾، وقال ﷺ:﴿**إن الله يضع السماوات على ذه والأراضين على ذه والشجر على ذه**... إلى آخر الحديث **ثم يأخذهن بيده فيقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون**﴾ الحديث متفقٌ على صحته.

وقال الله – جل وعلا – ﴿**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ**﴾ إذا لا يصلح أن تقول مطويات بقدرته؛ لأن كل شيء تحت قدرته؛ لا يخرج شيء عن قدرة الله – جل وعلا – والأدلة على هذا كثيرة في إثبات صفة اليدين لله – جل وعلا – فنثبت ذلك لله إثباتاً بلا تمثيل وتنزيهاً بلا تعطيل، ونؤمن بكل ما جاء عن الله على مراد الله وبكل ما جاء عن رسول اله ﷺ على مراد رسول الله ﷺ لا نحرف ولا نكيف ولا نمثل؛ بل نؤمن بكل ذلك، وهذه حقيقة الإيمان ﴿**آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا**﴾ .

الأشاعرة قالوا سمعنا وعصينا، لأنهم يحرفون الكلم عن مواضعه، ويخرجون هذه الأسماء والصفات عن حقائقها تحت مسمى الهرب والبعد عن التشبيه؛ ألا في الفتنة سقطوا، ألا في الفتنة والتشبيه سقطوا، هم يعتقدون أنهم حين يثبتون ذلك يشبهون المخلوق بالخالق، لما وقع ذلك في قلوبهم أرادوا أن يتخلصوا من هذا الاعتقاد الفاسد نفوا ذلك عن الله فوقعوا في التعطيل؛ عطلوا، ثم لما عطلوا وقعوا في التشبيه؛ شبهوا الله – جل وعلا – بالجمادات والمعدومات، ولهذا قال بعض السلف؛ كنعيم بن حماد الخزاعي وجماعة: من عطل الله عن أسمائه وصفاته فهو يعبد عدماً ومن شبه الله بخلقه فهو يعبد صنماً.

وتقدم بالأمس وأكرر أن إبراهيم – عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام – حين دعا أباه إلى التوحيد قال: يا أبت لما تعبد ما لا يسمع ولا يبصر، لم يقل أبوه المشرك وربك لا يسمع ولا يبصر؛ لم يقل ذلك، بل كان مقراً بذلك، مؤمناً بذلك، حتى بعض المشركين يؤمنون بأن الله سميع بصير، ولذلك لم يقل آزر وربك لا يسمع ولا يبصر، ومثل هذا كثير . إذن الشيخ – رحمه الله تعالى – تحدث عن الصفات الفعلية الاختيارية وتقدم الحديث عن ذلك، شرع الآن يتحدث عن الصفات الذاتية بإيراد الأدلة من كتاب الله على إثبات صفة الوجه وعلى إثبات صفة اليدين.

صفة العينين

وَقولُهُ:﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[الطور: ٤٨].

﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاء لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر: ١٣: ١٤].

﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾[طه: ٣٩].

الشرح

قال شيخ الإسلام بن تيمية – رحمه الله تعالى – في الحديث عن صفتي العينين لله – جل وعلا – والسمع؛ فلا يختلف العلماء – رحمهم الله تعالى – في إثبات ذلك فقد دلت الأدلة من الكتاب والسنة على إثبات ذلك، وأن هذا من الصفات الذاتية وتقدم الحديث عن الصفات الفعلية الاختيارية وأن الله – جل وعلا – يفعل متى شاء إذا شاء، تقدم الحديث عن صفة الرحمة والغضب وأن الله – جل وعلا – يرحم الرحماء، يرحم الذين آمنوا ويغضب على الذين كفروا.

أورد المؤلف – رحمه الله تعالى – ثلاث آيات في إثبات صفة العينين لله جل وعلا؛ أورد الآية الأولى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ .

والآية الثانية: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾.

والآية الثالثة: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾الأولى والثانية بلفظ الجمع، الثالثة بلفظ الإفراد، وقد وضحت السنة ذلك بأن لله عينين، وأجمع على ذلك أهل السنة؛ لم يخالف في ذلك أحد منهم.

قال ﷺ والحديث متواتر عنه في الصحيحين وغيرهما: ثم ذكر الدجال وأنه أعور قال:﴿**وإن ربكم ليس بأعور**﴾ فعلم أن العين الواحدة عور لأن النبي ﷺ قال عن الدجال له عين واحدة وأنه أعور إذا هو يقصد الواحدة دون الأخرى وسماه النبي ﷺ أعور ثم قال وأن ربكم ليس بأعور، وهذا خبر متواتر عن النبي ﷺ وأجمع عليه أهل السنة والجماعة وجاء في الحديث الآخر الوارد عن النبي ﷺ ﴿**إذا قام**

أحدكم يصـــلي فإنه يكون بين عيني الله ولكن هذا الخبر تفرد به إبراهيم الخوزي وهو متفق على ضعفه، وليس في الباب دليل احتجوا به سوى الحديث السابق الذي اتفق على معناه أهل السنة.

قوله جل وعلا: ﴿**وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ**﴾للصبر ثلاث مراتب:

النوع الأول: صبر على طاعة الله.

النوع الثاني: صبر عن فعل المعاصي.

النوع الثالث: صبر على الأقدار المؤلمة؛ من الأمراض ونحوها.

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُو**﴾وقال تعالى:﴿**وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ**﴾،﴿**وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا**﴾،﴿**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ .

قوله:﴿**لِحُكْمِ رَبِّكَ**﴾ فيه إثبات صــفة الحكم لله - جل وعلا - قال تعالى: ﴿**إن الحكم إلا لله**﴾ نقول معنى الحكم هنا بمعنى القدر أي اصبر لقضاء ربك.

وحكم الله نوعان:

النوع الأول: حكم قدري.

النوع الثاني: حكم شــرعي ديني، قوله:﴿**فإنك بأعيننا**﴾يثبت من ذلك صــفة العينين لله - جل وعلا - ولازم هذا يكون بمرئى من الله وحفظ وكلاءة ونصر.

وقد قال بعض المفســـرين: ﴿**فإنك بأعيننا**﴾ أي بمرئى منا، فأثبت الرؤية ولكن لو أتى بإثبات الصفة لكان أولى ثم يأتي بعد ذلك الرؤية ولوازمها، الأصل في باب الأسماء والصفات إثبات الصفة ثم التحول إلى إثبات لوازمها والحديث عن آثارها.

وقوله عز وجل ﴿**وحملناه**﴾ يعني نوحاً،﴿**على ذات ألواح**﴾ أي خشـب،﴿**ودسر**﴾أي مسـامير، ﴿**تجري بأعيننا**﴾ تجري السفينة،﴿**بأعيننا**﴾ أي بمرئى منا، وهذا يدل على إثبات صفة الرؤية لله - جل

وعلا – والآية صريحة في إثبات العينين لله – جل وعلا – فالله – جل وعلا – ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، قوله:﴿جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ﴾ أي نصرة ومجازاة لهؤلاء المؤمنين الذين كفر بهم قومهم ولم يؤمنوا بهم ولم يتبعوهم ونصبوا لهم العداوة والبغضاء، يأخذ من ذلك إثبات معية الله – جل وعلا – لعباده المؤمنين، ويؤخذ من ذلك نصر الله – جل وعلا – للموحدين، ويؤخذ من ذلك أن الجزاء من جنس العمل، فمن قام بنصر دين الله ووحد الله وأفرده، وبلغ دينه لمن لا يعلمه، وقضى بالحق وعدل، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر فإن الله ينصره ويحفظه، وليس معنى النصر كما يتوهمه البعض أنه لا يطال بأذى هذا غير صحيح، فالله – جل وعلا- قال ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا﴾ ومن الأنبياء من قتل وسماه الله نصراً؛ قال تعالى :﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ النصر الحقيقي ليس هو النصر العسكري؛ النصر العسكري أحد معاني النصر، أعظم أنواع النصر هو انتصار المبادئ؛ أن تبقى المبادئ، وأن تثبت القلوب أمام طوفان الفتن والشبهات والمتسلطين؛ فحين امتحن الناس في عصر الإمام أحمد – رحمه الله – ولم يبق من الأئمة من لم يجب إلا القليل، وهؤلاء القليل حين زاد البلاء منهم من أجاب؛ كيحيى بن معين وعلي بن المديني وأبي معمر وأحمد بن منيع وآخرين، ومنهم من قتل كالخزاعي ومنهم من مات كمحمد بن نوح، فلم يبق إلا الإمام أحمد فقال بعض أصحابه "يا أبا عبد الله! ألم ترى كيف انتصر الباطل على الحق؟" قال كلا كلا ما انتصر الباطل على الحق، ما دامت القلوب ثابتة فالحق هو المنتصر.

من رام نيل العز فليصطبر على	**لقاء المنايا واقتحام المضايق**
فإن تكن الأيام رنقن مشربي	**وثلمن حدي بالخطوب الطوارق**
فما غيرتني محنة عن خليقتي	**وما حولتني خدعة عن طرائقي**
ولكنني باق على ما يسرني	**ويغضب أعدائي ويرضي أصادقي**

لم يرد في القرآن ﴿**وذلك الفوز الكبير**﴾ إلا آية واحدة؛ في سورة البروج، ما فيه ذلك الفوز الكبير، فيه وذلك الفوز العظيم، ذلك هو الفوز العظيم، وذلك هو الفوز العظيم، وبكثرة لكن وذلك

هو الفوز الكبير؛ قيلت في أصـــحاب الأخدود الذين أبيدوا عن آخرهم ولم يبق منهم أحد، لأن هؤلاء انتصروا لمبادئهم؛ حتى إن المرأة لما أرادوا إلقاءها في النار وتقاعست أنطق الله صبيها قال يا أماه أثبتي فإنك على الحق؛ فألقت بنفسها، فهذا النصر وهذا الفوز الحقيقي، لأن الدنيا ساعة فلابد أن نجعلها طاعة، وقوله – جل وعلا –﴿**وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي**﴾ (وألقيت عليك) أي على موسى.

﴿**محبة مني**﴾ قال بعض السلف: ليس الشأن أن تُحِب، ولكن الشأن أن تُحَب، لأن أن تحب الله هو فرض عليك؛ لأنه من لا يحب الله ليس بمسلم، لكن الشأن أن يحبك الله هل رضي قولك وعملك أم لا؟ لذلك في الحديث القدسي الذي رواه البخاري من حديث أبي هريرة قال ﷺ فيما يروي عن ربه – جل وعلا – ﴿**ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه**﴾ ﴿**قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ**﴾ لذلك قال ﷺ ﴿**لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله**﴾.

وفيه فضيلة لموسى فهو كليم الرحمن،﴿**وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا**﴾ وأمته أكثر الأمم تابعاً بعد نبينا محمد ﷺ، قوله ﴿**ولتصنع**﴾ أي ولتخلق وتتم تربيتك، ﴿**علي عيني**﴾ فيه إثبات صفة العينين لله – جل وعلا – وبمعنى على مرئى مني؛ فلا يغيب عن الله شيء؛ لا صغير ولا كبير، وقد خُصَّ موسى بالذكر لعظيم قدر موسى فيه إثبات معية الله – جل وعلا –.

والمعية نوعان:

١- معية بالعلم وهذه عامة وسيأتي الحديث عن ذلك.

٢- ومعية خاصة معية حفظ نصر تأييد وتكون للأنبياء والمسلمين وأتباعه إلى يوم الدين.

الأشاعرة ومن قبل المعتزلة ومن قبل الجهمية يحرفون ذلك ولا يؤمنون بإثبات صفة العين لله – جل وعلا – ويصـــرفون اللفظ عن ظاهره؛ فمنهم من يقول بالمجاز، وتقدم الحديث عن **المجاز وأنه ليس في القرآن مجاز**، وأن ما وجد مما يوهم ذلك هي ألفظ عربية كقول الله – جل وعلا – ﴿**وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ**﴾وأن الجناح في اللغة يطلق على الجانب، الأسلوب العربي له أكثر من معنى؛ فحين يكون

اللفظ له أكثر من معنى لا يعلم له مجاز، فإن هذا من الأساليب العربية المشهورة في لغات العرب، وتقدم الحديث أن من قال بالمجاز من أهل السنة في القرآن لا يقول بالمجاز في الأسماء والصفات؛ لأن المجاز هو ما يمكن نفيه، أو ما ليس بحقيقة؛ ألفاظها ومعانيها، ولا يختلف العلماء في إثبات البصر لله – جل وعلا – قال تعالى: ﴿**وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ ﴿**وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا**﴾ إثبات الرؤية ﴿**الَّذِي يَرَاكَ**﴾ وفيه إثبات الرؤية، إثبات البصر، إثبات العينين، وأهل السنة يثبتون ذلك حقيقة؛ ولا ينفون عن الله صفة جاءت في الكتاب لشناعة شنعت وأهل البدع يسمون أهل السنة مجسمة، يسمونهم حشوية؛ يريدون التنفير عنهم، وهذا لا يعني التنازل عن الحقائق لأجل أهل البدع وأهل الضلال وهذا عام في كل قضية؛ سواء في الأسماء والصفات أو في باب السير والسلوك أو في باب الفكر أو في باب التصور أو في غير ذلك، حينما تعظم الحملة على أهل الحق لا يجوز التنازل عن المبادئ لمثل هذه الحملات، وفي مثل هذه الحملات يتميز المؤمنون الصادقون من الآخرين الذين يعبدون الله على حرف.

صفتا السمع والبصر

﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللهَ فَقِيرٌوَنَحْنُ أَغْنِيَاء﴾ [آل عمران: ١٨١]. وَقَوْلُهُ:﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠] ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦] ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ [العلق: ١٤] ، ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الشعراء:٢١٧: ٢١٩] ﴿وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

الشرح

وقوله – جل وعلا – ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾﴿قد﴾حرف تحقيق، ﴿قد سمع الله﴾ فيه إثبات صفة السمع لله – جل وعلا –، ﴿التي تجادلك في زوجها﴾ تجادلك وهي خولة ﴿في زوجها﴾ أوس بن الصامت.

تقول عائشة – رضي الله عنها – الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات؛ لقد جاءت المجادلة إلى رسول الله ﷺ وأنا قريبة من الحجرة ويخفى عليَّ بعض كلامها، وسمع الله شكواها من فوق سبع سماوات، ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ أكرر دائماً أنه لا يكفي مجرد الإيمان بالألفاظ والمعاني حتى نؤمن أيضاً ونطبق ذلك في الآثار، فإذا كنا نثبت لله السمع وأنه يسمع ونؤمن بذلك ولا نحرف، إذاً إذا أردنا أن نعصي الله يجب أن نعلم أنه يسمعنا، إذا أردنا أن نتناجى بالباطل نستحضر سمع الله، إذا أردنا أن نغتاب نستحضر سمع الله، حين تريد أن تغتاب شخصاً وهو قريب منك لا تغتابه، قد تهمس في أذن صاحبك، طيب الله يراك ويسمعك، فلا تجعل الله أهون الناظرين إليك، والذين يؤمنون بذلك حقيقة كلما قوي إيمانهم كلما تمثل هذا في آثارهم وسلوكهم وواقعهم ولا تصلح المجتمعات إلى بذلك، ولذلك كان أئمة السلف يعنون عناية كبيرة بدراسة الأسماء والصفات، وقد تحدثنا عن هذا الموضوع بتوسع في دروس ماضية وواقع أمة السلف في هذا الباب وأن هذا يتمثل في أعمالهم وجوارحهم وسلوكهم وهذا الذي ميز الصحابة عن غيرهم، كانوا يؤمنون بذلك وفي نفس الوقت لم يكن حديثهم عن هذا الباب كحديث المتأخرين، ومع ذلك يطبقون ذلك عملياً ترى هذا عملياً في واقعهم، فلذلك

لا يراهم الله حيث نهاهم، ولا يفقدهم حيث أمرهم فهم يتسابقون إلى الخيرات ويتنافسون على فعل الطاعات.

قوله – جل وعلا – ﴿وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ﴾تأكيد في إثبات السمع؛ الأول للماضي وهذا للمضارع، ﴿**والله يسمع تحاوركما**﴾ أي تخطابكما والمجادلة بينكما، ﴿إن الله سميع بصير﴾ أكد الله ذلك، سميع لكلامكم، مهما تسرون ومهما تعلنون،﴿**أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ**﴾ بلى نسمع وفي نفس الوقت ﴿**وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ**﴾ فقوله ﴿**سميع بصير**﴾كقوله – جل وعلا – ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ فيه إثبات صفة السمع لله، وإثبات صفة البصر لله – جل وعلا–.

وقد ثبت عند أبي داود من حديث أبي هريرة ((أن النبي ﷺ قرأ ﴿**وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا**﴾ ووضع إصبعاً على أذنه وإصبعاً على عينه)) .

قال العلامة بن القيم – رحمه الله تعالى – يراد من ذلك إثبات الحقيقة، وقد اختلف العلماء – رحمهم الله تعالى – في فعل ذلك بعد النبي ﷺ؛ منهم من قال ذلك بالجواز فيهم أبو هريرة وكان يفعله، والأعمش؛ وكان الأعمش إذا حدث إن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يشير بإصبعيه، يريدون إثبات الحقيقة وأن الأصابع حقيقة؛ **لا يريدون التشبيه ولا التمثيل** – حاشاهم من ذلك–.

القول الثاني في المسألة: أن هذا لا يجوز مطلقاً وأن هذا خاص بالنبي ﷺ؛ الإمام أحمد – رحمه الله تعالى – حين رأى رجلاً يقرأ قول الله – جل وعلا – ﴿**وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ**﴾بسط يده وقبضها غضب عليه وقال: قطع الله يدك، قطع الله يدك، قطع الله يدك، ثم نهض الإمام أحمد – رحمه الله تعالى – من المجلس وتركه.

القول الثالث في المسألة – هذه الأقوال كلها من أقوال أهل السنة –: التفصيل؛ ما جاء النص به فلا حرج من فعله **بشرطين:**

١– أن يقصد إثبات الحقيقة.

٢- أن يكون في مجتمع يفهمون ويعوون، وأما إذا كان في مجتمع لا يفهمون ولا يعوون أو في أخلاط أو فيهم عامة أو قد يفتن الإنســـان في دينه، أو في عقيدته أو لا يعلمون هذه الأحاديث فإنه يبتعد عن ذلك، ويتكلم بلسانه دون فعله.

وقوله - جل وعلا - ﴿**لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ**﴾ اليهود يقولون حين أنزل الله - جل وعلا - ﴿**مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا**﴾ يقولون: أن الله يستقرضنا فهو فقير ونحن أغنياء، فلا يفهمون معنى ﴿**من ذا الذي يقرض الله**﴾ وأن المعنى تصـــدق وابذل الخير وأن الله ينميه له ويزيده ﴿**وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَـــيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ**﴾ أي في الدنيا بالبدل وفي الآخرة بالأجر الجزيل والثواب الكبير، فأنزل الله - جل وعلا - ﴿**لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ**﴾.

قول الله - جل وعلا - عن اليهود ﴿**غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُـــوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ**﴾ عطاءه كلام وعذابه كلام؛ ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾ وقال تعالى: ﴿**إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ**﴾ وقال تعالى:﴿**إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ**﴾ .

ولذلك جاء في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم من حديث أبي ذر عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه ((**يقول الله - جل وعلا - يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنســـكم وجنكم قاموا في صـــعيد واحد فســـألوني فأعطيت كل واحد مســـألته ما نقص ذلك من ملكي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر**)) والله - جل وعلا - لا تختلط عليه الأصـــوات، اللغات الآن موجودة في المجتمعات بالآلاف؛ الآن فيه ما لا يقل عن خمســـمائة ألف لغة؛ يســـألون الله في صـــعيد واحد لا تختلط عليه أصـــواتهم؛ يســـمعهم، ويجازيهم، وهم بمرئى من الله؛ هذا دليل على عظمة الله - جل وعلا - ﴿**وَسِـعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ**﴾ الكرسي الذي هو موضع القدمين وسع كرسيه السماوات والأرض ﴿**وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا**﴾ أي لا يثقله ﴿**وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ**﴾ وهو العلي الكبير، ألا له الخلق والأمر؟.

وقوله – جل وعلا – ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ أي أيحسب هؤلاء حين يسرون أننا لا نسمع سرهم وحين يرفعون أصواتهم نسمعهم، لذلك قال بعض اليهود: إن كان الله يسمعنا إذا جهرنا سيسمعنا إذا أسررنا؛ دلهم على ذلك عقلهم؛ إن كان الله يسمعنا إذا جهرنا سيسمعنا إذا أسررنا، لأنه لا فرق بين هذا وذاك، ولذلك قال الله – جل وعلا – **﴿أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى﴾** أي:نسمعهم وفي نفس الوقت **﴿ورسلنا لديهم يكتبون﴾** دليل على عظمة الله، دليل على إثبات صفة السمع لله – جل وعلا – وهذا يبعث على البعد عن المعاصي، نؤمن بآثار ذلك؛ يعني لا نؤمن بمجرد اللفظ ونثبت لله السمع وفي نفس الوقت نعصي الله في نفس الوقت على رؤيا من الله وعلى مسمع من الله، إذاً من هم بمعصية فليستحضر رؤية الله له، من هم بغيبة فليستحضر سمع الله له فيرعوي عن هذا وذاك، وذلك المرأة حين قالت للرجل حين جلس بين فخذيها اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه – متفق على صحته – قام وتركها خوفاً من الله.

إذا خلوت بريبة بظلمة
والنفس داعية إلى الطغيان
فاستحيي من نظر الإله وقل لها
إن الذي خلق الظلام يراني

وقوله – جل وعلا – ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ فيه إثبات المعية؛ معية حفظ ونصر وتأييد وكلاءة،**﴿أسمع وأرى﴾**؛ فيه إثبات صفة الرؤية، إثبات صفة السمع لله – جل وعلا – وأهل السنة لا يختلفون في إثبات ذلك؛ خلافاً لأهل البدع يؤولون ذلك إما بالمجاز وتقدم الجواب عن ذلك، أو يحرفون الكلم عن مواضعه؛ ويَعدلون بلفظ عن لفظ آخر؛ فهم يشبهون أولاً ثم يعطلون ثانياً ثم يشبهون ثالثاً.

وقوله جل وعلا:﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ فيه إثبات صفة الرؤيا لله جل وعلا، ولم يقل أبو جهل: وربه لا يرى، بل كانوا يؤمنون بذلك، ويمتنعون عن الإيمان بمحمد ﷺ ويجعلون لله شركاء، ووسائط، يسألونهم إغاثة اللهفان وإزالة الكربات ومعافاة ذوي البليات، فيه إثبات صفة الرؤيا لله جل وعلا، وفيه أنه يذكر العبد العاصي برؤية الله له، وبأن الله مطلع عليه وراء لعمله وسامع لقوله حتى يؤدي به هذا الأمر إلى ترك الذنب والإقلاع عنه.

والمتأمل في القرآن يجد الله جل وعلا يذكر العباد بربهم، حين يقعون في المعصية،﴿**أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ**﴾فربط الناس بالآخرة أولى ، يعني بعض الناس الآن إذا أراد أن يتكلم عن حرمة الفاحشة، يتكلم عن مرض الإيدز وأنه كذا وكذا، هذا جيد لا حرج منه، لكن يكون قبل ذلك التذكير بالآخرة، باليوم الآخر لأنه إذا لم يردعه اليوم الآخر لا أظن أن يرتدع بهذا المرض؛ لأنه قد يكون هذا المرض يشفى فلا يرتدع بهذا المرض فبالتالي يظل على هذا الذنب، لكن لو يعلم أن الله مجازيه وأن الله جل وعلا الذي خلقه يميته ويبعثه وأن الله جل وعلا يعاقب على ذلك وأن الله رتب على هذا الذنب عقوبة عظيمة كذا وكذا، إذا لم يرتدع بذا، قد لا يرتدع بالمرض، نعم قد يرتدع في المرة الأخرى لكن سرعان ما يعاود الذنب إذا علم أنه لا يصاب بكذا وكذا، فلذلك يتأمل في دعوة الأنبياء يخوفون قومهم بالله واليوم الآخر، وهذا الأصل في الدعوة، ولا مانع أن تورد الأمور الأخرى التي يعقلونها ويفهمونها بأن هذا يسبب كذا ويسبب كذا، هذا لا حرج منه.

وقوله جل وعلا:﴿**الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ**﴾ فيه إثبات صفة الرؤيا لله جل وعلا وأن الله يرى وأن الله يبصر ولا يختلف أهل السنة في ذلك، ومن فسر الرؤيا بالعلم، فقد خالف كتاب الله، وخالف سنة رسوله ﷺ؛ لأن الأشاعرة يثبتون العلم، على تحريف بينهم في ذلك واضطراب في هذا الباب،﴿**لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا**﴾.

هو العليم أحـاط علمـا بالـذي
في الكون من ســر ومن إعلاني
وبكـل شــيء علمـه ســبحـانـه
فهو العليم وليس ذا نســيـاني

فالذين يقولون أن المعنى بالرؤيا العلم، يخالفون ظاهر القرآن يخالفون السنة يخالفون العقل ويلحدون في أسماء الله وآياته؛ لأن المعنى يكون إنني معكم أسمع وأعلم، وهذا ظلال، ومكابرة في صرف الأدلة عن ظواهرها لأن الله عليم ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ثم أن هذا صرف للفظ عن ظاهره، ثم إن الرؤيا غير العلم، ثم أنه لا يكون في السياق بلاغة وفصاحة وأتى معنى مغاير، ثم أنه لا يختص بهذا واحد عن الآخر بالعلم، فهذا يقول في تفسير قوله جل وعلا:﴿**الَّذِي يَرَاكَ**﴾: الذي يعلم حين تقوم، يعلم ويعلم غيره لا يختص بذلك، وكذلك في الرؤيا، يراك ويرى غيره، ولكن هذا لإثبات المعية المقتضية للحفظ والنصر والتأييد وفي نفس الوقت هي إشارة إلى أن الله جل وعلا يرى كل من يدب على وجه الأرض، فالذي يفعل شيئا فإن الله يراه، ولا يخفى عليه شيء لا في الأرض ولا في السماء.

قوله:﴿**وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ * إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾ فيه إثبات صفة السمع وإثبات صفة العلم.

وقوله: ﴿**وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ**﴾ فيه إثبات صفة الرؤيا.

صفات المحال والمكر والكيد

وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ [الرعد:١٣]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠].

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق:١٥: ١٦].

الشرح

الحديث عن الصفات الفعلية الاختيارية والصفات الذاتية، وتقدم **منهج شيخ الإسلام رحمه الله تعالى في هذه العقيدة وأنه يورد المتفق عليه بين أهل العلم**، وله أراء أخرى لم يودعها في هذه الرسالة لوجود الاختلاف بين العلماء، وأنا وضحت ذلك بالأمس على كون شيخ الإسلام لم يورد في صفة الوجه﴿**فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ**﴾ لأن العلماء مختلفون في معنى هذه الآية، فأورد الأدلة الدالة على إثبات صفة الوجه التي لا يختلف فيها العلماء وأهل السنة.

قوله جل وعلا: ﴿**وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ**﴾: وهو أي الرب جل وعلا، شديد المحال: أي الأخذ بقوة وبشدة، والله جل وعلا موصوف بصفات الكمال، منعوت بنعوت الجمال، فما أطلقه الله على نفسه فهو صفة كمال، لا يلحقه عيب ولا نقص بأي وجه من الوجوه، وفي تفسير قوله ﷺ: «والشر ليس إليك»، قال شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم عليهما رحمة الله: أي: لا يدخل في أسمائك وصفاتك.

ولا يختلف العلماء ، أن الشر مخلوق لله كالخير، خلافًا للقدرية وطوائف من أهل البدع.

ولكن الله جل وعلا يحب الخير، ولا يرضى لعباده الكفر والشر، ﴿**وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾، ﴿**وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ**﴾، وقال:﴿**وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ**﴾، فالرب جل وعلا شديد المحال أي الأخذ بقوة:﴿**وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ**﴾.

فالله جل وعلا يوصف بأنه شديد المحال، أي الأخذ بقوة وبشدة وقد قال لوط ما ذكره الله عنه: ﴿**أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ**﴾ يعني: ربه جل وعلا.

يؤخذ من هذه الآية إثبات توحيد الربوبية، ويؤخذ من ذلك إثبات الصفات لله جل وعلا، وهذا بدلالة التضمن، ويؤخذ من ذلك توحيد العبادة بدلالة الالتزام؛ لأن القوي الشديد الذي لا يعجزه شيء لا في الأرض ولا في السماء،﴿**وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا**﴾ لا يثقله،﴿**وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ**﴾ هو المستحق للعبادة

لا يستحق العبادة غيره، فلا إله إلا هو ولا رب سواه.

تقدم الحديث عن دلالات المطابقة وهي ثلاث: دلالة الالتزام، ماذا دلالة الالتزام ؟ دلالة تدلنا على معنى خارج لازم بالمعنى.

ودلالة تضمن: دلالة تضمن ماذا ؟ وهي دلالة على بعض منه، دلالة المطابقة : دلالة تدل على كل المعاني، صحيح.

وقوله تعالى:﴿**وَمَكَرُوا**﴾الإشارة إلى الذين سعوا جاهدين لقتل عيسى وصلبه، فهم يمكرون ويكيدون ويريدون قتل أنبياء الله، وتحويل بلاد المسلمين على حسب أهوائهم وأمزجتهم، ويعبدون الهوى، فهم يمكرون في ذلك قال الله جل وعلا: ﴿**وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ**﴾حين كانوا يمكرون مَكَرَ الله بهم، فالله جل وعلا يمكر على وجه المجازاة للآخرين.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: المكر والاستهزاء والكيد منه ما هو محمود ومنه ما هو مذموم، **ولا يطلق على الله من ذلك إلا ما هو محمود**، فالله جل وعلا موصوف بصفات الكمال. أمر آخر **قرره ابن القيم**: أن الله جل وعلا لا يوصف بلفظ أو بوصف المكر المطلق إلا على وجه المجازاة والمقابلة.

قوله: ﴿**وَمَكَرَ اللَّهُ**﴾ أي قابلهم وجزاهم على صنيعهم بمكرهم، وأهل السنة يطلقون هذا اللفظ على الله بهذا المعنى وتقدم قبل قليل أن ما أطلق الله على نفسه فهو صفة كمال.

وقوله جل وعلا:﴿**وَمَكَرُوا مَكْرًا**﴾، **وَمَكَرُوا مَكْرًا**: مكرًا توكيد الأول، إشارة إلى توغل المكر في نفوسهم، وإلى السعي الحثيث في إيجاد المكر بأولياء الله وأنبياء الله ورسله والصالحين من عباد الله فلذلك وصف مكرهم بالمصدرية فقال الله جل وعلا: ﴿**وَمَكَرُوا مَكْرًا**﴾، لكن ماذا قال الله جل وعلا:﴿**وَمَكَرُوا مَكْرًا**﴾ أكبر وأشد وأنكى من مكرهم، ومن كان الله معه فلا يضره مكر الذين يمكرون، قال الله جل وعلا:﴿**وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ**﴾.

قوله: ﴿**وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ**﴾أي :لا يشعرون باستدراج الله لهم، ومكره بهم، وجعل العاقبة للمؤمنين، والنكال على الكافرين والمعرضين، فيؤخذ من ذلك: ضرورة التعلق بالله جل وعلا، ومن كان الله معه فلو اجتمع الجن والإنس منذ خلق آدم إلى أن تقوم الساعة لا يستطيعونه بشيء، وفي حديث حنش الصنعاني عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال:((واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لن ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك، لن يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف))، قال أبو عيسى رحمه الله تعالى هذا حديث حسن صحيح.

تحدثت بالأمس وقبل الأمس أيضا عن دراسة وأهمية دراسة الأسماء والصفات ومعرفة خطورة وترتب أسبابها، والإنسان كي يعلم ويثبت لله صفة المغفرة يكون متصف بهذا الوصف، الرحمة يكون رحيما، وأما أنه يثبت الألفاظ وقد يؤمن بالمعاني ولكن لا تترتب هذه المعاني، والآثار على واقعه فهذا نقص في الإثبات؛ لأنه لو كان إثباته إثباتًا حقيقيا جازم بذلك لترتب الأثر هذا على واقعه، **يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى في الفتاوى**: ما عصى عبد ربه إلا بنقص إيمانه بالغيب، وكل ما قوي إيمانه كلما قلت معصيته، وكلما ضعف إيمانه كلما كانت معصيته أكبر، بدليل أن العبد، لا يعصي الله بحضرة من يستحى منه، ولكن حين يخلو يعصي الله، هذا دليل على نقص إيمانه بالغيب، لو كان يستحضر، سمع الله له، ورؤية الله له لما عصى الله، كما لم يعص الله في حضرة وجود فلان وعلان.

قوله:﴿**إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا**﴾ أي: يكيد هؤلاء الكفار والمنافقين يكيدون لدين الله وللمؤمنين، ويريدون إلحاق الضرر، بحوزة الإسلام، والدين الحق، ويريدون سلخ المسلمين عن مبادئهم، وعن عقائدهم، ويريدون تركيعهم للشهوات وعباد الصليب، ولكن الله جل وعلا يقابلهم على كيدهم ومكرهم، بقوله: ﴿**وَأَكِيدُ كَيْدًا**﴾ أي: أستدرجهم بذنوبهم وبأفعالهم ثم آخذهم،﴿**فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا**﴾، وأهل السنة يثبتون لله جل وعلا صفة الكيد على وجه المقابلة، والمجازاة للذين يريدون الكيد، للإسلام وللمؤمنين.

وهذا يبعث أيضًا على الإيمان بالله والتعلق به، وهذا يعني إثبات الصفات لله جل وعلا، ويعني إثبات توحيد الربوبية، ويعني إثبات توحيد الإلهية ويعني إثبات توحيد الأسماء والصفات.

وقد قال ابن القيم رحمه الله تعالى: ليس في القرآن آية ولا حرف منه إلا وهو دال على الله جل وعلا، بدلالة التضمن أو بدلالة المطابقة أو بدلالة الالتزام، ما هناك آية، حتى الحرف قاف دال على الله من يتكلم به من قال قاف، هو الله، إثبات صفة الكلام لأنه تكلم، والمتكلم إذا موجود، إثباث توحيد الربوبية، والذي خاطبنا بذلك هو المستحق بالعبادة، ما هناك حرف في القرآن إلا وهو دال على الله، ولعل هذا هو معنى قول الله جل وعلا: ﴿**إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾.

والتأمل في القرآن ومعرفة المعاني، والإيمان بالأسماء والصفات ودراسة ذلك يترتب عليه أثر عظيم وهو التعلق بالله وزيادة في الإيمان، ومعرفة الله حق المعرفة، والذين يعرفون ذلك تكون عبادتهم أخلص وأقوى من عبادة الذين يجهلون ذلك، وكلما كان إيمان العبد بذلك أتم كان بأمر الله أقوم، وله أخلص ولفعل الأوامر أسرع، ولذلك قال الله جل وعلا عن بعض أنبيائه:﴿**وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى**﴾.

وقد ذكر بعض السلف عن **محمد بن واسع**، لو قيل له تموت الليلة ما زاد على عمله، لأنه مستعد لهذا اليوم.

صفات العفو والمغفرة والرحمة والعزة

وَقَوْلُه:﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوَءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء:١٤٩].

﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور:٢٢].

وَقَوْلُهُ:﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، وَقَوْلُهُ عَنْ إِبْلِيسَ:﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص:٨٢].

وَقَوْلُهُ:﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٧٨].

الشرح

وقوله جل وعلا: ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا﴾ الخطاب للناس،﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا﴾ ويخص من ذلك المؤمنون؛ لأن الخير لا يقبل إلا إذا كان خالصًا صوابًا، أما الكافر إذا عمل الخير فليطعمه في الدنيا، كما جاء في صحيح الإمام مسلم.

﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ فيه إثبات صفة العلم لله جل وعلا، يستوي الإسرار والجهر،﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ بلى، بلى أي نسمع، وفي نفس الوقت،﴿وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾.

وفيه إثبات صفة القدرة لله جل وعلا.

قوله: ﴿أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ﴾ فيه فضيلة العفو، وحين يتصف المخلوق بذلك فالله أولى بالأمر ولذلك تأمل في ختم الآية ماذا قال الله جل وعلا ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ إذا كنتم تعفون، فإن الله يعفو مع القدرة وأنتم تعفون مع العجز، تأمل في المراد في ختم الآيات، وقد أشار إلى هذا المعنى الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في جلاء الأفهام، وقال: **أنه لا تختم آية في القرآن إلا ولها ارتباط بالمعنى** وذكر حكاية عن أعرابي سمع قارئ يقرأ ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ غفور رحيم﴾ قال الأعرابي: هذا ليس بكلام الله، فغضب عليه القارئ قال: أعرابي جاهل تكذب بكلام الله، وأنا قارئ، قال إذن أعد الآية: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ قال نعم: هذا كلام الله، عزَّ فحكم فقطع، ولو غفر ورحم لما قطع، بل عز وما رحم فقطع، أن الله عزيز حكيم،

وهو العزيز فلن يرام جنابه
أنى يرام جناب ذي السلطان
وهو العزيز القاهر الغلاب لم

يغلبه شيء هذه صفتان

وهو العزيز بقوة هي وصفه

فالعز حينئذ ثلاث معان

ويؤخذ من ذلك إثبات صفة العفو لله جل وعلا، وهو أعم من المغفرة، العفو أعم من المغفرة.

ويؤخذ إثبات صفة القدرة لله جل وعلا، ﴿**لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا**﴾، والذين يؤمنون بذلك يجب أن تتمثل فيهم صفة العفو ﴿**وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾، ﴿**وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ**﴾ دعاهم إلى العفو، الشافعي يقول:

فلما عفوت ولم أحقد على أحد

أرحت نفسي من هم العداوات

إني أحيي عدوي عند رؤيته

لأردع الشر عني بالتحيات

وقد ذكر شيخ الإسلام قبل ذلك، حين قدر النبي ﷺ على الطلقاء فعفا عنهم، هذا هو التمثل الحقيقي في معرفة وصفات أسماء الله وصفاته، تأمل في واقع الصحابة، تأمل في واقع التابعين، تأمل في زمان الإمام أحمد حين أوذي وسجن عفا عن كل من ظلمه، تأمل في واقع ابن تيمية رحمه الله تعالى حين أذوي وسجن وأفتي بقتله، وحين دعاه السلطان وقال: ما تريد أن أصنع بهؤلاء؟ عفا عنهم، عفو مع القدرة أيضًا، وهو يستطيع أن يفتي السلطان بقتلهم، فعله ناتج عن :

أولاً: ناتج عن نقاوة القلوب.

الأمر الثاني: ناتج عن معرفة الدنيا وحقيقتها وتقلبها.

الأمر الثالث: ناتج عن حقيقة الإيمان والإمعان في أسماء الله وصفاته.

الأمر الرابع: ناتج أيضًا عن مراعاة باب المصالح والمفاسد.

وقوله جل وعلا: ﴿**وَلْيَعْفُوا**﴾ هذا أمر من الله جل وعلا بالعفو، قد نزلت هذه الآية في أبي بكر الصديق حين حلف على أن لا ينفق على مسطح وهو بدري وهو ابن خالة أبي بكر الصديق وكان رجلا معدمًا فقيرا، يعيش على نفقة أبي بكر الصديق، وفي نفس الوقت، كانت له غلطة ومتابعة لرأس المنافقين عبد الله بن أبي، في وشايته وقذف عائشة بالإفك، حين علم أبي بكر بذلك أنه يسعى في

استثارة الفتنة، قال والله لا أنفق عليه، أنفق عليه وهو ابن خالتي، وفي الآخر يجاوب مع المنافقين ضد النبي، وزوجة رسول الله ﷺ، فحلف أبو بكر ألا ينفق عليه، فأنزل الله:﴿**وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ**﴾، قال أبو بكر: بلى، فأعاد النفقة عليه، امتثالا ومسارعة لأمر الله جل وعلا، وليصفحوا أي يتجاوزوا كما قال جل وعلا في صفات المؤمنين:﴿**وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾ وبقدر ما تعفوا بقدر ما يتجاوز الناس عن هفواتك، بقدر ما تعفوا تلقائيًّا الناس يتجاوزون عن هفواتك، وبقدر ما تشتغل بتضخيم.

تعرف من صفات المؤمنين ﴿**وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾وبقدر ما تعفو بقدر ما يتجاوز الناس عن هفواتك، بقدر ما تعفو –تلقائياً– الناس يتجاوزون عن هفواتك، وبقدر ما تشتغل بتفصيل هفوات الناس والنكاية بهم ومطاردتهم في أموالهم وفي أفعالهم؛ بقدر ما يتتبع الناس ذلك منك، وحينئذ تعرف قدر العفو والصفح عن العباد.

الشاهد في سياق الآية ﴿**أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ**﴾ فيه إثبات صفة المغفرة لله –جل وعلا–، ﴿**وَاللَّهُ غَفُورٌ**﴾ فيه إثبات صفة المغفرة أيضاً، وإثبات اسم الغفور لله –جل وعلا–، ﴿**رَحِيمٌ**﴾ تقدم الحديث عن صفات الرحمة لله –جل وعلا.

قال شيخ الإسلام بن تيمية –رحمه الله تعالى– في الحديث عن أسماء الله وصفاته وتقرير ذلك بأدلته من الكتاب والسنة، وقد بدأ شيخ الإسلام –رحمه الله تعالى– الحديث عن ذلك بأدلة القرآن، وحينما يفرغ من ذلك يورد الأدلة الثابتة عن النبي ﷺ لكي يعلم المسلم أن هذا الباب مبني علي الكتاب والسنة، ولا دخل للعقل ولا للقياس في إثبات اسم أو صفة لله تعالى.

وفي نفس الوقت هذه الأسماء والصفات المذكورة في كتاب الله والتي يعلمها صبيان أهل التوحيد، فقد كان النبي ﷺ يحث الناس على قراءة آية الكرسي دبر كل صلاة ويخبرهم بأن (قل هو الله أحد) تعدل ثلث القرآن، ولم يكن أحد منهم يستشكل شيئاً من ذلك؛ بل يؤمنون به، ويثبتون لله ما أثبته لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ إثباتا بلا تمثيل وتنزيهاً بلا تعطيل؛ لأن الله –جل وعلا– ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله وهو السميع البصير.

فقوله –جل وعلا– ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ﴾ (ولله﴾جار ومجرور خبر مقدم، (العزة) مبتدأ مؤخر، وتقديم الخبر على المبتدأ يفيد حصر مطلق العزة لله –جل وعلا– وأن المؤمن يكتسب عزته من عزةِ الله؛ وذلك باتباعه للكتاب والسنة،﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾فلا كرامة لأحد إلا بالإسلام، ولا كرامة لأهل الإسلام إلا بالتمسك به، ومن ابتغي العزة بغير طاعة الله وبغير طاعة رسوله ﷺ أذله الله ،وجعل فيه الذلة والصغار، وقد قال النبي ﷺ في حديث عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان عن حسان بن عطية عن أبي منيب الجرشي عن ابن عمر قال رسول الله ﷺ :((**وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري**)).

وقال تعالى ﴿**فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا**﴾ والعزة في صفات الله –جل وعلا– لها ثلاثة معاني؛ نظمها الإمام بن القيم –رحمه الله تعالى– في نونيته فقال:

وهو العزيز فلن يرام جنابه — أنى يرام جناب ذي السلطان
وهو العزيز القاهر الغلاب لم — يغلبه شيء هذه صفتان
وهو العزيز بقوة هي وصفه — فالعز حينئذ ثلاث معان

فالعزيز اسمه، والعزة صفته، قال الله –جل وعلا– ﴿**الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ**﴾ .

وقال النبي ﷺ فيما يروي عن ربه –والخبر في صحيح مسلم– ((**الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني في واحد منهما ألقيته في النار**)). فقوله﴿ولله العزة﴾ يفهم من ذلك إثبات صفة العزة لله، قوله ﴿ولرسوله﴾فيه إثبات العزة أيضاً للرسول،﴿وللمؤمنين﴾ وعزة هذا غير عزة هذا، فكما نثبت لله ذاتاً لا تشبه الذوات، نثبت لله صفة لا تشبه الصفات، ونثبت لله عزة لا تشبه عزة غيره، لأن هذا الخالق وهذا مخلوق.

ويؤخذ من ذلك مشروعية البحث عن العزة؛ والمؤمن لا قيمة له بدون عزة، وقد كان أئمة السلف يربون أبناءهم على العزة حتى يتشرَّب الطفل العزةَ من صغره فلا يمتهنه أحد في كبره.

والعزة تتمثل في عدة أمور:

الأمر الأول: تتمثل بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ.

الأمر الثاني: العزة تتمثل بقوة الشخصية والمسارعة إلى ما يحبه الله.

الأمر الثالث: تتمثل العزة بالبعد عن طاعة المخلوق في معصية الخالق؛ فمن أطاع مخلوقاً في معصية الخالق فلا عزة عنده ولا قيمة له؛ لأنه قدم رضا المخلوق على رضا الخالق، والطاعة في المعروف.

ومن معاني العزة التعلق بالله؛ فمن تعلق بالله كان عزيزا، ومن تعلق بالمخلوق كان ذليلاً وإن كان كبيراً في منصبه؛ لأن العزة الحقيقية تتمثل بقوة القلب وتعلقه بالله -جل وعلا-

إذا انقطعت أطماع عبدٍ عن الورى ... تعلق بالرب الكريم رجاؤه
فأصبح حراً عزةً وقناعةً ... على وجهه أنواره وضياؤه
وإن علقت بالخلق أطماع نفسه ... فباعد ما يرجو وطال عناؤه
فلا ترجُ إلى الله في الخطب وحده ... ولو صح في حل الصباح صباحه

ومن معاني العزة: الصبر على البلاء والشكر في الرخاء، والأصل في المسلم إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له؛ فيتقلب في معاني العزة في السراء والضراء، فليس من أصابته شدة أو فاقة أو لحقه ضرر أو عدوان من الآخرين أصبح ذليلاً، لا؛ الذليل هو من رق قلبه لغير الله، ومن لجأ بفؤاده إلى غيره ؛ ولذلك النبي ﷺ مرت عليه مرحلة كان مطارداً؛ تارة بالاختفاء في غار حراء، ثم هروب من مكة إلى الطائف، ثم جوار؛ لم يدخل مكة إلى بجوار المطعم بن عدي المشرك، ثم أخرج من مكة إلى المدينة؛ فيتقلب في معاني العزة.

وقوله -جل وعلا- عن إبليس﴿**فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾إبليس يعرف ربه؛ فقد كان من المقربين، ولم يكن من الملائكة الطيبين؛ فإن الملائكة مخلوقون من نور، والأحاديث في ذلك متواترة، وإبليس هو أبو الجن، خلق من نار؛ بنص القرآن.

وقوله -جل وعلا- ﴿**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ**﴾ إبليس هنا استثناء منقطع وليس متصلاً؛ فإبليس ليس من جنس الملائكة بدليل قول الله -جل وعلا- في سورة الكهف

﴿**إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ**﴾ هذه الآية صريحة في كون إبليس من الجن، وهذه الآية دلالة وموضحة للآيات المجملة ﴿**إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ**﴾.

سمى بهذا الاسم؛ قيل لأنه أبلس من الخير، وقيل لأنه أبلس من رحمة الله -جل وعلا-، قال إبليس﴿**فبعزتك**﴾يقسم بالله، فقبح الله رجلاً إبليس أعلم منه بربه؛ الجاهل من أهل البدع يقسم بالبدوي أو يقسم بالنبي أو يقسم بالمخلوق؛ هذا لا يعرف ربه؛ وقد قال النبي ﷺ:((**من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك**)) رواه الترمذي وغيره وأصله في الصحيحين وهو:((**لا تحلفوا بآبائكم، فمن كان حالفاً فليحلف بالله أو يصمت**)) .

ويفهم من ذلك جواز القسم بصفة من صفات الله إذا أضيفت إلى الذات؛ تقدم التفريق بين الصفات اللازمة والصفات المتعدية، وتقدم التفريق بين الدعاء المحض وبين الاستعاذة والاستغاثة؛ وإن كان هذا نوعاً من أنواع الطلب إلا أن الطلب المحض يختلف عن الاستغاثة وغير ذلك، وفي نفس الوقت يختلف الحلف عن غيره.

﴿**فبعزتك**﴾لا يجوز الحلف إلا بالله -جل وعلا-، ﴿**لأغوينهم أجمعين**﴾ الشاهد من ذلك فبعزتك، هذا دليل أن العزة صفة من صفات الله، فلا يجوز الحلف بالمخلوق، **وصفات الله -جل وعلا- من الله ليست بمخلوقة باتفاق المسلمين**، وأما إبليس فإنه لا يقدر على إغواء العالمين، ولذلك استمع ، قال : ﴿**إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ**﴾ ولذلك قال النبي ﷺ والخبر في صحيح مسلم ((**إن الشيطان يئس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب ولكن بالتحريش بينهم**)) معنى هذا أن الشيطان يئس أن يطبق الناس كلهم على عبادة الأوثان وعلى دعاء غير الله، ولا يفهم من ذلك أن لا توجد بقية يعبدون غير الله؛ لقوله ﷺ ((**لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس على ذي الخلصة**)) والخبر متفق على صحته، ولقوله ﷺ((**لا تقوم الساعة حتى تعبد فئام من أمتي الأوثان**)).

وقيل المعنى أن الشيطان هو يئس، ويأسه ليس بمعصوم، فهو يظن بئس ما ظن.

يؤخذ من ذلك الحذر من نزغات الشـيطان وخطواته﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ**﴾ .

وقال تعالى: ﴿**وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ**﴾فالشيطان ينزغ بين العباد، فالاستعاذة منه تنأي بالعبد عن نزغاته وخطواته، ويؤخذ من ذلك إثبات صفة العزة لله –جل وعلا .

وقوله –جل وعلا– ﴿**تَبَارَكَ اسْـمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**﴾ فقوله –جل وعلا– (تبارك) لا يطلق إلا على الله –جل وعلا– ﴿**تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ**﴾ ﴿**تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ**﴾﴿**فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ**﴾ ﴿**تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**﴾ وهذا لا يختلف فيه العلماء؛ فلا يصح قول العبد تبارك فلان أو تبارك ماله أو تبارك بيته، وأهل العلم يفرقون بين بارك وتبارك؛ فالمخلوق قد يكون مباركاً ﴿**وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ**﴾ لا حرج أن تقول فلان فيه بركة، ويقال مبارك وفعل ذلك بارك؛ بارك يبارك مباركة، تبارك لا يطلق إلا على الله –جل وعلا–، فلا يصح أن تشتق منه المضارع يتباركون تباركاً؛ لأن هذا يطلق على الله –جل وعلا–، ومعنى تبارك أي تعاظم وتعالى.

فالله عظيم، وهو العليُّ الأعلى ﴿**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى**﴾﴿**وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ**﴾علو الذات وعل القدر وعلو الشرف، فلله –جل وعلا– جميع أنواع العلو.

قال تعالى: ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْـتَوَى**﴾ ﴿**ثُمَّ اسْـتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ**﴾ ﴿**أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ**﴾ .

وقال النبي ﷺ للجارية: ((**أين الله**)) قالت :(**في السماء**)، وهذا أمر فطري؛ فقد فطر الله عليه عباده، والناس الآن مؤمنهم وكافرهم متجاوبون مع هذه الفطرة إلا من اجتالته الشياطين عن فطرته.

وحين اسـتطرد الإمام ابن القيم في (**اجتماع الجيوش الإسـلامية في غزو المعطلة والجهمية**) في مسـألة العلو كرر الحديث عن إثبات ذلك في الحيوانات والبهائم والطيور والحشـرات وأورد الأمثلة على ذلك والأدلة، فقوله –جل وعلا– ﴿**باسم ربك**﴾ قال الله –جل وعلا– ﴿**وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ**

بِهَا﴾ أهل العلم تارة يبحثون مسألة هل الاسم هو المسمى أو غيره، فقالت طائفة الاسم هو المسمي، وقالت طائفة الاسم غير المسمى، والبعض يقول من قال أن الاسم هو المسمى مبتدع، والآخر يقول من لم يقل فهو مبتدع، والتحقيق التفصيل راجع إلى كلام شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله تعالى–، الحديث الآن عن إثبات ذلك لله –جل وعلا.

ولا يختلف العلماء أن الله هو العزيز الغفار الرحيم الحكيم الخالق البارئ المصور؛ هذه أسماء لله –جل وعلا– فليس معنى إذا تعددت أن التعدد في الذوات، هذا ضلال، كفر بالله –جل وعلا–ولكن هذا للتعظيم؛ لعظمة الله له أسماء متعددة، وهذه الأسماء كل واحد منها يحمل معنى غير المعنى الآخر، وكلها دالة على الله.

قوله ﴿**ربك**﴾ الرب هو المعبود، الرب هو الخالق الرازق المدبر، الرب هو المألوه محبة وتعظيماً وإجلالاً ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ**﴾ وقد وصف هذا الرب –جل وعلا– بأنه﴿**ذو الجلال والإكرام**﴾الجلال: البهاء العظمة الكبرياء؛ فالله ذو الجلالة ولذلك كره بعض العلماء أن يقال للمخلوق صاحب الجلالة؛ يرون هذا مختصاً بالله –جل وعلا– لقوله ﴿**ذي الجلال والإكرام**﴾، ومنهم من قال يختلف هذا عن ذاك؛ كما أن المخلوق يوصف بالعزة والله موصوف بذلك ،فهذا يختلف عن ذاك، فيقال المخلوق ذو جلالة بمعني جلالة تليق به.

وقوله ﴿**والإكرام**﴾ أي ذو الإكرام الذي يجب إكرامه، وذو الكرامة فالله أجود الأجودين وأكرم الأكرمين، ولذلك جاء في الحديث ((**إن من إجلال الله إجلال ذي الشيبة وحامل القرآن**)) أي: من تعظيم الله ومن تقديره واحترامه والقيام بحقه أن تكرم ذا الشيبة وحامل القرآن، ويؤخذ من ذلك إثبات الأسماء لله –جل وعلا–، وأهل السنة لا يختلفون في ذلك؛ يثبتون ذلك على مراد الله ومراد رسوله ﷺ.

نصوص النفي المفصل

وَقوْلُهُ:﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:٤]. وَقوْلُهُ:﴿فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢]. ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]. وَقوْلُهُ:﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَم يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلَّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١].﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن: ١] وَقوْلُهُ:﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:١-٢]. وَقوْلُهُ:﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١]. ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٢]. ﴿فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٤]. ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام:٣٣].

الشرح

وقوله –جل وعلا– ﴿فَاعْبُدْهُ﴾ هذا أمر بعبادته، والعبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة، والعبادة لا تسمى عبادة إلا بأمرين؛ الأمر الأول: الحب لله –جل وعلا–؛ أن تؤدى العبادة محبة لله، فإن المحبَّ لمن يحبُّ مطيع، الأمر الثاني: الذل؛ تكون ذليلاً لله؛ لأن الإنسان قد يكون ذليلاً للمخلوق ولا يحبه، وقد يحب المخلوق ولا يكون ذليلاً له، إذا اجتمع الأمران فلا يصحان إلا لله.

وعبادة الرحمن غاية حبه ... مع ذل عابده هما حكمان
وعليهما فلك العبادة دائرٌ ... ما دار حتى قامت القطبان
ومداره بالأمر أمر رسوله ... لا بالهوى والنفس والشيطان

فقوله ﴿فاعبده﴾ ﴿وَاصْـطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾أي:لازم عبادته؛ لأن بعض الناس يعبد الله؛ يؤدي العبادة؛ وهو على خير، ولكن سرعان ما ينقطع فيكون كالمنبت؛ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى، فالله أمر عباده أن يعبدوه وأمرهم بالاصطبار على ذلك ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾ هناك شيء اسمه صبر على العبادة، وهناك شيء اسمه صبر عن المعصية، وهناك شيء اسمه صبر على الأقدار والمصائب، وما قدره الله عليك من المصائب ، فهذا صبر ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ قال علقمة (هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم).

﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ هذا الشاهد؛ أي هل تعلم له سمياً يتسمى باسمه ويفعل كفعله؟ كلا؛ لا يتأتى هذا، فحين شقي مسيلمة الكذاب وأغواه الشيطان وأضله سواء السبيل؛ فنصب نفسه رحمن اليمامة ألبسه الله جلباب الكذب، ولا يعرف هذا الخبيث إلا بمسيلمة الكذاب؛ شيطان اليمامة، فقد تعلق به الاسم هذا، إذا قلنا من هو يقال مسيلمة الكذاب، كذلك أيضاً إذا بدأت بمسيلمة.

وقوله -جل وعلا- أيضاً ﴿أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ﴾ أي يفعل كفعله ويخلق كخلقه ويدبر كتدبيره ويقدر كقدرته؟ لا، ولذلك قال الله -جل وعلا-﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

وقوله -جل وعلا- ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ بضم الفاء لأن بعض الناس من يقرأ بسكون الفاء، حفص عن عاصم بضم الفاء ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ أي ليس له كفوا أحد، ولا يفعل فعله أحد، ولا يقدر على قدرته أحد ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ في كل شيء، وقد جزم غير واحد من العلماء وأهل اللغة أن اسم (أحد) في الإثبات لا يطلق إلا على الله، يطلق على المخلوق في النفي والنهي، أما في الإثبات فلا يطلق إلا على الله -جل وعلا- ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ في سياق النهي، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ في سياق النفي.

وقد اعترض على هذا الحافظ ابن الحجر في فتح الباري وأورد دليلاً يفيد مجيء هذا في الإثبات،

سئل رسول الله ﷺ عما يلبس المحرم قال:((**لا يلبس القميص ولا العمامة ولا السراويل ولا البرانس إلا أحد لا يجد النعلين**)) هذا على سبيل الإثبات، وربما يقال يطلق على وجه النادر.

الشـــاهد من الآية إثبات العظمة لله -جل وعلا- وأن المخلوق يبقى مخلوقاً والخالق هو الخالق ،وتعظيمه ومعرفته بأسمائه وصـــفاته والتعرف إليهما، يمكن أن يزيد في الإيمان ويبعث على اليقين، من عرف الله حق المعرفة هان عليه كل شيء.

وقوله -جل وعلا- ﴿**فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا**﴾ الـــ(لا) هنا ناهية،تجزم فعلاً بعدها، (أندادا) الند هو النظير والمثيل والشـــبيه،﴿**فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ أي:تعلمون أن لا خالق غيره، ولا رازق سـواه، ويعلمون أنه لو مات شـخص ما اسـتطاع أن يحييه أحد، لأن الله هو الخالق، وأن الله هو الذي أوجدهم من العدم، إذاً كيف تعبدون مع الله إلهاً آخر؟ الخالق لهذه الأشياء هو المستحق للعبادة، الذي لا يخلق لا يســـتحق أن يكون معبوداً، والذي لا يقدر لا يســـتحق أن يكون خالقاً، قال الله -جل وعلا- ﴿**أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ**﴾

﴿**أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ**﴾ بصيرة، هذا المخلوق الضعيف يأكل من رزق الله ويشرب من رزق الله وينعم برزق الله ويعيش على أرض الله، وتحت سماء الله، وحين يكبر يتمرد ينصب نفسه إلهًا مع الله ويستكبر عن طاعته، ﴿**أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى**﴾ قال الشافعي وغيره: أي: لا يؤمر ولا ينهى.

فهو مأمور بالتوحيد ومنهي عن الشرك، لذلك الله جل وعلا يذكرهم بما أنعم عليهم من النعم، فقال: ﴿**فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾.

يؤخذ من الآية أن الله ليس له نظير ولا مثل.

قال تعالى:﴿**أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ**﴾ ﴿**وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ**﴾.

وقال: ﴿**إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ**

وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾يعني نفسك.

وقال تعالى:﴿**كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ**﴾.

في هذه الآية معنيان: ﴿**كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ**﴾ قيل: يئس الكفار أي الأموات من أصحاب القبور الملائكة من الخروج، وقيل: يئس الكفار الذين هم على قيد الحياة من الأموات أن يجيبوهم حين يدعونهم أو يرزقوهم حين يسألونهم أو ينصروهم حين يستنصرون بهم، نقف على هذا والله أعلم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى:سرد الأدلة من كتاب الله على إثبات أسماء الله وصفاته:

وقد جهد رحمه الله في هذه العقيدة على ذكر المتفق عليه دون ما اختلف فيه، وقد أشار إلى هذا المعنى في كتابه:(**مناظرة العقيدة الواسطية**)؛ فهو كتاب جيد ومفيد، ونافعٌ في الحقيقة؛ لكونه المقصد من هذا الكتاب ومن هذه العقيدة، وهذا الكتاب موجود في كتاب الفتاوى.

فقوله جل وعلا: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ**﴾:(من) هنا تبعيضية،(من) ترد بيانية؛ كقول الله جل وعلا: ﴿**وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ**﴾؛ هنا (من) بيانية؛ أي: من جنس القرآن، فلا يختص الشفاء بآية دون أخرى، القرآن كله شفاء وهدى ونور وتبيان لكل شيء، وترد (من) تبعيضية؛ كقول الله جل وعلا:﴿**سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ**﴾؛ لم يقل ذلك كل الناس؛ قال ذلك بعضهم وكقول الله جل وعلا:﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا**﴾ فـ(من) هنا تبعيضية.

قوله:﴿**مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا**﴾ الند: هو النظير والمثيل،﴿**يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ**﴾، أي: يحبون أندادهم كما يحبون الله؛ فقد أثبت الله له المحبة وذمهم على ذلك؛ لأنهم يشركون به غيره، ولذلك إذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب هؤلاء.

وقد أدى بهم هذا الحب الشركي إلى الغلو والإفراط في معبوداتهم؛ بحيث يقدمون رضا المخلوق على رضا الخالق، ومحبوبات المخلوق على محبوبات الخالق.

وإذا تعارض لديهم أمران: أمر يحبه الله ويحبه الرسول ﷺ وآخر تهواه نفوسهم، ويعتقدون انه محبوب لأوثانهم ومعبوداتهم؛ يقصون محبوبات الله، ويقدمون هوى النفس ومحبوبات الشيطان على رضا رب

العالمين، وهذا نوع من أنواع الشرك الأكبر.

الشرك الأكبر له مراتب متعددة، منها حب غير الله، كطاعة غير الله، كعبادة غير الله

هناك بعض العلماء يقول: الشرك الأكبر أربع مراتب: شرك الدعوة، شرك المحبة، شرك الطاعة، شرك النية، والإرادة والقصد.

وهم لا يقصدون من هذا التقسيم الحصر، يدخلون في هذه الأمور الأربعة ما عداها، ولكن يريدون من وراء هذا أن أمور الشرك تدور على هذه الأمور الأربعة، ولكن لو أدخلت في شرك الدعوة لدخل في ذلك كل شيء.

قوله: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا**﴾ أي: وحدوا وأخلصوا أعمالهم لله. ﴿**أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ**﴾، أي: من أهل الأنداد لأندادهم.

و لا يختلف العلماء أنه ليس الشأن أن تُحِب، وإنما الشأن أن تُحَب، ولذلك، فالله جل وعلا يقول: ﴿**قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ**﴾؛ فهؤلاء يسارعون إلى محبة الله، وأثبت الله لهم المحبة؛ فمن سارع إلى رضا الله وإلى محبته، فإن الله يحبه؛ كما في الحديث القدسي الذي رواه البخاري وغيره: ((**ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه**)).

قوله: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ**﴾؛ أي: من أهل الأنداد لأندادهم.

يؤخذ من هذا إثبات فعل العبد، والرد على أهل البدع، يؤخذ من هذا كذلك أن الله واحد في ربوبيته، ويجب أن يفرد في ألوهيته. ويؤخذ من هذا أن من أحب مخلوقًا وساوى محبته بمحبة الخالق أنه مشرك.

يؤخذ من هذا أن أفعال العباد مخلوقة لله جل وعلا.

ويؤخذ من هذا أن الله قدر الخير والشر، وأنهما مخلوقان لله.

ويؤخذ من هذا بيان عظمة الله جل وعلا.

ويؤخذ من هذا أهمية التوحيد، وأثره على النفوس والمجتمعات؛ فلا قيمة لأحد دون التوحيد، ومن لم يكن موحدًا لله، فالبهائم أحسن حالاً منه، بل قال الله جل وعلا: ﴿**أَضَلُّ سَبِيلًا**﴾؛ فإن الله جل وعلا ما خلق الخلق من قلة، فيستكثر بهم، ولا من ضعف فيستنصر بهم، ولا من وحشة فيستأنس بهم،

خلقهم لحكمة مذكورة في سورة الذاريات:﴿**إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾؛﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ**﴾، **قدم الجن على الإنس؛ لأنهم أسبق خلقًا**،﴿**وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾، قيل: أي: إلا ليوحدون، وهذا قول طائفة من أصحاب ابن عباس وغيرهم، وقيل كما قال مجاهد وجماعة: أي: إلا لآمرهم وأنهاهم والمعنيان متقاربان، يكمل كل منهما الآخر.

إلا لآمرهم: أعلى الأمر هو الأمر التوحيد،﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ**﴾: أي: وحدوا ربكم.

وأعلى شيء نهى الله عنه نهي النهي عن الشرك:﴿**فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾، وحين سئل النبي ﷺ أي الذنب أعظم؟ قال:((**أن تجعل لله ندا وهو خلقك**))، هذا متفق على صحته، كذلك في حديث ابن مسعود وفي حديث جابر:((**من لقي الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة**)).

وقوله جل وعلا:﴿**وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ**﴾؛ أي: وقل يا محمد ﷺ، والأمر له أمر لأمته ما لم يرد تخصيص في ذلك وهذا قول عامة العلماء.

﴿**وَقُلِ الْحَمْدُ**﴾ الألف واللام للاستغراق؛ لاستغراق جميع المحامد، والحمد هو الثناء على الله جل وعلا في الصفات اللازمة والمتعدية، ويكون الحمد باللسان والقلب؛ بخلاف الشكر؛ فقد قال البعض:

أفـادتكم النعمـاء مني ثلاثـة يدي ولساني والضمير المحجب

قوله جل وعلا:﴿**الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا**﴾ولازم الحمد لوجود نعمة؛ بخلاف الشكر، وهذه النعمة حصلت للعبد، ليست هذه تعتبر منة.

الله جل وعلا يحمد على كل ما له من الأسماء والصفات: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا**﴾: فيها الرد على اليهود:﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ**﴾، وفيها الرد على النصارى:﴿**وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ**﴾، قيل في القرآن قاتلهم بمعنى .. ماذا ؟ لعنهم؛ ﴿**قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ**﴾ بمعنى: لعن؛ ﴿**قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ**﴾، بمعنى: لعن الخراصون،﴿**قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ**﴾: لعنهم الله ﴿**أَنَّى يُؤْفَكُونَ**﴾: أي: حيثما وجدوا، وحيثما حلوا، وحيثما كانوا.

وقد جعل اللعن صريحا في القرآن؛ قال الله جل وعلا في سورة الأحزاب: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا**﴾، وقال تعالى: ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ**﴾.

قوله جل وعلا:﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾: ولو كان له شريك في الملك لعلا بعضهم على بعض؛ كصنيع ملوك الدنيا؛ يتنافسون على الملك، ويضر بعضهم بعضًا، ويسعى بعضهم لعزل الآخر، وحينها لا ينتظم العالم، فالمنة والحمد لله جل وعلا أنه ليس له شريك في الملك،﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ﴾.

تأمل القول وتأمل بلاغة القرآن وفصاحته؛ لم يقل: لن يكن له ولي، لقيل ليس وليًا لله؛ هذا غير صحيح في الحديث القدسي((**من عادى لي وليا**))؛ لكن الله قيد القيد؛﴿مِنَ الذُّلِّ﴾: أي: من الضعف والحاجة إلى الآخرين: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾: الغني المطلق،﴿الْحَمِيدُ﴾: الذي يحمد على ذلك.

قوله جل وعلا: ﴿وَكَبِّرْهُ﴾؛ أي: كبره على عظمته وكبير قدره وعظيم ذلك،﴿تَكْبِيرًا﴾: نصبًا على المصدرية؛ فإذا قال العبد: الله أكبر؛ أي: لا شيء أكبر من الله:﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ﴾: ومن أسماء الله جل وعلا الكبير؛ فهو اسمه وصفته؛ الكبير المتعال، له كل أنواع العلو.

وقوله جل وعلا:﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي﴾: أي: (ما) بمعنى: (الذي)، أي: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ الذي؛ فاعل ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾: لماذا قدمت السموات في كل القرآن أو في بضعه؟ تقدم السموات على الأرض؛ لأن السموات أعظم من الأرض، وأفضل من الأرض؛ لأن الأرض خلقت قبل،﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾، قوله:﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: يسبح لله كل شيء في السماء وفي الأرض.

هذا دليل على عظمة الله جل وعلا، وأن كل شيء مفتقر إلى الله.

﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾، قال تعالى:﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، وقال في الأخرى في القراءة السبعية الصحيحة: ﴿ملك يوم الدِّين﴾؛﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾: أي: ويتصرف في الملك؛ قال الله جل وعلا:﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾.

﴿وَلَهُ الْحَمْدُ﴾: الألف واللام للاستغراق، له الحمد المطلق، والكمال كذلك، وهو على لك شيء قدير، فيه إثبات صفة القدرة لله جل وعلا؛ الله لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، و﴿هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾، يؤخذ من هذه الآية عدة أمور:

الأمر الأول: أن كل من في السموات والأرض يسبح لله جل وعلا، حتى الجمادات والحشرات والطيور، والدواب على اختلاف ألوانها وأشكالها؛ قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا

تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾؛ ما معنى:﴿**لَا تَفْقَهُونَ**﴾؟ لا تسمعون؛ ولذلك سمع الصحابة تسبيح الطعام، وسمعوا حنين الجزع، أسمعهم الله.

ولذلك في آخر الزمان يستنطق الله جل وعلا الأشجار في قتال اليهود؛ تقول الشجرة:((**يا مسلم**))، أنطقها الله الذي أنطق كل شيء((**هذا يهودي ورائي تعالَ فاقتله**))، وهذا متواتر عن النبي ﷺ، ونحن نؤمن بذلك، وكل مؤمن يجب عليه أن يؤمن بهذا، وأن الله جل وعلا في آخر الزمان يستنطق الشجرة، فتكون الشجرة مناصرة للمؤمنين على اليهود.

ويؤخذ من ذلك إثبات القدرة لله جل وعلا:﴿**لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾: إذا كان الله قديرا على كل شيء، فكيف نلجأ إلى المخلوق الضعيف في كل شيء، إلا ما قدره الله عليه ! وهذه القدرة نسبية، ولذلك هناك ضرورة تعليق القلب بالله، بيده أزمة الأمور، إذا أراد شيئًا يقول: (كُن) فَيَكُون، لا يحتاج إلى واسطة، مجرد أن تدعو الله جل وعلا، وتجتنب أكل الحرام؛ ليكون هذا أداة ومسارعة إلى الإجابة؛ لأن الرجل يمد يده إلى السماء ومطعمه حرام ومكسبه حرام وغذي من حرام وولد في الحرام فأنى يستجاب له؟! إذا أطعم المطعم والمشرب ودعا الله جل وعلا سرعان ما يستجاب له؛ قال الله جل وعلا:﴿**وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾.

وقال الله جل وعلا: ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ**﴾.

والدعاء: هو العبادة وفي مسند أحمد من حديث علي بن علي الرفاعي؛ عن أبي المتوكل الناجي، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال:((**ما من مسلم يدعو بدعاء ليس فيه إثم ولا قطيعة رحم، إلا أعطاه الله بإحدى ثلاث**))،ما هي الثلاث؟

الأولى: تعجل له دعوته.

الثانية: أن يكشف عنه السوء بمثلها.

الثالثة: أن تدخر له ليوم القيامة.

ماذا قال الصحابة؟

قالوا: إذًا نكثر يا رسول الله .. فماذا قال النبي ﷺ ؟ قال:((**الله أكثر**)).

وما معنى ذلك؟

أي: أسرع إجابة وأكثر كتابة، وإعطاءً، ومجازاة لكم.

وقوله: جل وعلا: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي﴾: تقدم الحديث عن ﴿تَبَارَكَ﴾، وأن هذه الكلمة لا تطلق إلا على الله بلفظ المضارع وبلفظ الماضي، ولا يشتق منها المضارع، والمخلوق يقال عنه: (مبارك) ولا يقال: (تبارك) ولا يصلح أن تقول حتى تبارك المال؛ غلط؛ (تبارك) يختص بها الرب جل وعلا. لكن لا مانع أن تقول: هذا مال مبارك. هذا بيت مبارك. هذه سيارة مباركة. هذه زوجة مباركة. هذا زوج مبارك. هذا لا حرج منه؛ لكن لا يجوز أن يقول كل منهما: تبارك زوجي، أو تبارك المال، أو تبارك البيت؛ هذا غلط؛ (تبارك) يختص بها الرب لا غير.

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾، ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾، ما معنى (تبارك) ؟ تعاظم.

والبركة في اللغة؟ الزيادة من الخير وكثرته، إذًا السلف يقولون، أو كثير من العلماء يقولون عن كلام السلف أنه فيه بركة، ما معنى ذلك ؟ قول السلف فيه بركة ؟

نعم، قلة في الألفاظ وكثرة في المعاني؛ الكلام القليل فيه المعنى الكبير والفائدة الكبيرة، هذا معنى (فيه بركة): يأمر بالخير إخلاصًا وصدقًا مع الله جل وعلا.

قوله:﴿الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾: الفرقان هو القرآن، لماذا سمي القرآن بالفرقان ؟ لأنه يفرق بين الحق والباطل.

ماذا قال النبي صلى الله عليه وسلم في حديث البخاري ؟

((**أنا فَرْقٌ بين هؤلاء وهؤلاء**))؛ بمعنى: أنا أفرق بين المسلمين وبين الكافرين، وأنا الفرقان بين هؤلاء وهؤلاء. وهذا الحديث في صحيح الإمام البخاري رحمه الله تعالى.

إذًا:﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾: والنزول يكون من أعلى إلى أسفل، فيه إثبات أن القرآن كلام الله، وأنه غير مخلوق.

﴿عَلَى عَبْدِهِ﴾: ناداه الله باسم العبودية، وقد خُيِّر النبي ﷺ بين أن يكون عبدا رسولا، وبين أن يكون ملكا رسولاً، فنظر إلى جبريل، ماذا قال له جبريل ؟

قال له جبريل: كن عبدا رسولاً.

فقال:((**عبدًا رسولاً**)).

يؤخذ من هذا الحديث فوائد؛ فقد رواه البخاري وغيره،

الفائدة الأولى ؟

أن مقام النبي أفضل من مقام الملك.

وأن النبي العبد الرسول أفضل من الملك الرسول؛ كسليمان.

وأن مشاورة الأخيار تؤدي إلى الحصول على الخير، ونحو ذلك.

قوله:﴿**لِيَكُونَ**﴾ ما هو الذي (يكون)؟ ليكون الفرقان؛ لأن الحديث عن القرآن؛ أي: ليكون القرآن ﴿**لِلْعَالَمِينَ**﴾ أي: من الإنس والجن، وكل ما سوى الله عالمٌ، ﴿**نَذِيرًا**﴾، قوله جل وعلا عن النبي: ﴿**إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا**﴾؛ إذًا، ليكون القرآن للعالمين نذيرًا؛ قال الله جل وعلا:﴿**وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ**﴾ أي: أن الله جل وعلا أمر بالإنذار به، والضمير يعود على القرآن.

وقوله جل وعلا:﴿**الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾: تقدم في الحديث: أن لله ملك السموات والأرض، تقديم السموات على الأرض؛ لأن السموات أعظم، ما الدليل على أن السموات أعظم من الأرض.

الله جل وعلا قال:﴿**لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ**﴾، نعم؛ وهذه ثبتت بلا عَمَدٍ؛ بخلاف الأرض ثبتت بالجبال: ﴿**وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا**﴾.

السبب الثاني ؟

أن فيها الملائكة، وفيها الرب؛ الرب جل وعلا فوق السموات، وقد استوى على عرشه.

وقيل أيضًا من المعاني أن الجنة في السموات؛ كما يقول الجمهور.

قوله جل وعلا: ﴿**وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا**﴾ تقدم،﴿**وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ**﴾ تقدم،﴿**وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ**﴾: فيه إثبات صفة الخلق لله جل وعلا.

﴿**فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا**﴾: أي: أحسن خلقه وأتمه وأتقنه؛ قال تعالى: ﴿**مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ**﴾، وقال تعالى:﴿**وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ * لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ**﴾.

وقوله جل وعلا: ﴿**مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ**﴾: نفى الله جل وعلا عن نفسه أن يتخذ – أو أن يكون قد اتخذ – ولدا، في سياق رده على اليهود والنصارى.

﴿**وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ**﴾، السبب: ﴿**إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ**﴾، ثم أيضًا: ﴿**وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ**﴾، كصنيع ملوك الدنيا، فنحمد الله جل وعلا، على ذلك.

ثم سبح الله نفسه عما يصفه به، أو: بخلاف ما يصفه به المعطلون؛ فقال: ﴿**سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ**﴾، من دعوى الإلهية مع الله؛ كقول المجوس: بأن للعالم خالقَيْن، كقول القدرية: خالق للخير وخالق للشر، وكقول الثانوية: خالق للنور، وخالق للظلمة؛ لذلك نزه الله جل وعلا نفسه وقال: ﴿**سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ**﴾: أي: من الباطل والضلال والانحراف.

﴿**عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ**﴾، ﴿**يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ**﴾،﴿**أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ**﴾.

﴿**عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ**﴾:لا يعلمها إلا هو.

قوله:﴿**فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾: عظم الله جل وعلا نفسه، ونزه عما يشركون؛ في ألوهيته، أو ربوبيته، أو في أسمائه وصفاته، فيه قبح الشرك.

الشرك قبيح،حتى في الفطرة، الفطرة تتجاوب أنه قبيح، علاجه ليس فقط مجرد النقل أنه قبيح، لا، حتى الفطرة، الفطرة تدل على قبح الشرك، كذلك العقل يدل على قبح الشرك، كمن يعبد حجرًا، ينادي غير الله، هذا قبيح بالفطرة؛ كما أن التوحيد حسن في الفطرة والعقول.

التوحيد: هو إفراد الله بالعبادة.

قوله: ﴿**فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ**﴾: نهي، يجزم الفعل المضارع بعد (لا) الناهية.

﴿**الْأَمْثَالَ**﴾: أتجعلون له ولدا، وقد خلقكم ورزقكم، أو تمحون عنه صفة، أو تعبدون معه غيره ؟!

هذا كله من ضرب الأمثال.

﴿**إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ**﴾: فيه إثبات صفة العلم لله جل وعلا:

هو العليم وأحاط علما بالذي في الكون من سر ومن إعلان
وفي كل شـــيء علمه ســبحانه هو العليم وليس ذا نســـيان

﴿**وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾: قيل: تعلمون العلم المطلق؛ لأن العلم عندكم نسبي، وقيل: أنتم تفعلون هذا، وأنتم لا تعلمون من تعصون، ولا تعلمون ما تفعلون من الجرائم، وقيل غير ذلك، وقيل: المعنى على وجه التهديد.

إن الله يعلم ماذا يحل بكم، وأنتم لا تعلمون ماذا ستلاقون من العذاب العظيم حين تصرون على ضرب الأمثال لله جل وعلا، يؤخذ من هذا إثبات الجزاء والحساب، وكذا إثبات العذاب الأخروي؛ إثبات الجنة والنار، قبح الشرك، وأن من لقي الله مشركا فإنه مخلد في النار؛ قال تعالى:﴿**إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ**﴾.

وقوله جل وعلا:﴿**قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ**﴾:﴿**قُلْ**﴾: يا محمد. ﴿**إِنَّمَا**﴾: أداة حصر تثبت الموجود وتنفي المفقود، وهي كافة عن العمل من حيث اللغة، أو من حيث النحو،﴿**حَرَّمَ**﴾: تحريم الشرع، التحريم نوعان.

﴿**حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ**﴾: قيل: ﴿**مَا ظَهَرَ**﴾: أي من الزنا. وقيل: ﴿**وَمَا بَطَنَ**﴾: أي مما تكنه صدوركم.

وقيل:﴿**مَا ظَهَرَ**﴾: الذي تعلنون،﴿**وَمَا بَطَنَ**﴾: الذي تستترون به. وقيل: ﴿**مَا ظَهَرَ**﴾: أي: من الفعل،﴿**وَمَا بَطَنَ**﴾: من القول،وقيل: ﴿**مَا ظَهَرَ**﴾: من الزنا. ﴿**وَمَا بَطَنَ**﴾: من فعل العادة السرية، وهذا أضعف الأقوال، وقيل غير ذلك في معنى ذلك.

﴿**وَالْإِثْمَ**﴾: أي: حرم الله الإثم؛ من شهادة الزور وقول الباطل، واللمس والقبلة ونحو ذلك، كما حرم الزنا.

﴿**إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا**﴾.

﴿**وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ**﴾: البغي: هو الاعتداء على حقوق الآخرين، والسطو على أعراضهم وبشراتهم ونحو ذلك، ولذلك قال الرسول ﷺ:((**ما من ذنب أجدر من أن يعجل الله لصاحبه بالعقوبة من البغي وقطيعة الرحم**)). مصرع البغي وخيم، شرع ما يعجل لصاحبه بالعقوبة، والبغي يتمثل بالقول أو بالفعل

أو بالرضا بالظلم، ونحو ذلك؛ هذا الاعتبار من البغي:

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدرا فالظلم آخره يأتيك بالندم
نامت عيونك والمظلوم منتبه يدعو عليك وعين الله لم تنم

الظلم مراتب؛ هناك ظلم الرجل لامرأته، وظلم الأب لابنه، أو ظلم الابن لأبيه، أو ظلم الرجل لزوجته، أو ظلم الزوجة لزوجها، ظلم الأخ لأخيه، والصديق لصديقه، سواء كان بالغيبة أو بالنميمة، أو بالاعتداء، أو بالتجسس، أو بأكل الأموال، أو بغير ذلك، هذا كله من أنواع الظلم؛ هناك الغيبة والنميمة ونحو ذلك.

قوله:﴿**وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا**﴾، قيل: المقصود بالسلطان هنا العلم. وفي الأمثال تقولون على الله ما لا تعلمون؛ لأن الله ما أمركم بذلك، أو ما نهاكم عن هذا؛ القرآن، كله من أوله إلى آخره يحث ويأمر بالتوحيد وينهى عن الشرك، ما في آية في القرآن لا تدل على التوحيد، ما في آية حتى الحرف (ق)؛ (ق) تدل على التوحيد؛ ما الذي أدخل التوحيد هنا؟

عدة معانٍ:

المعنى الأول: من الذي قال: (ق) ؟

هو الله؛ في الربوبية، وأيضًا الله تكلم ولا ما تكلم بـ(ق) ؛ إذا فيه إثبات الكلام لله جل وعلا؛ إثبات الأسماء والصفات؛ إذا الربوبية والألوهية والأسماء والصفات، إذا التوحيد لله، إذا فهو المستحق للعبادة.

قوله:﴿**وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾: جعل الله جل وعلا القول عليه بلا علم أعظم أنواع المحرمات،؛ والمعنى بهذا: الذي يقول على الله في أسمائه وصفاته بغير علم، أو يقول على الله في ذاته؛ كمن يقول بالتشريك أو بالتعدد أو بأن عزيرًا ابن الله، أو ينفي عن الله أسمائه وصفاته؛ هؤلاء يجنون أعظم المحرمات، ويفعلون أعظم الموبقات.

صفة الإستواء

وَقَوْلُهُ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]. **﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾** [الأعراف: ٥٤]. **في ستَّة مواضعَ في سورة الأعراف قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾** [الأعراف: ٥٤]. **وَقَالَ فِي سُورَةِ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾** [يونس:٣]. **وَقَالَ فِي سُورَةِ الرَّعْدِ: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾** [الرعد: ٢]. **وَقَالَ فِي سُورَةِ طَهَ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾** [طه: ٥]. **وَقَالَ فِي سُورَةِ الْفُرْقَانِ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ﴾** [الفرقان: ٥٩]. **وَقَالَ فِي سُورَةِ آلم السَّجْدَةِ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾** [السجدة: ٤]. **وَقَالَ فِي سُورَةِ الْحَدِيدِ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾** [الحديد:٤].

الشرح

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في حديثه عن علو الله على خلقه واستوائه على عرشه:(**والفرق بين العلو والاستواء أن العلو ثابت بالفطرة والعقل والنقل، والاستواء ثابتٌ بالنقل**) فطر الله جل وعلا عباده على علوه على خلقه، وأخبرهم في سبعة مواضع من الفرقان بأنه قد استوى على العرش، والاستواء لا يختلف فيه أهل السنة والجماعة، وهذا مما يتميزون به عن أهل البدع والضلال؛ كالجهمية والمعتزلة والأشاعرة والكرامية والماتردية، وغير هؤلاء من الذين لا يُثبتون استواء الله على عرشه، ويحرفون الاستواء بأنه بمعنى الاستيلاء. وهذا تنقص لله؛ بمعنى أنه ما استولى حتى خلق السموات والأرض، والله جل وعلا مستول على كل شيء قبل أن يخلق السموات والأرض، الاستواء غير الاستيلاء.

ولذلك لو كان الاستواء هو الاستيلاء لذكر الله ولو في موضع واحد:(ثم استولى على العرش) ليحمل المطلق على المقيد؛ القرآن كله فيه سبعة مواضع في ذكر الاستواء.

وأهل السنة يذكرون أربعة معانٍ للاستواء، نظمها الإمام ابن القيم رحمه اله تعالى في نونيته فقال:

فلهم عبارات عليها أربع ... قد حصلت للفارس الطعان
وهي استقر وقد علا وكذلك ... ارتفع الذي ما فيه من نكران
وكذاك صعد الذي هو رابع ... وأبو عبيدة صاحب الشيباني
يختار هذا القول في تفسيره ... أدرى من الجهمي بالقرآن

قوله:﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**﴾في سبعة مواضع: يعني بذلك الشيخ المعنى؛ ولا يقصد بذلك اللفظ؛ بدليل سرده الآيات بعد ذلك.

الله جل وعلا ذكر في محكم كتابه بأنه استوى على العرش في سبعة مواضع والألفاظ مختلفة، ورد في موضع واحد:﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**﴾ في سورة طه، وفي خمسة مواضع: ﴿**ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ**﴾،وفي موضع واحد﴿**ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا**﴾.

ومن فسر الاستواء بالاستيلاء أو بالسيطرة أو بالدلالة على علو الشرف أو علو القدر، فقد قال ما ليس له به علم، وحرف الكلم عن مواضعه.

وهذا باطل من وجوه:

الوجه الأول: أنه خلاف كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

الأمر الثاني: أنه خلاف ما تعرفه العرب من لغتها.

الأمر الثالث: أنه خلاف ما اتفق عليه الصحابة والتابعون والأئمة المتبوعون.

الأمر الرابع: أنه باطل شرعًا وعقلاً.

أما بطلانه شرعًا فإن تفسير الاستواء بمعنى الاستيلاء يوهم بأن الله جل وعلا ليس على كل شيء قدير، ويوهم بأن الاستيلاء بعد المغالبة، فيوهم أن لله شريكًا ومغالبًا، وكفى بقول يؤدي إلى وجود شريك مع الله قبحًا وضلالاً؛ لأن من قال: (الرحمن على العرش استولى) لا يكون الاستيلاء إلا بعد المغالبة،﴿**مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾.

وأما بطلانه عقلا فإن حروف استولى بقدر حروف ﴿استوى﴾ أو أقل؛ ف(استولى) أكثر حروفًا من ﴿استوى﴾، ولا يؤدي المعنى بأي وجه من الوجوه، لو كانت الحروف متماثلة، وجاءت اللغة بالمترادف لقيل هذا يعني به عادة أو يقصد به المترادف، ولكن الاستواء أقل حروفا من الاستيلاء؛ ففيه تغاير في الحروف وفي المعاني.

الأمر الثاني: أن الله ذكر في سبعة مواضع الاستواء، ولم يذكر غيره، فمحال عقلاً أن يكون المذكور غير المراد؛ لأنه حينئذ لا يكون القرآن تبيانًا لكل شيء، فإن الله حينئذ يخاطب العباد بما لا يتبادر إلى أذهانهم.

الأمر الثالث: أنه لو كان هذا هو المعنى لسارع إلى ذلك ولو واحد من أصحاب رسول الله ﷺ.

فالذي يشكل عليه الأمر ولا يفهم يحكم عقله لا غير، ويقول: لو كان الكلام كما تزعم الجهمية أو المعتزلة أو الأِشاعرة أو أهل البدع بأن المقصود بالاستواء هو الاستيلاء، فلماذا ما فسر واحد من الصحابة هذا المعنى بما يقولون ؟! فعلم من هذا أنهم مبطلون في ذلك.

وبكل أسف يذكر كثير من المفسرين على هذه الآيات السبع قول أهل البدع، ولا يشير إلى مذهب أهل السنة، فيوهم القارئ بأنه هو المعروف وهو المأثور وهو الصواب.

ولا يكاد يخلو تفسير من تفاسير القرون الوسطى والمتأخرين من ذلك، إلا من هدى الله جل وعلا، **وكان على الجادة** الحافظ ابن جرير في تفسيره، والإمام ابن أبي حاتم في تفسيره، والإمام ابن المنذر في تفسيره، والإمام عبد بن حميد في تفسيره، والإمام البغوي في تفسيره، والحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسيره، وجملة من تفاسير المتأخرين، كتفسير السعدي .

بينما ذهبت بعض التفاسير إلى أقاويل أهل البدع، فيفسرون الاستواء بمعنى الاستيلاء، من ذلك زاد المسير لابن الجوزي، ومن ذلك تفسير أبي السعود، ومن ذلك تفسير الزمخشري، ومن ذلك تفسير الفخر الرازي، ومن ذلك الكتاب المختصر الذي يتناوله كثير من الناس والمسمى بتفسير الجلالين، فإن هذا التفسير في باب الأسماء والصفات على مذهب الأِشاعرة، ولذلك لا ينصح المبتدئ بقراءته، مفروض أنه لا يوزع بالمساجد، حتى لا يتلقى المبتدئون عقيدة الأشاعرة؛ ثقة بمفسرين أو ظنًا منهم أنه لا يكاد يوزع في بلاد أهل السنة إلا ما كان على مذاهب أهل السنة، وفيه بدائل أقوى منه؛ كتفسير السعدي والتفسير الميسر ونحو ذلك؛ أقوى من تفسير الجلالين.

قوله جل وعلا في سورة الأعراف:﴿**إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ**﴾ فيه توحيد الربوبية، والرب هو المعبود، وقيل: الرب هو المربي لعباده. وقيل: الرب هو المربي لعباده، وقيل: الرب هو الخالق لكل شيء.

قوله:﴿**إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ**﴾: تقدم أن الأرض خلقت قبل السموات، وقدمت السموات على الأرض؛ لأن السموات أشرف، فإن قال قائل: لماذا جمعت السماء وأفردت الأرض؟ هل يعني هذا أن الأرض واحدة ؟

الجواب: أنه جاء ما يفيد بأن الأراضين كالسموات، قول الله جل وعلا:﴿**وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ**﴾.

هذه الآية صريحة في أن الله خلق سبع أراضين كما خلق سبع سموات، وبدليل قوله ﷺ:((من ظلم شبرا من الأرض طوقه يوم القيامة بسبع أراضين)). وهذا الخبر متفق على صحته.

إذاً القرآن يفسر بعضه بعضًا، وما لم يوجد تفسيره في القرآن يوجد تفسيره في السنة، فإن السنة

تفسر القرآن وتبينه وتدل عليه وترشد إليه.

قوله:﴿**فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ**﴾: أي من أيام الله. ذكر ذلك الإمام أحمد وغيره؛ لقول الله جل وعلا:﴿**وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ**﴾.

وقد ذكر غير واحد من الأئمة بأن الله جل وعلا خلق السموات والأرض في ستة أيام من أيامهن، وهو قادر على أن يخلقهما في طرفة عين، ولكن ليكون في ذلك بيان للعباد في البعد عن العجلة، وأن عمارة الكون لا تتأتى ما بين عشية وضحاها، يستفيدون من ذلك التأني في الأمور، وقيل غير ذلك.

هذا مجرد التماس لبعض العلماء، وليس بلازم أن يكون صوابًا.

الذي نؤمن به أن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام، لماذا ... الله أعلم بذلك؛ العلماء يلتمسون الحكمة، وقد ذكرت شيئًا من ذلك، وهل هذا صواب أم غلط؟ ... هو في الحقيقية لا حرج من التماس الحكمة ما لم تعارض نصا، أو تخالف دليلاً؛ ولكن نحن نؤمن بذلك سواء ظهرت لنا الحكمة أو لم تظهر لنا الحكمة.

قوله: ﴿**ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ**﴾: ﴿**ثُمَّ**﴾ تفيد التراخي، وتفيد العطف، بخلاف الواو؛ تقول:(قدم زيد وعمرو): لا يلزم أن يكون (زيد) قبل: (عمرو)؛ لكن حين تقول:(قدم زيد ثم عمرو)، تفيد أن قدوم زيد قبل عمرو، فحين قال الله جل وعلا:﴿**ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ**﴾: هذا يفيد أن الاستواء بعد الخلق، والأدلة الصريحة بأن خلق الأرض قبل خلق السماء؛ فحين خلق السماء استوى على العرش، إن قال قائل: قوله جل وعلا: ﴿**وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا**﴾، نقول: الدحي كان بعد خلق السماء والأرض؛ بخلاف خلق الأرض،خلق الله الأرض، ثم خلق السماء، ثم دحا الأرض بعد ذلك.

والعرش كرسي له قوائم تحمله الملائكة:﴿**وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ**﴾، قيل إن ثمانية يحملونه في الدنيا وفي الآخرة، وقيل: لا.

صفة العلو

وَقَوْلُهُ:﴿يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]. **﴿بَل رَّفَعَهُ اللّهُ إِلَيْهِ﴾** [النساء: ١٥٨]. **﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾** [فاطر: ١٠]. **﴿يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾** [غافر: ٣٦: ٣٧]. **وَقَوْلُهُ: ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾** [الملك: ١٦]. **﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾** [الملك: ١٧].

الشرح

هذه الآيات في إثبات علو الله على خلقه، وقد فطر الله عباده على ذلك، وتواترت الأدلة في هذا؛ فقد دل العقل والنقل والفطرة على إثبات علو الله على خلقه، ولم يخالف في هذا إلا من اجتالته الشياطين عن فطرته.

وحين استطرد ابن القيم – رحمه الله تعالى – في هذه المسألة في كتابه (اجتماع الجيوش الإسلامية في غزو المعطلة والجهمية) قضى في المسألة ألف دليل على إثبات علو الله على خلقه.

وقد قال الأوزاعي: كنا والتابعون متواترون نقول بأن الله فوق سماواته مستو على عرشه.

وقال الإمام الطلمانكي رحمه الله: أجمع العلماء على أن الله فوق سماوته مستو على عرشه على الحقيقة لا على المجاز.

وقد أورد شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى – في هذه العقيدة بعض الأدلة الدالة على هذه المسالة.

والعلو ثلاث مراتب:

النوع الأول: علو الذات؛ والنزاع بين أهل السنة وأهل البدع هو في هذا النوع.

النوع الثاني: علو القدر.

والنوع الثالث: علو الشرف.

ولله جل وعلا كل أنواع العلو؛ قال تعالى: **﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾**، وقال تعالى: **﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ**

﴿وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾، وقد فسر النبي ﷺ هذه الآية في دعائه:((**اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء**))، والخبر رواه الإمام مسلم رحمه الله في صحيحه، وحين أراد النبي ﷺ أن يعتق الجارية دعا بها، فقال لها: «**أين الله؟**)) قالت: في السماء. قال: ((**من أنا؟**)) قالت: أنت رسول الله. قال ﷺ:((**أعتقها فإنها مؤمنة**)). والخبر في مسلم عن معاذ بن حكم السلمي. وحين خطب النبي ﷺ الناس في عرفات في أعظم مجمع التقى به الرسول ﷺ بالناس، كان يقول حينما خطبهم: ((**اللهم اشهد**))، يرفع إصبعه إلى السماء وينكثها، ويقول: ((**اللهم اشهد، اللهم اشهد، اللهم اشهد**)). إشارة على علو الله على خلقه.

وقد اتفق أهل السنة على أن من أنكر علو الله على خلقه بأنه جهمي، وأهل السنة يكفرون الجهمية بنوعهم لا بعينهم؛ إلا من قامت عليه الحجة وانتفت عنه الشبهة، وقد أشار إلى هذا المعنى ابن القيم، وأن خمسمائة من علماء أهل السنة متفقون على ذلك، وقال:

واللالكائي الإمام حكاه عنـ ـهم بل حكاه قبله الطبراني

قلت بالأمس: إن الفرق بين العلو والاستواء أن العلو معلوم بالفطرة والنقل، والاستواء معلوم بالنقل.

قوله جل وعلا:**﴿يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾**، أولاً: فيه إثبات صفة الكلام لله جل وعلا؛ فالله جل وعلا يتكلم متى شاء إذا شاء ، وصفة الكلام صفة أزلية؛ يتكلم متى شاء إذا شاء؛ قال الله جل وعلا:**﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾**

وعيسى آخر أنبياء بني إسرائيل؛ يتصور كثير من الناس أن عيسى أرسل إلى النصارى، وهذا غلط؛ الأصل في إرسال عيسى أنه كان إلى اليهود، ولم يكن هناك ما يسمى نصارى؛ ولكن حين كفرت به اليهود ،وتبعته طائفة سموا نصارى؛ فمنذ ذلك الوقت جاء اسم النصارى؛**﴿قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾** فكان من ذلك النصارى؛ إذاً اليهود مأخوذون من الرجوع؛ من قولهم: **﴿هُدْنَا﴾** أي: رجعنا، والنصارى مأخوذون من النصرة؛ فمن يدعي النصرانية في هذا العصر وهم لا يتبعون عيسى هؤلاء كذبة، وأيضًا الآن الحكومات الموجودة الغربية التي تنتسب إلى النصرانية هي علمانية؛ ولذلك يعزلون واقع الدين عن واقع الحكم والسياسة؛ فهم في الحقيقة لا يؤمنون بأحد من أنبياء الله جل وعلا، ولكنهم يستخدمون النصرانية لحاجتهم ولا يخدمون النصرانية ككثير من المنتسبين إلى الإسلام؛ يستخدم الإسلام ولا يقيم الإسلام ،ولذلك الآن ما هناك حكومة غربية دينية ؛ كل الحكومات الغربية الآن إما علمانية أو غير ذلك؛ فلذلك هؤلاء لا ينتسبون لدينٍ أصلا، وليس معنى هذا إلغاء أحكام اليهودية

وأحكام النصرانية؛ كلا؛ لأن الله حين ذكر الأحكام كان معلوماً من ذلك أنه سوف يوجَد منهم من تكون فيه الأحكام ماثلة.

قوله:﴿**إِنِّي مُتَوَفِّيكَ**﴾ تطلق الوفاة في القرآن على معنيين:

– المعنى الأول: مفارقة الحياة؛ مثال قول الله – جل وعلا:﴿**لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى**﴾، ﴿**يُحْيِي وَيُمِيتُ**﴾؛ المقصـــود من ذلك: الوفاة التي هي مفارقة الحياة؛ ﴿**وَيُمِيتُ**﴾: يجعلهم يفارقون الحياة.

– تطلق الوفاة على النوم؛ قال الله – جل وعلا:﴿**وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ**﴾؛ الوفاة في هذا الموطن وفاة نوم؛ فقوله لعيسى:﴿**إِنِّي مُتَوَفِّيكَ**﴾ :لم يمت عيسى؛ وإنما أرسل الله إليه النوم ورفعه إليه؛ ففيها الرَّدُّ على النصـــارى الذين يزعمون أو يَدَّعون التثليث، وردٌّ على الذين يَدَّعون أيضاً قتله؛﴿**وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ**﴾، وفي آية أخرى: ﴿**بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ**﴾.

قوله: ﴿**وَرَافِعُكَ إِلَيَّ**﴾: هذا رَدٌّ على اليهود وردٌّ على النصارى وردٌّ على الجهمية الذين ينكرون علو الله على خلقه؛﴿**وَرَافِعُكَ**﴾: إشارة إلى العلو، وهذا أمرٌ تتجاوب معه الفِطَرُ؛ فإنَّ الناسُ مفطورون على رفع رؤوسهم إلى السماء.

وقوله جل وعلا:﴿**بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ**﴾ ﴿**رَفَعَهُ**﴾ الضـمير يعود إلى عيسـى؛ ولذلك لا يختلف أهل السـنة أن عيسـى بن مريم سـوف ينزل في آخر الزمان، وتواترت الأدلة عن النبي ﷺ أنه قال:((**والذي نفسي محمدٍ بيده، لينزلن فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً، فيضع الجزية، ويقتل الخنزير، ويكسر الصليب**)) وهذا متواترٌ عن النبي ﷺ.

وحين ينزل عيسى بن مريم – عليه وعلى نبينا أفضل الصلوات والتسليم – يحكم بشريعة محمدٍ ﷺ، ولا يَؤُمُّ المسلمين؛ بل يُصلي مأموماً خلف إمامٍ من أئمة المسلمين؛ كما جاء في البخاري، ((وإمامهم منهم ، فإذا قال له قائلٌ: تقدم، يقول: لا)).

غلاةُ الأحناف يقولون: إذا نزل عيسى سوف يكون حنفياً، وهذا مذكور في مقدِّمة حاشية ابن عابدين – رحمه الله، وطوائف يقولون: إذا نزل سوف يكون شافعياً. وعيسى لا شافعيّ ولا حنبلي ولا مالكي ولا حنفي؛ يحكم بالحق، يحكم بشريعة محمدٍ ﷺ.

الحقيقة أن ألفاظ المتعصبين و حكايات المتعصبين تدل على قلة العقل ونقص الفكر وضعف النضوج أيضاً، وإنْ كان سوف يكون إماماً عالماً، لكن هذا دليل على نقص عقله حين يتعصب، سبحان الله، من عنده زيادة تعصب وعنده زيادة إيمان يضعه في الكتاب والسنة، ولو أنَّ الناس يتعصبون للكتاب والسنة لانتصر الحق.

حتى قال قائلهم من الجفاة: لعنة ربنا عداد رملٍ على من ردَّ قول أبي حنيفة.

وهذا إمام الحرمين يقول حول وجوب اتباع مذهب الشافعي؛ الإمام الطالبي "والقرشي يجب اتباعه؛ لقول النبي ﷺ:((**قَدِّموا قريشاً ولا تَقَّدموها**))". مع أن هذا الحديث ضعيف، وهو في الخلافة، وليس في مسائل العلم والدين، وما كان الصحابة يتبعون عليّاً ويتركون غيره، ولا كان أئمة الهدى يتبعون ذوي النسب ويتركون غيرهم؛ هذا أمرٌ ليس له أصلٌ.

يجب اتباع الكتاب والسُّنَّة، وعيسى حين ينزل ينزل يحكم بالكتاب والسنة؛ لا يتجاوز ذلك، للدارمي ،وجاء أيضاً في صحيح مسلم: قال ﷺ:((**والذي نفسي بيده ليهلن ابن مريم بفجِ الرَّوْحاء حاجّاً أو مُعتمراً ،أو ليثنينَّهما**))؛ لم يكن في شريعة عيسى ولا موسى الإفراد والتمتع والقران؛ فدلَّ هذا على أنه يسير على شريعة محمد ﷺ؛ ولذلك قال ﷺ في حجِ عيسى حين يحجّ((..**حاجّاً أو معتمراً أو ليثنينهما**))، وفيه دلالة على جواز الإفراد والتمتع والقران.

لم يكن بين نبيِّنا محمدٍ ﷺ وبين عيسى نبيٌّ، وأيضاً جاء في الصحيحين:((**ليس بيني وبين عيسى نبيٌّ**))؛ على خلاف بين العلماء – رحمهم الله تعالى – في تحديد الفترة الزمنية التي كانت بين عيسى ومحمدٍ ﷺ؛ قيل ستمائة عام وقيل غير ذلك؛ ولكن الثابت ليس بين عيسى وبين محمدٍ ﷺ نبيٌّ.

ولايختلف العلماء أنَّ الإيمان والتصديق بكل الرسل الذي جاؤوا في القرآن، والذين جاؤوا على لسان الرسول ﷺ من شروط وفروض الإسلام؛ ولكن الاتباع لا يكون إلا لمحمد ﷺ؛ لأن شريعته ناسخة ومهيمنة على كل الشرائع ؛ قال ﷺ -والخبر في مسلم: ((**لا يسمع بي أحد من هذه الأمة؛لا يهودي ولا نصراني ثم لم يؤمن بما أُرسلت به إلا كان من أصحاب النار**))، لذلك حين ينزل عيسى لا يقبل من اليهود ولا النصارى إلا الإسلام؛ لا يقبل منهم لا جزية ولا غيرها؛ لا يقبل منهم إلا الإسلام، ومن لم يقبل بالإسلام وضع عليه السيف.

وقوله – جل وعلا:﴿**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ**﴾ قوله ﴿**إِلَيْهِ**﴾: أي إلى الربِّ – جل وعلا – ﴿**يَصْعَدُ**﴾ الصعود لا يكون إلا من أسفل إلى أعلى؛ ففيه إثبات العلو لله – جل وعلا.

قوله:﴿**الْكَلِمُ الطَّيِّبُ**﴾ الله – جل وعلا – طيب، ولا يقبل إلا طيباً؛ لذلك قال:﴿**وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ**﴾ الخبيث المقصود به هنا الرديء؛ فالله – جل وعلا – يقبل الكلم الطيب، ﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ**﴾ أرسله بالعلم والعمل، والعمل لا يُقبل إلا بشرطين:

- **الشرط الأول**: الإخلاص.

- **الشرط الثاني**: المتابعة للنبي ﷺ؛ قال تعالى:﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**﴾؛ وهذا معنى شهادة أن لا إله إلا الله، وقال ﷺ:((**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**)). وهذا معنى شهادة أن محمداً رسول الله.

قوله: ﴿**وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ**﴾في ذلك تفسيران للعلماء:

- قيل: والعمل الصالح يرفعه: أي يرفع الكلم الطيب.

– وقيل: والعمل الصالح يرفعه: أي يرفعه الله إليه؛ فقوله: والعمل الصالح: قُيِّد العمل بالصالح؛ فليس كل من عمل عملاً قُبل منه؛ لابد أن يكون العملُ صالحاً.

وقوله – جل وعلا– ﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾ أي على السماء؛ ﴿فِي﴾ هنا بمعنى على، ﴿أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ﴾ أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور؛ هناك فوائد:

– **الفائدة الأولى**: تُفيد توحيد الربوبية، وأيضا تفيد الألوهية؛ لأنه إذا كنتم تخافون الله إذاً فتطيعونه.

– **الفائدة الثالثة**: فيه إثبات علو الله على خلقه، وتوحيد الأسماء والصفات.

– **الفائدة الرابعة**: في أنَّ من عصى الله – جل وعلا – يوشك أن يخسف به الأرض؛ كما في الرجل المتكبر: الأرض تتجلجل به إلى يوم القيامة.

﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ أي تضطرب.

﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾ الأمن ضد الخوف أي على السماء في إثبات علو الله على خلقه.

السماء يُطلق في اللغة على كل ما علا؛ فكلُّ ما علا يُسمَّى سماءً؛ المقصود في هذه الآيات: ﴿من في السماء﴾ أي ﴿على السماء﴾؛ فوق سماواته مستوٍ على عرشه.

قوله:﴿يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ أي:حجارة من السماء.

﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ أي:حين تستيقنون هذا النذير، حين تعصون الله – جل وعلا – تخالفون أمره وترتكبون نهيه.

صفة المعية

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤]. وَقَوْلُهُ:﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة:٧].﴿لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، وَقَوْلُهُ:﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦]. ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].﴿وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]. ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

الشرح

(لما تحدث شيخ الإسلام) عن استواء الله –جل وعلا– على عرشه وعلوه على خلقه شرع يتحدث عن معية الله –جل وعلا–، وأن المعية لا تنافي علوه، فهذا في غاية المناسبة وفي دقة الفهم، وإن طوائف من أهل الضلال يعتقدون تماثلاً ، أو يعتقدون اتحاداً أو امتزاجا ، ويعتقدون أن علوه ينافي معيته، وهذا غير صحيح، فقد دل الكتاب والسنة والعقل والنظر على بطلان هذا القول، وأن علو الله –جل وعلا– على خلقه لا ينافي معيته لخلقه وأن المعية لا تعني اختلاطاً ولا امتزاجاً، فإن الله –جل وعلا– بائن من خلقه، فهو فوق سماواته مستوٍ على عرشه.

وقوله –جل وعلا–:﴿**وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ**﴾ أي معبود، ولقوله –جل وعلا–: ﴿**أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ**﴾ ولقوله –جل وعلا–:﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**﴾، ولقوله ﷺ: ((**ينزل ربنا إلى السماء الدنيا**)) وغير ذلك من الأدلة الصحيحة في هذا الباب.

تقدم في الدرس الماضي قول الأوزاعي:(كنا والتابعون متواترون نقول بأن الله فوق سماواته مستوٍ على عرشه)، وهذا لا يختلف فيه أهل السنة، دل عليه النقل والعقل، فقد فطر الله عباده على ذلك،

والأدلة الواردة في الكتاب:﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾، ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾، وغير ذلك، وسيأتي الحديث عن ذلك مفصلاً.

والمعية على أحد وجهين:

النوع الأول: معية عامة، دلت عليها أدلة أخرى،

النوع الثاني: معية خاصة تقتضي نصراً وحفظاً وتأييداً، ولا أحد يفهم كتاب الله أعظم من فهم رسول الله ﷺ ومن فهم الصحابة ﷺ، ولم يقل أحد منهم بأن المعية تقتضي اختلاطاً أو امتزاجاً أو اتحاداً أو غير ذلك.

وقوله -جل وعلا-:﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ ﴿هو﴾ أي الله -جل وعلا-، ﴿خلق﴾ في إثبات صفة الخلق لله -جل وعلا-،﴿السماوات﴾ قدمت على الأرض وهي المتأخرة في الخلق لأن السماوات أشرف من الأرض، ويؤخذ من ذلك أنه لا يلزم من التقديم أن يكون أسبقياً في الخلق، بخلاف قوله الله -جل وعلا-:﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ قدم الجن مع أنهم ليسوا بأشرف من الإنس، لماذا؟ لأنهم خلقوا أولاً فقدموا، هنا قدمت السماوات لأنها أشرف وليست بأسبق في الخلق.

قوله ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي من أيام الله -جل وعلا-.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾.

قوله:﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ ثم تفيد الترتيب والتعقيب وهذا يعني أن استواءه جاء بعد خلق السماوات والأرض، خلق الله الأرض ثم استوى إلى السماء، ثم بعد ذلك دحا الأرض،فكان دحي الأرض عقب خلق السماء ؛لأن الله خلق الأرض أولاً، ولذلك قال الله ﷻ:﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ ولم يقل خلقها، لأن الخلق كان متقدماً على خلق السماوات.

قوله:﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ تقدم الحديث عن ذلك، وأهل السنة متفقون على إثبات الاستواء، في إثبات العلو وإثبات الاستواء، وأهل السنة لهم أربعة معانٍ في الاستواء نظمها ابن القيم في النونية فقال:

ثلاث عبارات عليها أربع ... قد فصلت للفارس الطعّان
وهي استقر وقد علا وكذلك ... ارتفع الذي ما فيه نكران
وكذاك صعد الذي هو رابع ... وأبو عبيدة صاحب السودان
يختار هذا القول في تفسيره ... أدرى من الجهمي بالقرآن

تقدم أن العرش سرير له قوائم،﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ بخلاف الكرسي؛ قال ابن عباس: (**الكرسي موضع القدمين**)، رواه الدارمي وغيره من سند صحيح، في الرد على الجهمية.

قوله ﴿**يعلم**﴾ فيه إثبات صفة العلم لله -جل وعلا- وهذا يبعث على البعد عن معصية الله وعن الاستتار عن المخلوق؛ لأنه بقدر ما يستتر عن المخلوق الله -جل وعلا- مطلع عليه،﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

وهو العليم أحاط علماً بالذي ... في الكون من سر ومن إعلان
وبكل شيء علمه سبحانه ... فهو العليم وليس ذا نسيان

قال تعالى:﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ .

وأهل السنة متفقون في أن الله يعلم الجزئيات كما يعلم الكليات، يعلم ما ظهر وما بطن، ويعلم ما تسرون وما تعلنون.

قال تعالى:﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾.

تقول عائشة: (الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، قد جاءت المجادلة إلى رسول الله ﷺ تشكو زوجها وأنا قريبة منها فلا أسمعها، فسمع الله شكواها من فوق سماوات وأنزل﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ إلى آخر الآيات.

قوله: ﴿مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي في بطن الأرض سواء من الدواب والحيوانات والمخلوقات في باطن البحر، أو المخلوقات باطن الأرض من الفواكه والخضـــار ونحو ذلك، مهما كان حجمه ومهما كان قدره ،فإن الله يعلمه.

وقوله:﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من الحبوب والثمار والدوار وغير ذلك، هذا غير خافٍ على الله؛ فإن الله يعلمه، ويعلم مستقرها ومستودعها.

قوله:﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾أي من المطر، ومن الملائكة،﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ أي يعرج إلى السماء من الملائكة.

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ حكى ابن عبد البر وغيره اتفاق أهل الســـنة بأنه (بعلمه)، وليس هذا من التأويل المذموم كما يدعي الأشاعرة، فهم يقولون أنتم تذمون التأويل ،وهذه الآية تفسرونها بالعلم.

وإننا نقول إن التأويل المذموم ما كان بالهوى ، أو كان على خلاف فهم الصحابة، أو كان على خلاف مقتضى وسياق الآية، أما ما دلت عليه الآية كما في قوله تعالى ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى﴾لأن الله قال ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ﴾.

يقول الإمام أحمد (افتتحها بالعلم وختمها بالعلم) ومع هذا قال بعض أهل السنة ﴿وهو معكم﴾ تجري على ظاهرها بشـرط ألا يعتقد مماثلة ولا ممازجة ولا اتحاداً؛ يعني من قال من أهل السـنة كما قال ابن تيمية- ويأتي إن شاء الله في الحقيقة- ذو حق على حقيقته، بشرط ألا تعتقد اتحاداً ولا امتزاجاً ولا اختلاطاً؛ نقول : إن هذا هو قول أهل السنة ، لكن بشرط ألا يتصور الإنسان هذا التصور؛ لأن من تصـوره كان منحرفاً ضـالاً زائغاً ملحداً وبالتالي أهل الســنة يقولون ذلك لتفادي بعض ما قد يتصـوره العامة في هذا الباب.

قوله:﴿أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ أي في بر أو بحر، في ليل أو في نهار، وفي أي مكان كنتم،﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ قال تعالى:﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ويؤخذ من ذلك إثبات صفة الرؤية لله —جل وعلا، إثبات

صفة العلم، إثبات صفة العلو، إثبات صفة الاستواء، إثبات إحاطة الله بكل شيء.

وقد ذكرت هذه الآية لإثبات صــفة المعية، والمعية نوعان؛ معية عامة وهذه لا يختص بها المؤمنون دون غيرهم، معية عامة للمؤمنين والكافرين، وذلك أن الله -جل وعلا- معهم لا يغيبون عنه؛ معهم بعلمه ،وعلى مرأى منه، لأن الله قال:﴿**وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾.

النوع الثاني: معية خاصــة؛ معية للمؤمنين تقتضـي حفظاً ونصـراً وتأييداً، فقول الله -جل وعلا- ﴿**لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا**﴾ أي بنصره وتأييده وحفظه، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك.

وقوله -جل وعلا-:﴿**مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ**﴾ افتتح الله هذه الآية بالعلم ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ**﴾ في إثبات صفة العلم لله -جل وعلا.

وقول الله -جل وعلا- ﴿**مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ**﴾: لا يصـــح في لغة العرب أن تقول ثلاثة زيد خامسهم، لماذا؟ إلا أن يكون ذلك لله -جل وعلا: إلا هو رابعهم، لكن تقول سادس ستة، سابع سبعة، ثامن ثمانية، أما قوله -جل وعلا-:﴿**وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ**﴾ فلأنه ليس من جنسهم، فهم يعبرون بما ليس من جنســهم، ﴿**مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ**﴾ الثاني غير الأول، فإذا أردت أن تقول ذلك ،فلابد أن يكون الثاني غير الأول؛ تقول ثلاثة زيد رابعهم، هذا يعني أن زيد ليس منهم، وهذا غلط في لغة العرب، فلا تقول هذا إلا إذا كان الثاني من غير جنس الأول.

قوله:﴿**وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ**﴾لأنه ليس من جنسهم،﴿**وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ**﴾، فيه إثبات صفة العلم لله -جل وعلا- لأن الله -جل وعلا- قال:﴿**إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ افتتحها بالعلم وختمها بالعلم، وقد فسَّــر الإمام أحمد وابن عبد البر وغيرهما المعية في هذه الآية بأنها معية علمية،

قوله:﴿**ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾ فيه إثبات صفة العلم ، فيه إثبات صفة الإحاطة ،وفيه إثبات صفة الرؤية ،وفيه إثبات البعث وفيه إثبات الحساب، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فيه إثبات

عظمة الله -جل وعلا-، وفيه إثبات القدرة لله -جل وعلا.

وفي بيان حقيقة المعية، يتردد أن أهل السنة لهم في المعية قولان؛ منهم من فسر المعية بالعلم، ومنهم من قال تجري على ظاهرها وهي حق على حقيقته، بشرط ألا تقتضي أو ألا يُتوهم اتحاد أو امتزاج أو اختلاط، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، ولذلك لا يصح القول بأن المعية ذاتية مهما كان صاحبها يقصد من معنى، وإن قال: أنا أقصد بالمعية الذاتية التي لا تقتضي امتزاجاً ولا اختلاطاً - لسببين:

السبب الأول: أن هذا اللفظ يوهم هذا المعنى .

السبب الثاني: أن هذا اللفظ لم يرد لا في الكتاب -أي في هذا الموطن طبعاً- ولا في السنة، ولا في قول صاحب، ولا قال ذلك أحد من العلماء.

قول ابن تيمية:(حق على حقيقته) لا يعني أنه يوجب الذاتية، إنما يعني أن اللفظ يجري على ظاهره دون تفسير للذات؛ لأنه لم يرد، إن قا ل قائل :فإذا لم يرد الذات؛ مثلاً يفسرون المعية بالعلم نقول بأن الله -جل وعلا- افتتح الآية بالعلم، وختمها بالعلم فالحديث عن العلم، هذا **السبب الأول**.

السبب الثاني: السلف هم الذين يفسرون هذا واتفقوا على هذا المعنى ،وحكاه غير واحدٍ من العلماء إجماعاً.

قوله -جل وعلا-:﴿**لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا**﴾ قوله ﴿**لا تحزن**﴾ من الذي قال ذلك؟ قاله الله -جل وعلا- عن النبي ﷺ يقوله لأبي بكر، ما هو الحزن؟ الحزن يطلق على معان، والحزن المذموم هو الذي يؤدي إلى تفويت محبوب أو ارتكاب محظور، أما ولع القلب أو الهم الذي ينتابه فهذا لا يضر مادام لا يترتب عليه شيء من ذلك، قال النبي ﷺ:((**العين تدمع والقلب يحزن**)) وصف نفسه بالحزن، النبي ﷺ وصف نفسه بالحزن،وهذا لا يضر مادام لا يؤدي إلى تفويت محبوب أو ارتكاب محظور.

قوله:﴿**إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا**﴾ قال ﷺ:((**ما ظنك باثنين الله ثالثهما**)) أي:بالنصرة والتأييد، أخذ أهل العلم

من هذه الآية إثبات الصحبة لأبي بكر، وأن من قال عن أبي بكر أنه ليس بصحابي أو سبه فهو مرتد على الدين، والسبب عند العلماء أنه أنكر القرآن.

من المقصود من الآية ﴿**لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا**﴾الآية والأحاديث مفسرة بأنه هو أبو بكر، فمن قال غير ذلك فقد كذب بكلام الله -جل وعلا.

﴿**إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا**﴾ أي بنصره وحفظه وتأييده ﴿**إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ**﴾ ويؤخذ من ذلك إثبات قدرة الله -جل وعلا.

قول الله -جل وعلا- ﴿**إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى**﴾ فيه إثبات صفة السمع والرؤية، وفيه إثبات المعية حين قال الله -جل وعلا- ﴿**إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى**﴾أسمع كلامكما وأرى حالكما، إذ﴿**إنني معكما**﴾ أي بالنصر والتأييد، لأن الله أمره أن يذهب إلى فرعون، فيقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى، فقد أمرهما الله -جل وعلا- أن يذهبا إليه وقال:﴿**لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا**﴾ إذاً من كان الله معه فلا يقدر عليه أحد، ولو اجتمع من في الأرض جميعاً، فيه ضرورة التعلق بالله -جل وعلا-، وحين ألقى إبراهيم في النار، ماذا قال؟ حسبنا الله ونعم الوكيل، لم يلجأ إلى مخلوق، **والأثر المشهور على ألسنة الكثير بأن جبريل اعترض على إبراهيم -عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم- في الهواء ، فقال: ألك حاجة، قال أما إليك فلا- هذا أثر ليس له أصل، هذا أثر موضوع**،والصوفية يحتجون بهذا على ترك الأسباب وهذا ليس له أصل، إبراهيم حين ألقي في النار كما جاء في البخاري من رواية ابن عباس ماذا قال؟ حسبنا الله ونعم الوكيل.

وحين قيل للنبي ﷺ إن الناس قد جمعوا لك، ماذا قال؟ حسبنا الله ونعم الوكيل،﴿**الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**﴾.

إذا انقطعت أطماع عبد عن تعلق بالرب الكريم رجاؤه
فأصبح حراً عزةً وقناعةً على وجهه أنواره وضياؤه

وإن علقت بالخلق أطماع نفسه فباعد ما يرجو وطال عناؤه
فلا ترج إلا الله في الخطب ولو صح في فن الصفاء صفاؤه

فقوله -جل وعلا- ﴿**إِنَّنِي مَعَكُمَا**﴾ أي بالنصر والتأييد والحفظ، وأنهما على مرأى ومسمع من الله -جل وعلا-، ففي الآية إثبات الأسماء والصفات، و إثبات القدرة، وإثبات الرؤية، و إثبات السمع، و إثبات المعية ،وفيها ضرورة تبليغ هذا الدين، وفيها الحكمة من بعثة الرسل، وهي أن يبلغوا رسالات الله ﴿**الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا**﴾.

وقوله -جل وعلا-:﴿**إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ**﴾ يؤخذ من هذه الآية إثبات صفة الربوبية، وإثبات توحيد الإلهية، وإثبات توحيد الأسماء والصفات.

من أين فهمنا توحيد الربوبية؟

من قوله ﴿**إن الله**﴾ هذا فيه توحيد الربوبية، توحيد الربوبية يقتضي الإقرار بوجود الله لا إله غيره ، هذا توحيد الربوبية.

﴿مع الذين اتقوا﴾ فيه الألوهية، ما معنى ذلك؟ أنهم يفردون الله بأفعالهم لا يعبدون معه غيره بمعنى يوحدون الله -جل وعلا-،﴿**وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا**﴾ أين إثبات الأسماء والصفات؟

في قوله -جل وعلا- ﴿**إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا**﴾ مع الذين اتقوا بالحفظ و النصر والتأييد، ولذلك قال الله -جل وعلا- في الحديث القدسي الذي رواه البخاري: «**من عادى لي ولياً**» يسمى هذا بحديث الولي ، رواه البخاري من طريق من؟

من طريق **مُحَمَّدُ بْنُ عُثْمَانَ بْنِ كَرَامَةَ حَدَّثَنَا خَالِدُ بْنُ مَخْلَدٍ حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ بِلَالٍ حَدَّثَنِي شَرِيكُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي نَمِرٍ عَنْ عَطَاءٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :إن** الله -جل وعلا-قال:((**من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب**)).

ما معنى الحرب هنا؟

معنى إعلان الحرب أي أن الله -جل وعلا- يفتك به ويبطش به مثلما قال الأخ، إذن نأخذ من هذا أن من عادى أولياء الله فقد آذن الله بالمحاربة، ومن نشر الفساد في الأرض فقد آذن الله بالمحاربة، لأن الله قال عن أكلة الربا:﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ* فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ**﴾.

﴿**إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا**﴾، التقوى فعل المأمور واجتناب المحظور، وقيل التقوى ألا ترى نفسك خيراً من أحد، وقيل: التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخشى عقاب الله، لأن الإنسان قد يترك المعصية وهو لا يخشى عقاب الله؛ لأن نفسه تعاف ذلك، وقد يؤدي الطاعة ولا يرجو ثواب الله فلا يؤجر على ذلك.

﴿**وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ**﴾ إذاً المعية لا تكون إلا للذين يتقون والذين هم محسنون، فخرج عن المعية الذين يفسدون ولا يصلحون، الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

ولكن هل يراد في هذا الموضع الإحسان بهذا المعنى؟ الصواب لا لأنه في هذا الموضع لا يراد هذا المعنى ،وإنما يراد بهذا المعنى الإحسان العام، بمعنى الإحسان إلى الآدميين بمعنى نفعهم، والإحسان إلى البهائم، إن الله قد كتب الإحسان على كل شيء، وقال ﷺ:((**إذا قتلتم فأحسنوا القتلة**)) وبمعنى الإحسان، الإصابة في العمل بمعنى الإخلاص وبمعنى متابعة النبي ﷺ في سيرته وهديه.

وقوله -جل وعلا-:﴿**وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ أمر الله -جل وعلا- بالصبر الذي هو حبس النفس عن الجزع،الصبر الذي أمر الله به **على ثلاث مراتب**،ما هي؟

الصبر على المعصية؛ أنه يصبر على أنه ما يغتاب أحداً؛ يصبر على أنه ما يفعل حراماً، على أنه ما يرتكب ذنباً.

الثاني: الصبر على الطاعة، فهو حين يؤدي العبادة سواء كانت واجبة أو مستحبة تحتاج إلى صبر، وإلا سرعان ما ينقطع عن أداء هذه العبادة، لو عنده صبر ممكن يسبح في اليوم ألف تسبيحة، آخر ما عنده صبر يسبح عشراً، استكثر هذا، وأدلى بنعمته على ربه، وأنه وتد من أوتاد الدين، إذا سقط سقط الدين كله، لأنه سبح لله عشر تسبيحات.

النوع الثالث: الصبر على أقدار الله؛ بمعنى أنه إذا أصابته مصيبة يصبر، الله -جل وعلا- يقول: ﴿**وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ**﴾.

قال علقمة: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم، الله -جل وعلا- يقول:﴿**وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ ولذلك قال ﴿**الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ**﴾ إلى أن قال: ﴿**وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ**﴾،﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ هذا لا يتأتى إلا مع الصبر.

ولذلك الصبر، منزلته من الإيمان كمنزلة الرأس من الجسد؛ إذا قطع الرأس فلا حياة؛ ولذلك قال الرسول ﷺ:((**ما أعطي أحد عطاءً خيراً ولا أوسع من الصبر**)) الحديث في الصحيحين، وقال ﷺ والحديث لمسلم:((**والصبر ضياء**)) .

﴿**إن الله مع الصابرين**﴾ أي: معهم بحفظه ونصره وتأييده وستره وغير ذلك، هذه المعية خاصة بالصابرين، ولذلك قال الرسول ﷺ يوضح هذا المعنى: ((**من يتصبر يصبره الله**)).

وقوله -جل وعلا-:﴿**كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ غلبة الكثرة لا تكون إلا بالإيمان ونصر الله وتأييده والصبر ﴿**كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ**﴾ لأن الإسلام لا ينتصر لا بعدده ولا بعتاده، ينتصر بالحق الذي هو موجود في قلوب أهله، وحين يتخلف هذا الحق عن قلوبهم يهزمون، الصحابة على علو قدرهم ومنزلتهم حين أعجبوا بكثرتهم يوم حنين غلبوا ﴿**وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ**

عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ الماديون الآن والسطحيون يعتقدون أن الإسلام لا ينتصر الآن في حروبه مع الصليبين لقلة عددهم وعتادهم، والحقيقة لا نخشى القلة لا في العدد ولا في العدة بقدر ما نخشى ضعف الإيمان وضعف التوحيد في القلوب، إذا وجد هذا فلو كان ثمَّ رجل واحد لانتصر، هذا وعد من الله –جل وعلا–.

قال ﷺ في صحيح مسلم:((**ولا تزال عصابة**)) لا تتصور أن دعوة طلبة العلم للجهاد ونصرة المجاهدين– أن هذا يضرهم، لا، لا يضرون إلا أنفسهم، نص كلام النبي ﷺ وهذا من البشائر:((**ولا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على الحق لا يضرهم من خذلهم**)) إشارة إلى وجود الخذلان كتهيئة للنفوس ((**ولا من خالفهم**)) إشارة إلى أناس يخالفونهم في أفعالهم وطريقتهم ومنهجهم، وأنهم لا يضرهم لا من خالفهم ولا من خذلهم، فسيروا على بركة الله،((**لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى وهم ظاهرون على الناس**))، لفظ أبي داود ((**حتى يقاتل آخرهم الدجال**)).

الحق منصور وممتحن فلا	**تعجب فهذي سنة الرحمن**
وبذاك يظهر حزبه من حزبه	**ولأجل ذاك الناس طائفتان**
ولأجل ذاك الحرب بين الرسل وال	**كفار منذ قام الورى سجلان**
لكنما العقبى لأهل الحق إن	**فاتت هنا كانت لدى الديان**

الشاهد من الآية: والله مع الصابرين بحفظه ونصره وتأييده .

صفة الكلام

وَقَوْلُه :﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]. ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً﴾ [النساء: ١٢٢]. ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١١٦]. ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً﴾ [الأنعام: ١١٥]. ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]. ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. ﴿وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف: ١٤٣]. ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢]، وَقَوْلُه :﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠]، ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: ٢٢]. وَقَوْلُه:﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥].

الشرح

قال شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله تعالى– في الحديث عن إثبات صفة القول والكلام لله –جل وعلا–، فإن الله –جل وعلا– يتكلم متى شاء إذا شاء ولم يزل الله –جل وعلا– موصوفاً بالكلام ، ففي الحديث:((**إذا أراد الله أن يوحى بالأمر تكلم**)) فالله –جل وعلا– وصف نفسه بذلك وهذا من صفات الكمال ونعوت الجلال.

والله –جل وعلا– عطاؤه كلام، وعذابه كلام، قال: ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾ وقوله –جل وعلا–: ﴿**وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا**﴾ أي قولاً وخبرا، ومعنى هذه الآية أنه لا أحد أصدق من الله حديثا أي قولا وكلاماً ،وقد جاء في صحيح مسلم في حديث جابر قال صلى الله عليه مسلم:((**فإن خير الحديث كتاب الله**)).

الصدق ضده الكذب، والصدق من الصفات المحمودة في الإنسان، والله أحق بذلك، فهذه الخصلة حين توجد في الإنسان يوصف بها ويثنى عليه بذلك ويحمد أمره على هذا، وكل وصف كمال في الإنسان فالله أحق به فيما جاء به النص، وإن كان بعض العلماء كابن تيمية وابن القيم يعممون

هذه القاعدة، ولكن فيه نظر، إذن نتقيد بما جاء به النص ولا نعمم هذه المسألة وذلك كالعقل وأشياء كثيرة مما لم يرد بذلك نص.

وقوله:﴿**وَمَنْ أَصْـــدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا**﴾ أي: قولاً، قال تعالى:﴿**فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ**﴾ أي: لا أحد أصدق قولاً من الله، فخبره صدق، وأمره صدق، ونهيه صدق، وحديثه صدق، وقوله صدق، فهو الحق له صفات الكمال، ومنعوت بنعوت الجلال﴿**لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**﴾ حكيم، يضع الأمور مواضعها، حميد؛ يحمد على أمره ونهيه وفعله .

وإثبات القول لله يعني: إثبات صفة الكلام، لأن الله قال:﴿**فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ**﴾.

وقال صلى الله عليه وسلم والخبر في البخاري:((**إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله**)).

وقال صلى الله عليه وسلم فيما رواه الترمذي وغيره ((**من يأويني من يحملني، لأبلغ كلام ربي**)).

وقوله -جل وعلا-:﴿**وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَـــى ابْنَ مَرْيَمَ**﴾ الشـــاهد:﴿**وإذا قال الله**﴾ ففيه إثبات صفة قول القول لله -جل وعلا- ولا يختلف في ذلك أهل السنة، يثبتون القول وصفة الكلام، يثبتون المناداة (وناداهما)، ويثبتون ما أثبته الله لنفسه، أو أثبته له رسوله محمد ﷺ، وهذه الصفات صفات كمال لله -جل وعلا.

وقوله:﴿**وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِـــدْقًا وَعَدْلًا**﴾ لم يقل (خلق ربك) بل قال ﴿**كلمة ربك**﴾ في قراءة: ﴿**وَتَمَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا**﴾ صدقاً في القول، وعدلاً في الحكم.

وقوله: ﴿**وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا**﴾ لا يختلف النحاة أنه إذا اجتمع في الجملة اسمان أحدهما فاعل والآخر مفعول به، أحدهما مقصـــور والآخر مظهر، أنه يقدم المظهر لئلا يوهم لبســـاً، إذا قيل :(محمد ومصطفى)، تقول ضرب محمدٌ مصطفى، تبدأ بالفاعل قبل المفعول لئلا يوهم لبساً، ولا سيما إذا كان الآخر من الأسماء غير المنصـــرفة، فقوله -جل وعلا-:﴿**وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَـــى تَكْلِيمًا**﴾ الله هو المكلِم،

وموسى المكلَم، وبعض أهل البدع يقول إن موسى هو المكلِم للرب، فلو كان الأمر كذلك لقيل (وكلم موسى ربه)، ولذلك حين ناظر بعض أهل البدع أحد أئمة أهل السنة في هذه الآية- قال المبتدع: وكلم اللهَ موسى(بنصب لفظ الجلالة) رغم أن هذا لا يصلح لغة لأن أحدهما مظهر والآخر مقصور، فلابد أن يكون هذا مقدماً على هذا.

إلا أن هذا العالم انتقل به من حجة إلى حجة قد تكون أظهر وهذا نهج أهل العلم، يؤخذ من ذلك صـــنيع وعمل إبراهيم، حين قال: ﴿**أنا أحيي وأميت**﴾ما قال له أنت كذاب، لأنه حينئذ قد يلبس على البعض، بل يدعه وكذبه، وينتقل معه من حجة إلى حجة لا يستطيع معها الكذب.

﴿**فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ**﴾ ما يستطيع أن يقول أنا أتي بالشمس من المغرب فيقول له أرنا، لكن الإحياء والإماتة قد يأتي بالرجلين يذبح واحداً ويقي واحد فيقول أحييت واحد وأمت واحد، مع أن هذا كذب وليس هذا هو الإحياء والإماتة، فلذلك قال هذا العالم هب أننى قرأت هذه الآية كما تريد فما تصنع بقول الله -جل وعلا- ﴿**وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ**﴾ فبهت هذا الجهمي.

وتخصيص موسى بالتكليم لا يعني أن الله ما كلم غيره، فظاهر النصوص أن الله كلم آدم، وظاهر الأدلة أن الله كلم محمدا ليلة الإســراء وهذا ظاهر القرآن: ﴿**مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ**﴾ وقال تعالى:﴿**وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ**﴾ هذا دليل أنه كلم أكثر من نبي، فتخصيص موسى بالتكليم كان كغيره من الأحاديث، كقول الرسـول ﷺ:((**لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة**)) لا يعني هذا أنه ليس في الأمة أمين إلا أبا عبيدة، هناك من هو أكثر أمانة من أبي عبيدة كأبي بكر مثلاً، ولكن هذا التخصيص لبيان الفضل ولا يعني نفي ما عداه، فقوله ﴿**وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا**﴾ لا يعني أن الله لم يكلم غيره، ليس في الآية لا من قريب ولا من بعيد ما يفيد هذا، والأدلة الأخرى صـــريحة في تكليم الله -جل وعلا- لغير موســـى، كقوله ﴿**منهم**﴾ ما قال منه ﴿**مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ**﴾ ﴿**وَمَا كَانَ**

لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ وهذا ظاهر الأدلة.

وقوله ﴿**تكليما**﴾ تأكيده بالمصدر دليل على أن الكلام حقيقة، وفيه نفي المجاز؛ فإن العرب تعرف في لغتها أن الكلام حين يأتي تأكيده بالمصدر يُراد من ذلك الحقيقة، وأن الكلام لا يكون مجازاً حيث أكد بالمصدر فإن الله -جل وعلا- كلم موسى حقيقة، وهذا لا يختلف فيه أهل السنة وقد حكى ابن عبد البر وغيره من العلماء الاتفاق على أن الأصل في الكلام الحقيقة دون غيرها، وقد قال في المراقي:

واللفظ محمول على الشرع إن لم يكن فمطلق العرف

فلا يجوز الانتقال من الحقيقة إلى المجاز، أو من الحقيقة اللغوية، أو من الحقيقة العرفية بدون نص أو دليل يكون أرجح، وهذا من القواعد عند أهل السنة، وهذه القاعدة متفق عليها في باب الاعتقاد، وهي أن اللفظ محمولٌ على الحقيقة

وقوله:﴿**منهم من كلم الله**﴾ منهم أي من الرسل والأنبياء، فهذا فيه إثبات صفة الكلام لله -جل وعلا- وأنه كلم أكثر من رسول، وهذا من صفات الكمال لله -جل وعلا.

وقوله:﴿**وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ**﴾ فيه إثبات صفة الكلام لله -جل وعلا- وهذه الآية من أوضح وأقوى الأدلة في إثبات صفة الكلام لله -جل وعلا- ولا يصلح قراءة الآية (ربَه) ، والسبب في هذا أنه إذا ارتبط بالفعل ضمير لا يكون إلا مفعولاً، ثم ارتبط بالفاعل ضمير يعود على المفعول لا يكون الفاعل إلا هو المرفوع؛ فإن الضمير في ﴿**ربه**﴾ الهاء في﴿**ربه**﴾ تعود على موسى (رب موسى)، لا يصلح أن تقول (وضربه زيدًا)، بل تقول :(وضربه زيدٌ) لأن الفعل ارتبط بالضمير الذي هو المفعول، وحينئذ يكون الفاعل مظهراً مرفوعاً ، والفاعل في اللغة هو الذي أوجد الفعل، والمفعول في اللغة هو الذي حلَّ فيه أو وقع عليه الشيء، يدخل في ذلك نائب الفاعل والمفعول، كقوله تعالى ﴿**وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ**﴾ الأنفس نائب فاعل، أُحضرت بمعنى أعطيت وهذا أفصح لغة والشح مفعول ثان

لـــ﴿**أُحضرت**﴾ المتضمنة معنى (أعطي) وأما من قال : أحضر بمعنى جُبلَ ثم أعرب الشح مفعول ثان فهذا غلط، لأن جبل لا تنصب مفعولين، وهذا غلط، هذه نعربها منصوب بنزع الخافض، نصب بنزع الخافض، إلا إذا ضمنَّا أحضرت بمعنى أعطيت، وهذا الذي ذكره ابن عاشور –رحمه الله – في تفسيره وهو الصواب.

وإذا أعربنا أحضرت بمعنى جبلت –كما في كثير من التفاسير- ثم نقول الشح مفعول ثان، فهذا غلط؛ هذا لا يصح أبداً، أحد أمرين نقول أحضرت بمعنى أعطيت، إذاً مفعول ثان ، أو نقول أحضرت بمعنى جبلت فننصب الشح على أنه منصوب بنزع الخافض وهذا استطراد في الحديث عن الإعراب والمعاني في كلام الله –جل وعلا-،وهو استطراد قد يدل المعنى عليه.

﴿**منهم من كلم الله**﴾ ولا يصح أن تقرأ (كلم اللهَ) (**بالنصب**) يعني هو كلم اللهَ لأن هذا باطل شرعاً وباطل عقلاً، فالله هو الذي يكلمهم وهم الذين يدعونه ويسألونه وفي نفس الوقت يسمعهم ويجيبهم ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ**﴾ وفي نفس الوقت يقين المعنى (هم كلموا الله) إذا لماذا خصص لبعضهم ، وكلهم متفقون على دعاء الله وعلى سؤاله وعلى طلبه.

فقوله –جل وعلا- ﴿**وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ**﴾ فقدم ذات القول والكلام والمناداة لله –جل وعلا- فالله –جل وعلا- ينادي وبالصوت باتفاق أهل السنة، قال ﷺ: ((**يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب**))

وقوله:﴿**وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى**﴾ فيه إثبات صفة المناداة لله –جل وعلا-، لذلك﴿**وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا**﴾ ﴿**وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ**﴾، وهذا يدل دلالة واضحة على إثبات صفة المناداة لله –جل وعلا-، وهذا يعني إثبات صفة القول والكلام لله –جل وعلا- فنثبت لله ذلك إثباتاً بلا تمثيل وتنزيهاً بلا تعطيل لأن الله جل وعلا ليس كمثله شيء، لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله وقد أنكر ذلك الجهمية والمعتزلة وغيرهم، فمنهم من قال بأن هذا مجاز، ومنهم من قال بأن هذا عبارة عن كلام الله أو حكاية عن كلام

الله، وهذا يعني أن الله –جل وعلا- يلهم الرسـل إلهاماً، ولا يخاطبهم، وهذا في الحقيقة إبطال لحقيقة الرسل، وأنهم لا يخاطبون ولا يكلمون، يخلق فيهم الخير خلقاً، وتخلق فيهم الأوامر والنواهي خلقاً، وهذا باطل شرعاً وعقلاً ،وهذا الحقيقة يقتضي إبطال حقيقة دعوة الرسل، وهذا يعني أن كل شخص يقول خلق فيه الخير ويقول (أنا رسـول)، لأنه ما أوحي إليه، ﴿**أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ**﴾ فبالتالي الرسـالة لا تكون إلا بالوحي، فهذا حينما يدعي بأن الله لا يتكلم وبأنه يخلق الخير، إذن يتشكك فيما خلق الله؛ إذاً كيف نميز بين الرسول حقيقة وبين المبطل حقيقة، كل منهما يدعي بأنه قد خلق فيه الخير، ولكن ماذا قال ورقة للنبي ﷺ في الحديث في الصحيحين:((**هذا الناموس الذي يأتي وما بعث الله نبياً ولا رسولاً إلا أتاه هذا**))، فهذا متفق عليه في كل الشرائع في كل الرسالات، وهذا أمر أجمع عليه العلماء واتفقت عليه الشـرائع كلها، ودلَّ عليه العقل والنقل، ولذلك قول الله تعالى:﴿**وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا**﴾، لا تتأتى الرسالة إلا بثلاثة أمور وقد توجد كلها في رسول: تارة يكلمه، وتارة يرسل إليه رسولاً، لكن نجعل كلام الله مخلوقاً، وأن الله –جل وعلا- يخلقه قي قلب العبد، فهذا باطل، ويقتضي إنكار رسالات الرسل، وحينئذ لا نميز بين الرسول الصادق وبين الرسول الكذاب لأنه لن يوحى إليه شيء.

القرآن كلام الله

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ﴾ [التوبة: ٦]. ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥].﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ﴾[الفتح: ١٥].﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ [الكهف: ٢٧]. وَقَوْلُهُ:﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل: ٧٦].

الشرح

وقوله جل وعلا:﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ﴾ ﴿ أَحَدٌ ﴾ فاعل مقدم، أي وإن استجارك أحد، ﴿فَأَجِرْهُ﴾أي:إن طلب منك المشـرك أن تؤمنه حتى يسـمع كلام الله فلا حرج رجاء إسـلامه، والشـاهد من سـياق الآية ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾لإثبات صـفة الكلام لله –جل وعلا– وأن الكلام حقيقة، وهذا لا يختلف فيه أهل السنة –رحمهم الله.

تقدم إثبات القول ﴿فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾ المناداة ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا﴾، لإثبات صـفة الكلام﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾و﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾، والله –جل وعلا– يتكلم متى شاء إذا شاء فهو موصوف بالكلام والكلام صفة كمال.

وقوله –جل وعلا– ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ ولم يقل خلق الله، فقول الأشاعرة والكلابية وغيرهم أن الكلام عبارة أو حكاية عن كلام الله هذا كله باطل ، بقي قول بعض أهل السـنة حين يكون كلام الله فيما يحكي عن غيره، فإذا قال الله حكاية عن فلان، هذا ليس فيه ارتباط بمذهب الأشـاعرة لا من قريب ولا من بعيد، يصـرف النظر عن صـحة اللفظ أو غلطه، هذا ليس له ارتباط بمذهب الأشـاعرة، لأن الأشـاعرة يقولون عن كلام الله كله بأنه حكاية ، عبارة، ومآل هذا وذاك إلى القول بخلق القرآن ،لكن حين يقول العالم: (قال الله حكاية) بمعنى أنه ينقل ويحكي عن غيره ولم يرد في كلام ابن القيم وذكره البخاري في صحيحه وكل أهل السنة يعبرون بذلك، وعلى كل بصرف النظر عن

صـحة هذا اللفظ من عدمه لو قيل قال الله عن فلان تحاشـياً للفظ، ليس لغلط اللفظ لكن بقدر ما يمكن هناك أناس لا يفهمونه، وإلا فاللفظ في معناه صحيح، هذا أفضل.

وقوله –جل وعلا- ﴿**يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ**﴾ والعجيب أن النبي ﷺ حين خاطب المشـركين بكلام الله لم يعترض عليه أحد منهم بأن الله لا يتكلم، وهذا نظير قول إبراهيم لأبيه﴿**يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ**﴾ لم يعترض عليه بأن ربك أيضاً لا يسمع ولا يبصر، بل آمن آزر بأن الله يسمع ويبصـــر لأنه لم يعترض على إبراهيم وفي نفس الوقت آمن كفار قريش بأن الله يتكلم لأنهم لم يكونوا يعترضون على ذلك، ولذلك حين كتب النبي (بسم الله الرحمن) اعترضوا على الرحمن فالذي لا يعجبهم يعترضـون عليه، ولم يعترضـوا على إثبات كلام الله –جل وعلا-، لأنهم يعلمون أن الرسـالة لا تتم إلا بالكلام ولكن ينكرون أن يكون الله قد خاطب محمداً ولا ينكرون صـفة الكلام، ولذلك عقول بعض الكفار أكمل من عقول الجهمية والمعتزلة وكثيرًا من غلاة الأشاعرة.

وقوله –جل وعلا- :﴿**وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ**﴾ فيه إثبات صـفة الكلام ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَـيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾ ﴿**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْـرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**﴾ فقوله:﴿**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ**﴾ في جواز نسبة القصص للقرآن ،لكن لا حرج في تعابير العلماء (قال القرآن)، (تحدث القرآن)، (تكلم القرآن) يسـتدل لكلامهم بهذه الآية، فمن زعم أن هذا غلط وأن هذا يكون فيه ارتباط بمذهب الجهمية الذين ينفون الكلام عن الله، فقد غلط هو وما فهم، هذا الأسلوب كان العلماء يستعملونه، وهذا ليس فيه ارتباط بالجهمية، لأن الجهمية ينكرون كلام الله ما ينسبون الكلام للقرآن، وأيضاً لا يثبتون نسبة كلام الله، يقولون تحدث القرآن، من الذي تحدث بالقرآن؟ هو الله، إذاً ليس هناك ارتباط بمذهب الجهمية ،ودل على ذلك الآية (هذا القرآن يقص) هل القرآن يقص أو أن الله تكلم في القرآن وذكر فيه القصص؟

القرآن منزل من عند الله

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام:٩٢]. ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر:٢١]، ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُواْ إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [النحل:١٠١]. ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:١٠٢]. ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل:١٠٣].

وَقَوْلُهُ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣]. ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين: ٢٣]، ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]، وَقَوْلُهُ: ﴿لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق:٣٥].

وَهَذَا الْبَابُ فِي كِتَابِ اللهِ كَثِيرٌ، مَنْ تَدَبَّرَ الْقُرْآنَ طَالِبًا لِلْهُدَى مِنْهُ؛ تَبَيَّنَ لَهُ طَرِيقُ الْحَقِّ.

الشرح

وقوله –جل وعلا– ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ فيها الإنزال، وأن القرآن منزل، ولا يختلف أهل السنة في أن القرآن منزل غير مخلوق، وفيها أن القرآن مبارك، قال الله تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ فإن الله –جل وعلا– يجعل في الجمادات إحساسات، وفيه إنزال القرآن، وأن الله تكلم فيه حقيقة، وفيه الرد على الجهمية والمعتزلة والأشاعرة.

الإيمان بما وصف به الرسول ﷺ ربه

فَصْلٌ

ثُمَّ فِي سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ : فَالسُّنَّةُ تُفَسِّرُ الْقُرآنَ وتُبَيِّنُهُ، وتَدُلُّ عَلَيْه، وتُعَبِّرُعَنْهُ، وَمَا وَصَفَ الرَّسُولُ بِهِ رَبَّهُ مِنَ الأَحَادِيثِ الصِّحَاحِ الَّتِي تَلَقَّاهَا أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ بِالْقَبُولِ؛ وَجَبَ الإيمَانُ بِهَا كَذَلِك.

الشرح

بعد أن انتهى رحمه الله تعالى من ذكر الأدلة القرآنية على إثبات أسماء الله وصفاته، شرع يتحدث عن الأصل الثاني، والأدلة الواردة في سنة رسول الله ﷺ على ذلك؛ لبيان أن أهل العلم وأهل السنة يحتجون بإثبات الأسماء والصفات على الكتاب والسنة؛ لا يخرجون عن ذلك، لا يتجاوزون ما أمر الله به، ولا يقعون فيما نهى الله عنه.

قال رحمه الله تعالى في السنة:ثم في سنة رسول الله ﷺ:

السنة المقصود بها هنا: ما تقابل القرآن؛ المقصود بالسنة هنا ما يقابل القرآن؛ لأن السنة تطلق على عدة معانٍ؛ تارة على ما يثاب فاعله ولا يعاقب تارك؛ تارة تطلق على الفرض؛ تارة تطلق على ما هو أعم من هذا؛ وتارة تطلق السنة على ما يقابل القرآن،

وأهل العلم حين يقولون: (جاء في كتب السنة) يقصدون هذا المعنى، وقد جرت عادة الأئمة في مؤلفاتهم العقدية، يسمون ذلك كتب السنة؛ فالسنة تفسر القرآن؛ أي ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم من الأحاديث الصحاح؛ تفسر القرآن؛ لأن القرآن حمالٌ للوجوه، والسنة تبين هذا.

وقد كان أهل السنة يوصون بمناظرة أهل البدع في السنة، وغالب أهل البدع في بدعهم ينزعون بالقرآن ما لا ينزعون بالسنة؛ فحين ننظر مثلاً في الجهمية والمعتزلة والأشاعرة في نفي صفة الساق عن الله وتفسير ذلك بالشدة- يحتجون بالقرآن:﴿**يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ**﴾، وحين ننظر في السنة فهي صريحة في هذا الباب، ولكنهم لا يأخذون بالسنة؛ فالقرآن حمال للوجوه، والسنة تفسره وتبينه وتوضحه وتعبر عنه.

ولذلك حكى السيوطي رحمه الله في مقدمة كتابه (مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة)- الإجماع على كفر من قال: (**نأخذ بالقرآن، ولا نأخذ بالسنة**).

والطوائف في هذا كثيرون، وقد أخبر النبي ﷺ عن ظهور هؤلاء؛ يقول: ((**لأجدن أحدكم متكئًا على أريكته يقول: ما جاءنا من كتاب الله أخذناه**))؛ ولذلك قال ﷺ: ((**إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا، كتاب الله**)). وفي رواية: ((**وسنتي**)). واللفظ الأول هو المحفوظ، والكتاب أَمَرَ بطاعة الرسول ﷺ: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا**﴾، ﴿**وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ**﴾، ﴿**وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ**﴾ وغير ذلك من الأدلة الدالة على طاعة الرسول ﷺ.

والذين يقصون السنة عن التشريع تحت غطاء أخبار الآحاد، أو: لا تفيد العلم، أو: لا تفيد اليقين، أو غير ذلك- هم على مراتب؛ منهم من ليس بمؤمن أصلاً بشهادة أن محمدًا رسول الله، ومنهم ناقص الإيمان. والذين يقولون: (نقبل القرآن، ولا نقبل السنة). هم يؤمنون ببعض ويكفرون ببعضٍ؛ يؤمنون بالشهادة الأولى، ولا يؤمنون بالشهادة الثانية، وأيضا هذا دليل على نقص إيمانهم بالشهادة الأولى؛ لأن الإيمان بالشهادة الأولى يقتضي الإيمان بالشهادة الثانية.

وحين يجري الحديث عن هؤلاء المتابعة وأهل الضلال والمنحرفين الذين يقولون: (لا نؤمن إلا بالقرآن ، ولا نؤمن بالسنة). أو يجعلون ضوابط للإيمان بالسنة- لا يقتصر على الحديث عن الجهمية أو المعتزلة أو الأشاعرة، بل ينسحب للحديث إلى من هم أخبث من هؤلاء، كالرافضة الذين لا يؤمنون بالسنة؛ لا جملة ولا تفصيلاً؛ لأن السنة جاءت برواية المرتدين في نظرهم؛ كأبي بكر وعمر وعثمان وبقية الصحابة، ما عدا آل البيت وسلمان والمقداد وأبا ذر، والرافضة اعتبروهم بهذا كفرة فجرة؛ فهم لا يؤمنون بصحبة أبي بكر؛ والقرآن صريح في صحبته: ﴿**لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا**﴾؛ اتفق العلماء على أن الآية في أبي بكر، وأن النبي ﷺ قال لأبي بكر: ((**لا تحزن**)) بنص القرآن؛ ﴿**ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ**﴾؛ فهم لا يؤمنون لا بصحيح البخاري ولا بمسلم ولا بكتب السنن.

وقد تقدم أن السيوطي حكى الإجماع على كفر من قال بهذا، والرافضة أبعد الناس على الإيمان بالسنة، وهم في الحقيقة: أخبث من الذين لا يؤمنون بالسنة لكونها تفيد الظن أو لغير ذلك؛ وهم لا يؤمنون بها لكفر رواتها، هذا أغلظ كفرًا، فإذا كان العلماء مجمعين على كفر من امتنع عن قبول السنة، وقال السيوطي رحمه الله تعالى: (**إنه يلقى في المزابل؛ حتى لا يتأذى بنتنه أهل الكتاب**)- يرى أنه أخبث وأكفر من أهل الكتاب؛ فكيف بمن لا يؤمن بالسنة تحت غطاء أنهم كفرة فجرة! هذا أشد كفرًا وأعظم، إضافة على ذلك عبادة الأوثان، وما عندهم من نواقض الإسلام التي تتجاوز المئات، لكن لا يتوقف في كفر الرافضة إلا من هو جاهل، ولا يفهم في التوحيد.

بصرف النظر على عوارض الأدلة وجود الجاهل أو العامة أو نحو ذلك؛ لكن الأصل في مذهبهم الكفر والردة عن الدين؛ من عبادة القبور وعبادة الأوثان وإنكار السنة ولعن الصحابة والحكم بردتهم،

وقذف عائشة بالإفك، ونسبة البدعة إلى الله، والكفر بتوحيد الأسماء والصفات، وعبادة الأوثان، والتقرب إلى الأولياء، والدعوة أن الأولياء يعلمون الغيب، ودعوى العصمة لأئمتهم، وتعظيم أئمة الشرك، كنصير الشرك الطوسي، ونحو ذلك.

فإن الأصل الذي يعتمد عليه أهل السنة في هذا الباب- **إثبات الأسماء والصفات-** الكتاب والسنة؛ فلا يعتمدون في ذلك على عقولهم، ولا على أقيستهم، ويخالفون في ذلك كل الطوائف المنحرفة؛ من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة وغيرهم؛ من الذي يقدمون العقل على النقل.

والتدليل على ذلك هو بتأكيد هذا الأصل وترسيخه في الفهوم، وترويض الناس عليه.

ولبيان أن هذا الأمر ليس من مسائل الاجتهاد عند أهل السنة، وأنه قام به طائفة دون طائفة؛ فأهل السنة متفقون ومجموعون، ولم يشذ أحدٌ منهم على أن هذا الباب لا يجدي فيه عقل ولا قياسٌ، وأنهم يعتمدون في ذلك على الكتاب والسنة.

وهم يؤمنون بأن النقل السليم لا يخالف العقل الصحيح، ولهذا كتب شيخ الإسلام رحمه الله تعالى كتابه المشهور:(دَرْء تعارض العقل والنقل)، قال ابن القيم رحمه الله:

وإذا تعارض نص لفظ وارد والعقل حتى ليس يلتقيان
فالعقل إما فاسد، ويظنه الرَّ ائي صحيحا وهو ذو بطلان
أو أن ذاك النص ليس بثابت ما قاله المعصوم بالبرهان

فلا يكاد يوجد عقل سليمٌ يخالف نقلاً صحيحًا، والخلل في أحدهما: إما في ضعف النقل، أو في خبال في العقل.

فأهل الجاهلية في شركهم ووثنيتهم يؤمنون بكثير من الأسماء والصفات ، ولا يحرفون ذلك؛ فهذا إبراهيم حين قال لأبيه:﴿**يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا**﴾ لم يعترض عليه، ولم يقل: وربك لا يسمع ولا يبصر.

وحين دعا النبي ﷺ كفار قريش إلى الإيمان بالله، وأخبرهم بأنه رسولٌ من الله، وأن الله يقول، لم ينكروا قول الله؛ ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون، فكانوا ينكرون بعثته ورسالته، ولم يكن أحدٌ منهم يقول: إن الله لا يتكلم.

فالمقصود أن أهل السنة يؤمنون بذلك، ويعتبرون السنة المصدر الثاني من مصادر التشريع، وأن السنة تفسر القرآن وتبينه وتدل عليه وتعبر عنه.

وما و صف الرسول به ربه عز وجل من الأحاديث الصحاح التي وردت بالشروط المعتبرة عن المحدثين فهم أهل الشأن في هذا الباب؛ فلا يعتمد في هذا الباب لا على فقيه ولا نحوي، ولا على متكلم، ولا على غير ذلك، يعتمد في هذا الباب على أهل الحديث؛ فهم أصحاب هذا الشأن وهم حماته.

والحديث يشترط في صحته شروط:

- **الشرط الأول**: بنقل العدل.

- **الشرط الثاني**: أن يكون تام الضبط، من حفظه أو من كتابه.

- **الشرط الثالث**: اتصال الإسناد.

وهذه الشروط الثلاثة مشتملة على غيرها، وأضاف بعض العلماء شرطين آخرين؛ انتفاء الشذوذ، وانتفاء العلة، ولهذا المعنى أشار ابن حجر في النخبة: بنقل عدل تام الضبط متصل السند غير معلل ولا شاذ، قال: هو الصحيح لذاته.

وتتفاوت رتبه بتفاوت هذه الأوصاف.

وأهل السنة يختلفون أن هذا الباب لا يجدي فيه الحديث الضعيف؛ لا يعتمدون في باب الأسماء و الصفات إلا على الأحاديث الصحاح التي تلقاها أهل المعرفة بالقبول.

وقد ذكر الإمام أحمد -رحمه الله تعالى- أن الحديث الصحيح يتلقاه العلماء بالقبول وقابلوه بالتسليم- يُعد متواترًا.

والمتكلمون يضعون شروطًا للمتواتر ليست في كتاب الله ولا في سنة رسول الله ﷺ، ويذكرون في هذا الباب أربعة شروط:

-**الشرط الأول**: أن يرويه عدد كثير.

-**الشرط الثاني**: أن تكون الكثرة في جميع طبقات السند.

-**الشرط الثالث**: أن تحيل العادة تواطؤهم على الكذب.

- **الشرط الرابع**: أن يكون مستند خبرهم الحس؛ كقولهم:((**سمعنا**))و((**رأينا**))و((**لمسنا**))،و((**شممنا**)).

وهذه الشروط الأربعة غير معروفة عند أهل العلم المحققين من أهل السنة، وينادي بذلك أهل البدع من المتكلمين والأشِاعرة وأمثالهم.

ولذلك لا يقبلون أخبار الآحاد في هذا الباب؛ لأنها ((**لا**)) تفيد العلم، والذي عليه أهل التحقيق أن ما ثبت إسناده عن رسول الله ﷺ سواء من المتواتر أو الآحاد، فإنه يفيد العلم ويوجب العمل.

وقد بعث النبي ﷺ معاذًا إلى اليمن، وقال:((**فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله**)). وهذا الخبر متفق على صحته؛ فقد بعث معاذًا بأصل الدين؛ لم يبعثه بمسألة من مسائل الأسماء والصفات، ولا باب من أبواب التوحيد؛ بعثه بكل الدين؛ بكل الإسلام؛ بعثه بالتوحيد، وبعثه بالشهادة الأخرى، وبعثه بالصلاة، وبعثه بكل أركان الإسلام، ولم يعترض عليه أحد من أهل اليمن؛ لأن هذا رجل واحد؛ فلا ندري صدقه من كذبه؛ فكان أهل الكتاب أعقل بكثير من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة؛ حيث لم يرفضوا خبر الواحد؛ بل آمن به عدد، ومن امتنع عن الإيمان به لم يكن لكونه واحدًا؛ امتنع لأسباب أخرى؛ ولذلك قال الله سبحانه وتعالى:﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا**﴾؛ إذًا إذا جاء عدلٌ فلا نحتاج للتبين؛ فهذا دليل على الإيمان بخبر الآحاد، وقد كان النبي ﷺ يبعث عماله: الواحد والاثنين؛ يبلغون الدين والإسلام، وهذا الذي أجمع عليه الصحابة، وأجمع عليه العلماء.

كذلك لم يكن أهل السنة يتوانون في قبول أخبار الآحاد في باب الأسماء والصفات؛ مع العلم أن هذا الباب جاء من طرق متواترة، لكن لا نحتاج إلى التواتر في هذا الباب بقدر ما نحتاج إلى صحة الإسناد، وقبول العلماء لذلك.

نزول الرب إلى السماء الدنيا

مِثْلُ قَوْلِهِ ﷺ :((يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرِ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ)) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

الشرح

قال الشيخ رحمه الله تعالى: من الأحاديث الصحيحة التي تلقاها العلماء بالقبول، وقابلوه بالتسليم، ويجب الإيمان بذلك قوله ﷺ ((**ينزل ربنا**)) هذا الخبر متواتر عن النبي ﷺ، وقد كتب فيه العلماء مؤلفات، وكتب الدارقطني وغيره مؤلفات في النزول، وألف ابن تيمية رحمه الله تعالى كتابًا مجلدًا ضخمًا في النزول؛ أي نزول الرب جل وعلا إلى السماء الدنيا.

وقد روى البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: ((**ينزل ربنا**)) فلم يقل: ينزل أمره ولا قضاؤه ولا حكمه ولا رحمته ولا غير ذلك:

((**ينزل ربنا إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل** – أي في كل بلد؛ حين يبقى ثلث الليل في كل بلد؛ من كان عنده ثلث الليل فإن الرب ينزل عليهم – **فيقول**)): هذا رد على من زعم أن النزول يقتضي نزول الرحمة؛ لأن الرحمة لا تقول: من يدعوني فأستجيب له، والملك لا يقول: من يدعوني فأستجيب له، والأمر لا يقول من يدعوني فأستجيب له؛ فهذا يعني أن الرب جل وعلا هو الذي يقول: ((**من يدعوني فأستجيب له**)).

وفي معنى قول الله جل وعلا:﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ**﴾والدعاء هو العبادة:﴿**وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾.

ولا يستغني عبد عن ربه طرفة عين؛ كل منا محتاجٌ إلى ربه؛ يسأله، ولكن حين يتحرى ثلث الليل الأخير فينهض من منامه، ويتوضأ ويصلي ويسأل الله، هذا أقرب إلى الإجابة من غيره؛ ويؤخذ من ذلك تحري أوقات الإجابة في الدعاء؛ كثلث الليل الآخر، وفي السجود، وبين الأذان والإقامة، فقد قال النبي ﷺ:((**لا يرد الدعاء بين الأذان والإقامة**))، وقوله:((**من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له**)): فيه إثبات صفة المغفرة لله جل وعلا؛ قال تعالى:﴿**وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ**﴾.

ويؤخذ من هذا الحديث إثبات صفة العلو، ويؤخذ من ذلك إثبات الصفات الاختيارية لله جل وعلا، ويؤخذ من ذلك الشاهد إثبات صفة النزول لله جل وعلا.

والصواب من قول العلماء أن النزول يستمر إلى طلوع الفجر الثاني، وقال بعض العلماء: إلى طلوع

الشمس، والصواب الأول؛ لأن الرواية الواردة إلى طلوع الشمس غير صحيحة.

وأهل السنة متفقون على نزول الرب جل وعلا؛ فيثبتون ذلك إثباتًا بلا تمثيل، وتنزيهًا بلا تعطيل، فلا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه؛ لأن الله لا سمي له ولا كفو له ولا ند له؛ وسع كرسيه السموات والأرض؛ قال ابن عباس:**(الكرسي موضع القدمين)**، وقال تعالى:﴿**وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ**﴾. فينزل نزولاً يليق بجلاله وعظمته؛ فلا نكيف ولا نمثل؛ بل نؤمن ونعتقد حقيقة الصفة، وليس فيه مجاز؛ على حد قول الجهمية والمعتزلة وطوائف من أهل البدع؛ فإن الأصل في الألفاظ الحقيقة، وهذا لو كان مجازًا، لكان مردودًا بقوله:((**من يدعوني فأستجيب له، ومن يسألني فأعطيه**)).

والذين يقولون بأن هذا إشارة إلى الرحمة، فالرحمة لا تقتصر على ثلث الليل الآخر، ويؤخذ من ذلك إثبات العلو، وأن الله جل وعلا فوق سمواته مستو على عرشه. وقد تقدم الحديث عن قول الله جل وعلا:﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**﴾.

لم يورد المؤلف رحمه الله تعالى في النزول إلا حديثًا واحدًا؛ لأنه من الأحاديث المتواترة، ولأن من لم يؤمن بالحديث المتواتر لن يؤمن بغيره؛ فالذي لا يؤمن بالكثير لن يؤمن بالقليل، والمؤمن إذا بلغه حديث عن رسول الله ﷺ، واتفق العلماء على تصحيحه وأجمعوا على قبوله – ليس له أن يتوقف في ذلك؛ فليقل: سمعنا وأطعنا.

صفات الضحك والفرح والعجب

وَقَوْلُهُ ﷺ :((للَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهُ الْمُؤْمِنِ التَّائِبِ مِنْ أَحَدِكُمْ بِرَاحِلَتِهِ)) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ ، وَقَوْلُهُ صلى الله عليه وسلم :((يَضْحَكُ اللهُ إِلَى رَجُلَيْنِ يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الآخَرَ؛ كِلاهُمَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ)) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ، وَقَوْلُهُ:((عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ وَقُرْبِ خَيْرِهِ، يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ أَزَلِينَ قَنِطِينَ، فَيَظَلُّ يَضْحَكُ يَعْلَمُ أَنَّ فَرَجَكُمْ قَرِيبٌ)) حَدِيثٌ حَسَنٌ.

الشرح

ثم أشار رحمه الله تعالى إلى إثبات صفة الفرح لله جل وعلا؛ فأورد قوله ﷺ:((**إن الله أشد فرحًا بتوبة عبده المؤمن التائب من أحدكم**)).

أي كان بفلاة من الأرض، ومعه دابة عليها طعامه وشرابه، فضلَّت في أرض لا أنيس ولا جليس، لا مأوى ولا مرعى، فحين أيس منها نام تحت ظل شجرة، فحين استيقظ فإذا هي قائمة أمامه، فقال من شدة الفرح: ((**اللهم أنت عبدي وأنا ربك**)).هذا لفظ مسلم؛ لأن الزيادة الواردة في صحيح مسلم من حديث أنس، ولم ترد في حديث أبي هريرة، ولا في حديث عبد الله؛ فإن هذا الخبر جاء من رواية أبي هريرة ومن رواية عبد الله ومن رواية أنس، واتفق الجميع على الرواية بلفظ:((**الله أشد فرحًا**))؛ ففيه إثبات صفة الفرح لله جل وعلا.

وأهل السنة يثبتون ذلك إثباتًا بلا تمثيل؛ فليس فرحه كفرح المخلوق؛ لأن الله ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير.

والذين ينفون عن الله صفة الفرح على اعتقاد أنهم حين يثبتون ذلك يشبهون صفة الخالق بالمخلوق- هؤلاء مشبهة، وحين شبهوا أولاً عطلوا ثانيًا؛ بل نؤمن بأن لله صفات كما نؤمن بأن لله ذاتاً لا تشبه الذوات؛ نؤمن بأن لله صفات لا تشبه صفات المخلوق.

قوله: ((**بتوبة عبده المؤمن**)): في فضيلة التوبة، والأصل في المؤمن أن يتوب دائمًا؛ لأنه خطاء، والأصل فيه أنه خطاء؛ ﴿**رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا**﴾.

ولذلك حين قال أبو بكر، وهو هو في العلم والتقوى والورع: يا رسول الله، علمني دعاءً أدعو به في صلاتي. قال الرسول: ((**اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم**)).

وكان ابن مسعود إذا جرى بين العلمين في السعي قال:((**رب اغفر وارحم وأنت الأعز الأكرم**)). قال: إسناده صحيح إلى ابن مسعود رضي الله عنه، رواه الطبراني وغيره.

وفيه أن الله جل وعلا يحب من العبد أن يتوب إليه؛ ولذلك يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل. والتوبة: العزم على أن لا يعود إلى الذنب؛ ولا يعني أنه لا يعود؛ قد يعود، ولكن هو عزم ألا يعود، ولكن لو قال بلسانه: أستغفر الله وأتوب إليه. وهو في قرارة نفسه أنه سوف يعود، فتعتبر توبته لغوًا من القول، وليست بتوبة حقيقية.

التوبة الحقيقية أن يعزم على ألا يعود؛ لا مانع أن يعود على اعتبار أنه ليس معصومًا من العودة؛ قد يعود، ولكن إذا عاد تاب ويعزم على ألا يعود؛ ولذلك يقول النبي ﷺ:((**لو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون ثم يستغفرون فيغفر لهم**)) رواه مسلم وغيره.

ولكن الذي يتوب وهو في قرارة نفسه سوف يعود تعتبر توبته ضربًا من اللغو، وشيئًا من الاستهزاء، كالذي يقول: أستغفر الله وهو يكذب- ولكن لو عزم على ألا يعود، فضعفت إرادته وغلبته شهوته ثم عاد، يعاود أيضًا الاستغفار مرة أخرى؛ لأن الله جل وعلا قال:﴿**وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا**﴾، والله جل وعلا قال:﴿**وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ**﴾،﴿**أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ**﴾.

والندم توبة؛ بخلاف الذنوب المتعلقة بالمخلوق؛ لا بد أن ترد الحقوق إلى أصحابها؛ من غيبة ونميمة وسرقات ونحو ذلك، فإن كان لا يستطيع ذلك يدعو لهم ويستغفر لهم، ويرد الأموال بطريقته إلى أهل الحقوق.

الشاهد من سياق الحديث إثبات صفة الفرح لله جل وعلا، ويؤخذ من ذلك أنه يُعفى عن سبق اللسان؛ لأن الرجل قال: اللهم أنت عبدي وأنا ربك. أخطأ من شدة الفرح؛ يُعفى عن سبق اللسان؛ لأن الغضب الشديد كالفرح الشديد أو لأن الفرح الشديد كالغضب الشديد يخرج العبد عن طوره، ويجعله يلفظ بما لا يقصد معناه، وفيه اعتبار المقاصد.

وفيه معنى قول الله جل وعلا:﴿**رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا**﴾، وفيه فضيلة التوبة، وفيه إثبات صفة المحبة لله جل وعلا، وفيه إثبات صفة الفرح لله جل وعلا.

والله يفرح بتوبة عبده؛ ليس لحاجته إلى عبده؛ لأن الله غني عن العباد؛ لكن الله جل وعلا يفرح حتى لا يكون العبد من حصب جهنم:﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**﴾.

وقوله في الحديث: «**توبة عبده المؤمن**)): هذا خرج مخرج الغالب، ولا يدخل في ذلك إذا أسلم

الكافر؛ لأنه ربما يكون إسلام الكافر أعظم من توبة المؤمن من ذنب، وفيه غير ذلك من المعاني.

وقوله ﷺ في إثبات صفة الضحك:((**يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر كلاهما يدخل الجنة**))؛ معنى هذا أن الكافر قتل المسلم، فدخل المسلم الجنة؛ لأنه مجاهدٌ. وقد أخذ من هذا ابن عبد البر رحمه الله أنه من قتل مجاهدًا مقبلاً غير مدبر يحكم له بالجنة؛ لأن النبي ﷺ قال: ((**كلاهما يدخل الجنة**)). وقد قتل هذا الرجل مجاهدًا مقبلاً غير مدبر، والذي قتله كافر. إذاً كان يدخل الكافر الجنة؟! أسلم، فقُتل أيضًا في سبيل الله فدخل الجنة.

فيؤخذ من ذلك إثبات صفة الضحك لله جل وعلا.

أورد شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى قول النبي ﷺ:((**عَجِبَ ربنا من قنوط عباده**)).

أشير إلى أمور مهمة:

– **الأمر الأول**: أن الشيخ رحمه الله تعالى أورد الحديث بلفظ: ((**عجب ربنا**)) ولم يرد الخبر بهذا اللفظ؛ والصواب: ((**ضحك ربنا**)).

وقد كتب الشيخ رحمه الله تعالى هذه العقيدة من حفظه، ما بين صلاة الظهر إلى صلاة العصر، ولذلك يرد الوهم على الذي يكتب من الحفظ ولا يراجع الأصول.

– **الأمر الثاني**: هذا الخبر رواه الإمام أحمد وابن ماجه وغيرهما، من طريق وكيع بن عدس –ويقال: حُدُس– عن أبي رزين، وقد ضعفه بعض العلماء؛ لجهالة وكيع، وحسنه آخرون، كشيخ الإسلام ابن تيمية والسيوطي وجماعة، ولعله الأقرب؛ لأن وكيعاً بن عدس ليس بمجهول.

وقد صحح له الإمام أبو عيسى في الجامع من طريق شعبة عن يعلى بن عطاء عن وكيع عن أبي رزين أن النبي ﷺ قال: ((**الرؤيا على جناح الطائر ما لم تُعبر**)).

قال أبو عيسى: وهذا حديث حسن صحيح.

ولا يُعرف هذا الحديث إلا من طريق وكيع بن عدس.

ولا ينفي أن يقال: لعله جاء من طريق أخرى؛ فقد صححه الترمذي باعتبار طريقين؛ فحين صححه من هذا الطريق ولم يُعرف إلا هذا الطريق، فهذا الدليل على أن وكيعًا معروفٌ عند أبي عيسى.

– **الأمر الثاني**: ذكر الدارقطني رحمه الله تعالى في كتابه «الأسماء والصفات» أنه لا يحتج في هذا

الكتاب إلا بما رواه الثقة عن الثقة، واتفق عليه العلماء، وتلقوه بالقبول.

وقد أورد حديث وكيعٌ بن عُدُس؛ فهو دليلٌ على أنه معروفٌ عند الدارقطني ومعروف عند غيره.

وإلا لم يكن لدعوى الدارقطني بأن هذا الكتاب تلقاه العلماء بالقبول وقابلوه بالتسليم شيءٌ من الصحة، ولم يكن لقوله أيضًا: رواه الثقة عن الثقة شيء من الصحة. وهو يروي عن وكيع الذي هو غير معروف؛ هذا دليلٌ على أنه معروفٌ عند الدارقطني وعند غيره من الأئمة.

الأمر الثالث: أن وكيعًا لم يأت بما يُنكر عليه؛ فقد جاء اللفظ بلفظ: «**ضحك ربنا**»، وتقدم في الصحيحين: «**يضحك الله إلى رجلين**»؛ وأورد الشيخ لفظ «**عجب**»، وصفة التعجب صفة ثابتة لله جل وعلا.

وقد قرئ :﴿**بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ**﴾؛ فصفة التعجب ثابتة لله جل وعلا، وصفة الضحك ثابتة لله جل وعلا، وأهل السنة يؤمنون بكل ما جاء عن الله، وبكل ما جاء عن رسول الله ﷺ، ويثبتون ذلك إثباتًا بلا تمثيل، وتنزيهًا بلا تعطيل؛ لأن الله جل وعلا ليس كمثله شيء؛ لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله؛ فهو السميع البصير؛ فلا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه؛ لأنه سبحانه لا سَمِيَّ له، ولا كفء له، ولا ند له، ولا يقاس بخلقه.

قوله:((**ضحك ربنا**)) فيه إثبات توحيد الربوبية، وفيه إثبات توحيد الأسماء والصفات، والضحك من الصفات الفعلية الاختيارية لله جل وعلا، وأهل السنة يثبتون لله الصفات الذاتية، ويثبتون لله الصفات الفعلية الاختيارية، ويؤمنون بكل ذلك.

قوله: ((**من قنوط عباده**)) القنوط هو استبعاد الفرج؛ وهذا مُحرمٌ، واليأس أشدُّ القنوط:﴿**وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ**﴾.

وقوله:((**قنوط عباده**)): هذا إطلاق الكل وإرادة البعض.

قوله: ((**وقُرب غِيَرِه**)): اللفظ المحفوظ الذي رواه أبو داود وابن ماجه وغيرهما: ((**وقرب خَيْرِه**))؛ هذا.. اللفظ المحفوظ، ومعنى ((**غِيرِه**))؛ أي تغير حالٍ إلى حالٍ، وانتقال من شيء إلى آخر.

قوله:((**ينظر إليكم**)): فيه إثبات صفة النظر لله جل وعلا.

تقدم الحديث عن ذلك، والأدلة متواترة في هذا الباب، ولا يختلف أهل السنة في إثبات صفة الرؤية والنظر لله جل وعلا، إثبات صفة العينين لله جل وعلا؛ هذا كله مما اتفق عليه أهل السنة.

قوله: ((**أَزِلِين، قَانِطِين**)): الأَزِل: الشدة. ((**ينظر إليكم**)): أي لشدتكم، ((**قَانِطِين**))أي: مستبعدين.

((**فيظلُّ يضحك**)): فيه إثبات صفة الضحك لله جل وعلا.

((**يعلم**)): فيه إثبات صفة العلم لله جل وعلا.

((**أن فرَجَكُم قريبٌ**)): فيؤخذ من ذلك سعةَ فضل الله جل وعلا، وإثبات صفة الضحك، وليس كضحك المخلوق؛ تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا؛ فنثبت ذلك لله إثباتا بلا تمثيل، وتنزيهًا بلا تعطيلٍ.

وفيه ضرورة البعد عن استبعاد الفرَج، وضرورة تحسين الظن بالله جل وعلا، وأن فَرَجَ الله قريبٌ، وانتظار الفرج من العبادة، وفيه ضرورة التعلق بالله جل وعلا:

صعبت فلما استحكمت فُرِجَتْ وكنت أظنها لا تفرج

من القائل ؟ الشافعي. متى ولد الشافعي؟سنة ١٩٠هـ .وأين ولد ؟ قيل: في مكة. وقيل: في غزة. وأتت به والدته؛ أمه كانت حِميرِيَّة يمنيةً، فذهبت به ثم رجعت به،وقيل أنه وُلِدَ في اليمن، ثم خشيت والدته أن يندرس نسبه، فذهبت به إلى مكة ليطلب العلم و يجتهد في تحصيله. وقيل: ولد في غزة. أين تقع غزة ؟في فلسطين . متى توفي الشافعي؟ قيل: سنة مائتين وأربعين ؟كم عاش إذًا ؟ عاش أربعةً وخمسين عامًا، وهو أقل الأئمة بقاءً في الحياة رحمه الله، وﷺ وأرضاه.

إذا انقطعت أطماع عبدٍ عن الورى
تعلق بالرب الكريم رجاؤه
فأصبح حرًّا عِزةً وقناعةً
على وجهه أنواره وضياؤه
وإن علقت في الخلق أطماع نفسه
تباعد ما يرجو وطال عناؤه
فلا ترجُ إلا الله في الخطب وحده
ولا صح في خِل الصفاء صفاؤه

صفة الرجل

وَقَوْلُه ﷺ : ((لا تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلْقَى فِيهَا وَهِيَ تَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ حَتَّى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيهَا رِجْلَهُ)) - وَفِي رِوَايَةٍ:((عَلَيْهَا قَدَمَهُ)) فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَتَقُولُ((قَط قَط)) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

الشرح

الحديث الآخر: قوله ﷺ:((**لا تزال جهنم**)): هذا من أسماء النار، وأسماؤها كثيرة ..

((**لا تزال جهنم وهي مخلوقة**)):ولا يخلد في جهنم إلا الكافرون الذين حبسهم القرآن؛﴿**إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ**﴾.

((**يُلقى فيها**)): أي يقذف فيها على وجه الإهانة والتحقير من شأنهم؛ حيث خلقهم الله للعبادة، فعبدوا الأحجار والأوثان؛ خلقهم الله لتوحيده فوحدوا الشيطان، خلقهم الله لتعظيمه فعظموا المخلوق.

((**وهي تقول**)): هذا القولُ حقيقيٌّ، نؤمن بذلك؛ لأن النبي ﷺ أخبر عن ذلك؛ فلا يجوز دعوى المجاز في هذا، ولا إخراجٌ للفظ عن ظاهره، وقد حكى ابن عبد البر اتفاقا أن الأصل حملُ الألفاظ على حقائقها؛ لأنه لو حمل اللفظ على المجاز لادعى كل شخص في حقيقة الكلام أنه مجاز؛ فبالتالي لا يثق الناس بعضهم في بعض، ولا يفهم بعضهم كلام بعضٍ، ومن أراد أن يحرِّف النصوص قال: هذا مجازٌ؛ أنا لا أقصد حقيقة اللفظ. الأصل في اللفظ حمله على ظاهره.

((**هل من مزيدٍ**)): أي تطلب مزيدًا. وقد قال بعض الشراح: هل من مزيد: أي لا مزيد. وهذا غلط؛ الصواب: هل من مزيد؛ أي: هلا من مزيد؛ تطلب مزيدًا، وأنه فيه متسع في جهنم، الله جل وعلا يقولك ﴿**وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾،﴿**وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ**﴾، وفي الحديث القدسي؛ هو من أفضل أحاديث أهل الشام؛ حديث أبي ذر: أن النبي ﷺ قال فيما يروي عن ربه: ((**يا عبادي إني حرمتُ الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا**)).

((**حتى يضع**)): لم يقل: حتى يُلقى، كما تقدم من قوله يلقي أي الكفار في جهنم.

قال:((**حتى يضع ربُّ العزة**)): هذا من إضافة الموصوف إلى صفته؛ العزيز اسمٌ من أسماء الله، والعزة صفته:

وهو العزيز فلن يُرامَ جَنابه
أنَّى يرام جناب للسلطان

والعزيز القاهر الغلاب لم
يغلبه شيءٌ هذي صفتان
والعزيز بقوة هي وصفه
فالعز حينئذ ثلاث معان

ولذلك قال النبي ﷺ:((**قال الله تعالى: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني في واحدٍ منهما ألقيته في النار**)). رواه مسلم وابن حبان، واللفظ له، وغيرهما.

قوله: ((**فيها رِجْله**)): وفي رواية:((**حتى يضع رب العزة عليها قدمه**)) ، والقدم والرجل لفظان مترادفان، يجب إثباتهما لله جل وعلا؛ إثباتًا بلا تمثيلٍ، وتنزيهًا بلا تعطيلٍ.

وقد روى الدارمي عن ابن عباس بسندٍ صحيحٍ، قال في تفسير قول الله جل وعلا:﴿**وَسِعَ كُرْسِيُّهُ**﴾؛ قال:((**الكرسيُّ موضع القدمين**))، وأهل السنة متفقون على الإيمان بهذا، وهذا أمر لا مجال للاجتهاد فيه، ولا يتأتى لابن عباس أن يجتهد في هذه الأمور؛ فلا اجتهاد في مجال العقائد وصفات الرب جل وعلا؛ فنؤمن بذلك ونثبت لله ما أثبته لنفسه، وما أثبته له الرسول ﷺ، أو أجمع عليه المسلمون، وقد ذهب أهل البدع في هذا الحديث إلى أمور يضحك منها الصبيان، فقال بعضهم: الرجل مجاز. وقال آخر: رجله. أي: رجل الجراد، ويقولون أشياء من هذا القبيل؛ أشياء لا تمت للعقل ولا للنقل بصلة.

قوله:((**فينزوي بعضها**)) أي: ينزوي بعضها إلى بعض، ويقترب بعضها من بعض، حتى لا يبقى في النار موضع لأحد.

((**فتقول** – أي النار – **قَطْ قَطْ**)): أي حَسبي حسبي؛ يكفيني يكفيني.

وهذا الخبر متفقٌ على صحته، والشاهد فيه إثبات صفة القدم والرجل لله جل وعلا؛ فيجب إثبات ذلك إثباتا بلا تمثيل، وتنزيهًا بلا تعطيل؛ لأن النصوص صحت بذلك، ولذلك قال الشافعي رحمه الله: (فنؤمن بما جاء عن الله على مراد الله، ونؤمن بما جاء عن الرسول ﷺ على مراد الرسول ﷺ، ومن قال عن ذلك بأنه مجاز فقد غلط؛ هذه الأمور تثبت حقيقتها دون تمثيلٍ ودون تشبيه، ودون تعطيل).

صفة الكلام والصوت

وَقَوْلُهُ ﷺ:((يَقُولُ تَعَالَى: يَا آدَمُ فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ فَيُنَادِي بِصَوتٍ: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِن ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ)) مُتَّفقٌ عَلَيْهِ، وَقَوْلُهُ ﷺ:((مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إلاَّ سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ)).

الشرح

وقوله ﷺ:((**يقول الله جل وعلا: يا آدم**)). في إثبات صفة القول لله جل وعلا، قال الله جل وعلا:﴿**فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ**﴾. ويُثبتُ لله جل وعلا صفة الكلام، ويُثبت لله جل وعلا صفة الصوت، ويثبت لله جل وعلا صفة المناداة. وهذه كلها واردة في كتاب الله أو على لسان رسول الله ﷺ.

((**فيقول آدم: لبيك وسعْدَيك**)): لبيك: إجابة بعد إجابة، تَثنية؛ أي: أنا مقيم على طاعتك، ولا أخالف لك أمرًا.

((**فينادي بصوت**)): فينادي الرب جل وعلا بصوت؛ فيه إثبات صفة المناداة، قال الله جل وعلا: ﴿**وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ**﴾، وقال تعالى:﴿**وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ**﴾، وقال تعالى:﴿**وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ**﴾ فقوله:((**فينادي بصوت**)).

وفي حديث عبد الله بن أنيس، رواه البخاري معلقًا:((**يسمعه من بَعُد كما يسمعه من قَرُب**»؛ فإن صوت الرب لا يشابه صوت المخلوق؛((**يسمعه من بَعُد كما يسمعه من قَرُب**))! فلا إله إلا الله ! هذا دليل على عظمة الله، وعلى كبريائه، وعلى عظيم صفاته، وكبير قدره، وعظيم جلاله:﴿**وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**﴾، وفيه إثبات صفة الصوت لله جل وعلا.

قوله:((**إن الله يأمرك**)): إثبات صفة القول.

((**أن تُخرج من ذريتك بعثًا إلى النار**)): والخبر في الصحيحين: ((**فإنه يلقى في النار من كل ألفٍ تسعةٌ وتسعون وتسعمائة، وواحد إلى الجنة**)). وقد شق ذلك على الصحابة، فأخبرهم النبي ﷺ بأن أمة يأجوج ومأجوج ما كانتا في شيءٍ إلا كثرتاه. ويؤخذُ من هذا الحديث عظم أمة يأجوج ومأجوج وكثرتها، وأنهم كثيرون جدًّا؛ بدليل أن الخلق من آدم إلى أن تقوم الساعة، هؤلاء يكثرونهم ، وأنهم يلقون في النار مع غيرهم، وأنهم يكثرون أصحاب السعير، وأنه يُلقى في النار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون، وأن أغلب هؤلاء من أمة يأجوج ومأجوج.

يؤخذ من ذلك أن أمة يأجوج ومأجوج كفارٌ، ليسوا بمسلمين، ولكن لا يختلف العلماء أنهم من

ذرية آدم، وهذا ما اتفق عليه العلماء؛ فليسوا خلقًا آخر.

وفيه إثبات البعث، وفيه إثبات الجزاء والحساب أيضاً، وفيه إثبات خلق النار، وفيه فضيلة آدم، وهو من أنبياء الله جل وعلا، وهو أبو البشر.

وقوله ﷺ:((**ما منكم من أحدٍ**)): أحد: نكرة، تقدم الحديث عن لفظة: «أحد» في سياق الإثبات، والأصل في ذلك ألا تُطْلق إلا على الله، وأنها جاءت في القرآن على غير الله، ولكنه من الأمور النادرة.

((**ما منكم من أحد**)):((**أحد**)): نكرة، وقد جاءت في سياق النفي، وقد سبقتْ بـ«منْ» المفيدة للاستغراق في النفي؛ فهذا يفيد العموم، وظاهره يشمل المسلمين والكافرين. وهذا لا يُنافي قول الله جل وعلا:﴿**وَلَا يُكَلِّمُهُمُ**﴾، ولا يُنافي قول الله جل وعلا:﴿**وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ**﴾؛لأن هذه الأدلة يقول عنها أهل العلم:﴿**وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ**﴾ ونحو ذلك من الأدلة- أي على وجه الثواب والرحمة ونحو ذلك، ويثبتون لله صفة الكلام، ويثبتون لله صفة الرؤية، ويقولون: من لوازم ذلك أن الله جل وعلا لا يكلمهم كلام رحمة؛ فيقولون هذا الكلام تبكيت، وكلام تقريع، ونحو ذلك.

((**ما منكم من أحدٍ إلا سيكلمه**)): فيه إثبات صفة الكلام لله جل وعلا، وتقدم الحديث عن ذلك: قال الله جل وعلا:﴿**وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا**﴾؛ أكِّد الفعل بالمصدر، وأهل اللغة والبيان متفقون على أن الفعل حين يؤَكَّدُ بالمصدر ينتفي معه المجاز، وأن المقصود من ذلك الحقيقة، فبطل بذلك ما تقوله الجهمية؛ حيث يدَّعون في ذلك المجاز، أو أن موسى هو الذي كلم الله جل وعلا؛ قال الله جل وعلا:﴿**وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ**﴾، والكلام من الله جل وعلا من الصفات الذاتية الفعلية؛ بمعنى أنه يتكلم متى شاء، إذا شاء، ويكلم من شاء من أنبيائه ورسله. ويوم القيامة ما من أحد إلا سيكلمه ربه جل وعلا، ليس بينه وبينه ترجمان؛ لأنه في الدنيا قد يكون في الكلام بينه وبينه واسطة، كما قال الله:﴿**وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ**﴾.هذا الشاهد: ﴿**يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ**﴾،﴿**فَيُوحِيَ**﴾ أي: يوحي هذا الرسول،﴿**بِإِذْنِهِ**﴾ أي: بإذن الله جل وعلا، ﴿**مَا يَشَاءُ**﴾، فيبلغ بإذن الله ما يشاء.

صفات العلو والمعية والقرب والرؤية

وَقَوْلُهُ ﷺ فِي رُقْيَةِ الْمَرِيضِ:((رَبَّنَا اللهَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ، تَقَدَّسَ اسْمُكَ، أَمْرُكَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، كَمَا رَحْمَتُكَ فِي السَّمَاءِ اجْعَلْ رَحْمَتَكَ فِي الأَرْضِ، اغْفِرْلَنَا حُوبَنَا وَخَطَايَانَا، أَنْتَ رَبُّ الطَّيِّبِينَ، أَنْزِلْ رَحْمَةً مِنْ رَحْمَتِكَ، وَشِفَاءً مِنْ شِفَائِكَ عَلَى هَذَا الْوَجِعِ؛ فَيَبْرَأَ)) حَدِيثٌ حَسَنٌ، رَوَاهُ أَبُو دَاوُد وَغَيْرُهُ. وَقَوْلُهُ ﷺ :((أَلاَ تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ)) حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

وَقَوْلُهُ ﷺ: ((وَالْعَرْشُ فَوْقَ المَاءِ، وَاللهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، وَهُوَيَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ)) حَدِيثٌ حَسَنٌ. رَوَاهُ أَبُو دَاوُد وَغَيْرُهُ. وَقَوْلُهُ لُلْجَارِيَةِ:((أَيْنَ اللهُ؟)) قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ. قَالَ:((مَنْ أَنَا؟)). قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللهِ. قَالَ:((أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ)) رَوَاهُ مُسْلِمٌ. وَقَوْلُهُ ﷺ:(أَفْضَلُ الإِيمَانِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللهَ مَعَكَ حَيْثُمَا كُنْتَ)). حَدِيثٌ حَسَنٌ. وَقَوْلُهُ ﷺ:((إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ إِلَى الصَّلاةِ؛ فَلاَ يَبْصُقَنَّ قِبَلَ وَجْهِهِ، وَلاَ عَنْ يَمِينِهِ؛ فَإِنَّ اللهَ قِبَلَ وَجْهِهِ، وَلَكِنْ عَنْ يَسَارِهِ، أَوْ تَحْتَ قَدَمِهِ)) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. وَقَوْلُهُ ﷺ:((اللهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَالأَرْضِ وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى، مُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنَ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّنَفْسِي وَمِنْ شَرِّكُلِّ دَابَّةٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا، أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُفَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ؛ اقْضِ عَنِّي الدَّيْنَ وَأَغْنِنِي مِنَ الْفَقْرِ)) رِوَايَةُ مُسْلِمٌ. وَقَوْلُهُ ﷺ لَمَّا رَفَعَ الصَّحَابَةُ أَصْوَاتَهُمْ بِالذِّكْرِ:((أَيُّهَا النَّاسُ! أَرْبِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ لاَ تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلاَ غَائِبًا، إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا قَرِيبًا، إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ)) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَقَوْلُهُ ﷺ: ((إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَلَيْلَةَ الْبَدْرِ، لاَ تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن لاَّ تُغْلَبُوا عَلَى صَلاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَصَلاةٍ قَبْلَ غُرُوبِهَا؛ فَافْعَلُوا)) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ، إِلَى أَمْثَالِ هَذِهِ الأَحَادِيثِ الَّتِي يُخْبِرُفِيهَا رِسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ رَبِّهِ بِمَا يُخْبِرُبِهِ.

الشرح

وقوله ﷺ في رقية المريض:((**ربنا الله الذي في السماء**)):

((**ربنا الله**)): مبتدأ وخبر؛ فيه إثبات توحيد الربوبية.

((**الذي في السماء**)): فيه إثبات صفة العلو لله جل وعلا؛ توحيد الأسماء و الصفات.

((**تقدس اسمك**)): تقديس التعظيم.

((**أمرك في السماء والأرض**)): قال الله جل وعلا:﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾،

وقال تعالى:﴿**أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ**﴾.

((**كما رحمتك في السماء اجعل رحمتك في الأرض**))، والله جل وعلا عنده مائة رحمة؛ أنزل رحمة واحدة في الأرض، واختزن عنده تسعة وتسعين ليوم القيامة. فيه إثبات صفة الرحمة لله جل وعلا، وقوله:((**اغفر لنا**)) فيه إثبات صفة المغفرة لله جل وعلا.

((**حُوبنا**)): الحوب: الذنب.

((**وخطايانا**)): أي إسرافنا في أمرنا.

((**أنت رب الطيبين**)): الله رب الطيبين وأكرم الأكرمين، وأجود الأجودين.

((**أنزِل رحمة من رحمتك، وشفاء من شفائك على هذا الوجع**)): يُقرأ:(الوجِع)؛ و(الوجَع)؛ إذا قيل:(الوجِع) فيعني بذلك المريض؛ قال عنه الإمام البخاري رحمه الله تعالى:(مُنكرُ الحديث). وقال نحو ذلك كثيرٌ من الأئمة، ولكن ليس في الحديث لفظة من ألفاظه إلا ولها ما يدل عليها، وإن كان المفروض أن نستخدم الأحاديث الصحاح على الأحاديث الضعاف.

قوله ﷺ:((**ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء**)) هذا جزء من حديث متفق على صحته، أراد شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى- من هذا الحديث الشاهد منه، والقصد من ذلك إثبات علو الله على خلقه فإن الله -جل وعلا- فوق سماواته مستوٍ على عرشه، فقوله: ((**ألا**)) أداة استفتاح، ((**تأمنوني**)) الأمانة تتمثل بأمرين؛ الأمر الأول: أداء حق الله على الوجه المطلوب، الأمر الثاني: أداء حقوق العباد؛ كحفظ أماناتهم وصيانة أعراضهم وكف الأذى عنهم.

وقد وُصف النبي ﷺ قبل الرسالة بالأمانة ولم يكن أحد من الكفار يختلف فيه بهذا الأمر، وكانوا يسمونه بالأمين؛ فذهب الأمين وجاء الأمين، وقد أثبت النبي ﷺ هذا الأمر وحث الناس على الصدق والأمانة وأداء الحقوق إلى أهلها، وقال الله -جل وعلا- لنبيه وللمؤمنين ﴿**وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا**﴾ .

جعل النبي ﷺ الخيانة علامة على النفاق فقال ﷺ:((**آية المنافق ثلاث**؛ (من ذلك) **إذا أؤتمن خان**))الخبر في الصحيحين، وأثنى النبي ﷺ على أبي عبيدة بقوله:((**لكل أمةٍ أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح**)) حديث صحيح.

النبي ﷺ عاب الذين يحاولون التشكيك في أمانته؛ فالمنافق الذي قال: اعدل يا محمد، فقال له النبي ﷺ ((**خبتَ وخسرتَ إن لم أعدل**)) أو قال:((**خبتُ وخسرتُ إن لم أعدل**))، والأكثرون على لفظة **خبتَ وخسرتَ** أي خبتَ وخسرتَ إن لم أكن عادلاً، ومن ذلك الآخر الذي قال للنبي ﷺ أن كان ابن عمتك؟ حينما قضى عليه النبي ﷺ -خوّنه؛ قال أن كان ابن عمتك؟ فأنزل الله في ذلك ﴿**فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾

قوله ((**وأنا أمين**)) فيه جواز وصف الرجل بما هو فيه لبيان الحقيقة وواقع الحال، كما صنع نبي الله يوسف، وكما قال النبي ﷺ:((**أنا سيد ولد آدم**))، وكما قال في هذا الخبر:((**وأنا أمين من في السماء**))

قوله:((**من في السماء**)) أي الذي في السماء، وقد أعجز هذا الحديث وأعيا أهل البدع؛ فلا يقدرون على تحريفه، ولا على ليه، ولا على صرفه عن ظاهره؛ كما يفسرون الأحاديث الأخرى بالمجاز أو بغير ذلك، فالنبي ﷺ أخبر أنه أمين من في السماء، فلا يصح أن يقال أنه أمين الملائكة، أو أنه أمين باللفظ دون المعنى، أو بغير ذلك، فهذا الخبر من الأحاديث الصحيحة الصريحة في إثبات علو الله على خلقه، صحيح أنه برد في اللغة إطلاق السماء على كل ما علا، كما قال الله -جل وعلا- ﴿**أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ**﴾ أي العلو، إشارة إلى شجرة، نخلة، ولكن النبي ﷺ يذكر أنه أمين لله -جل وعلا- لأن الله -جل وعلا- استأمنه على الرسالة.

قال الله -جل وعلا- ﴿**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ**﴾ وفيه إثبات علو الله على خلقه، ولا يختلف

في ذلك المسلمون، وقد فطر الله عباده على ذلك، وأقرت بذلك كل الأمم، ولم ينكره إلا من اجتالته الشياطين عن فطرته، فأنكر ما أذعنت له الدواب والطيور والحشرات وغيرها، وحين استطرد الإمام ابن القيم -رحمه الله تعالى- في **(اجتماع الجيوش الإسلامية)** على إثبات علو الله على خلقه بأدلة الوحيين، كرر الحديث عن إثبات ذلك، بالأدلة الواردة عن الدواب والطيور والحشرات ونحو ذلك، حتى النملة رآها سليمان رافعة قوائمها إلى السماء تستقي.

وأهل البدع ينازعون في إثبات علو الذات، وهو المحج بين أهل السنة وأهل الضلال، فقد فطر العبد على أن ربه في السماء، بمجرد أن تلم به ملمة يرفع طرفه إلى السماء يا ربي يا ربي يا ربي.

ويؤخذ من ذلك توافق الفطرة والنقل على إثبات العلو، ويؤخذ من ذلك إثبات الرسالة للنبي ﷺ لقوله:((**وأنا أمين من في السماء**)) ويؤخذ من ذلك إثبات الفعل للعبد، ويفهم من ذلك إثبات الوحي، ويؤخذ من ذلك عظم أمر الأمانة، قال الله -جل وعلا:﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا**﴾.

وقوله:((**والعرش فوق الماء والله فوق العرش وهو يعلم ما أنتم عليه**)) هذا الخبر جاء بنحوه مرفوعاً من حديث العباس وهو حديث ضعيف، **وصح هذا موقوفاً** من طريق حماد بن سلمة وابن المهدي وآخرين عن عاصم بن أبي النجود عن زر بن حبيش عن عبد الله بن مسعود، ورجاله لا بأس بهم، وقد صححه غير واحد من العلماء، والموقوف له حكم المرفوع لأنه لا مجال للاجتهاد في مثل هذا، ولا سيما قوله والعرش فوق الماء.

فقوله:((**والعرش فوق الماء**)) فيه إثبات العلو، وفيه إثبات العرش، وفيه إثبات استواء الله على عرشه، قال تعالى:﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**﴾ والاستواء يطلق على الاستقرار وعلى العلو وعلى الارتفاع وعلى الصعود، وأشار إلى هذه المعاني بن القيم -رحمه الله تعالى- في نونيته فقال:

فلهم عبارات عليها أربعٌ	قد حصلت للفارس الطعان

وهي استقر وقد علا وكذلك ار	تفع الذي ما فيه من نكران
وكذاك قد صعد الذي هو رابع	وأبو عبيدة صاحب الشياني
يختار هذا القول في تفسيره	أدرى من الجهميّ بالقرآن

قوله: ((**فوق الماء**)) فيه بيان أن تحت العرش الماء، وقد تقدم الحديث على أنه بين كل سماء وسماء خمسمائة عام، وكل سماء محروسة بالملائكة، فجبريل على منزلته وكبير قدره حين صعد بالنبي ﷺ ليلة الإسراء لا يدخل سماءً ولا يتجاوزها إلا بالاستئذان؛ كما في الصحيحين؛ البخاري ومسلم، حين استفتح:((**قيل له من معك،قال معي محمد، قيل أوَ أرسل إليه، قال جبريل نعم، فقالوا مرحباً، ففتح له**)) وعند السماء الثانية صنع به مثل ما صنع في الأولى.

قوله: ((**والله فوق العرش**)) فيه إثبات العلو لأن الله –جل وعلا– موصوف بذلك، وأنه مستوٍ على عرشه، ولا يختلف الأئمة في ذلك، فقد فطرهم الله عليه، قام ابن القيم –رحمه الله تعالى– في سرد مذاهب الصحابة والتابعين والأئمة المتبوعين في هذا الأمر، حتى وصل إلى قول أبي حنيفة النعمان وإلى قول أصحابه، لأن بعض المنتسبين إلى أبي حنيفة الماتريدية وهؤلاء في الفقه على مذهب أبي حنيفة، لكنهم في العقائد على مذهب الجهمية؛ فهم يقلدون أبا حنيفة في الفقه، ويأخذون العقائد عن الماتريدي، العلماء لا يختلفون في هذا الباب، وحين يختلفون فالمرد في ذلك إلى الكتاب وإلى السنة، قال الله –جل وعلا– ﴿**اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ**﴾ وقد قال النبي ﷺ: ((**إنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة**)) حديث جيد رواه أبو هريرة ولذلك قال سفيان:(إن استطعت ألا تحك رأسك إلا بأثر فافعل)، فهؤلاء المبتدعة لا يعتقدون إلا بما يقوله الأشعري أو الماتريدي، قال ابن القيم:

وكذلك النعمان قال وبعده	يعقوب والألفاظ للنعمان
من لم يقر بعرشه سبحانه	فوق السماء وفوق كل مكان
ويقر أن الله فوق العرش لا	تخفى عليه هواجس الأذهان
فهو الذي لا شك في تكفيره	لله درك من إمامِ زمانِ

قوله:﴿**قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ**﴾ فيه بيان عظمة الله، وفيه إثبات صـــفة العلم لله -جل وعلا- وأنه يعلم ما كان وما يكون وما لو كان كيف يكون، لا يخفى عليه شـــيء في الأرض ولا في الســـماء مهما دقَّ ومهما صـــغر ولو كان في قعر البحار، فإن الله يعلمه ويعلم ما في جوفه، قال الله -جل وعلا- ﴿**لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَـيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَـيْءٍ عِلْمًا**﴾ وقال ابن القيم -رحمه الله تعالى-:

وهوالعليم أحاط علما بالذي	في الكون من سر ومن إعلان
وبكل شيء علمه سبحانه	فهو العليم وليس ذا نسيان

ويرى دبيب النمل على الصخرة السوداء في ظلمة الليل، ويسمع دبيبها ولا يخفى عليه شيء، قال الله -جل وعلا- ﴿**أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ**﴾ وهذا يبعث على التقوى والإيمان والبعد عن الغيبة والنميمة والسخرية من الآخرين فإن الله -جل وعلا- مطلع على ذلك ولا يخفى عليه شـيء، وإذا كان الإنسـان لا يتجاسـر أن يغتاب أحداً أو ينم به بحضـرة المغتاب ،فإن الله -جل وعلا- يســمعه ويراه ويبصــره ويشــاهده، فيجب الحياء من الله ومراقبته، فهذه حقيقة الإحســان؛ أن تعلم أن الله معك حيثما كنت؛ أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، ومن جميل كلام جعفر الصادق:(لا تجعل الله أهون الناظرين إليك) أي المطلعين عليك.

وفيه إثبات صفة العلم لله -جل وعلا.

قوله في الحديث الحسن رواه أبو داود وغيره، وتقدم أن الصواب وقفه على ابن مسعود.

وقوله ﷺ للجارية:((**أين الله**)) قالت: في السـماء، قال:((**من أنا**)) قالت:أنت رسـول الله، قال: ((**أعتقها فإنها مؤمنة**)) هذا الخبر رواه مسلم في صحيحه، وقد جزم الحافظ الذهبي -رحمه الله تعالى- في كتابه العلو بأنه متواتر، مع أنه لم يروه عن النبي ﷺ إلا معاوية بن الحكم السُلمي، فقد قصد بالتواتر المعروف عن أئمة السلف؛ وهو ما ثبت إسناده وتلقاه العلماء بالقبول، بخلاف اصطلاحات المتأخرين والمتكلمين.

فهم يذكرون للمتواتر أربعة شروط:

الشرط الأول: أن يرويه عدد كثير،

الشرط الثاني: أن تكون الكثرة في جميع طبقات السند،

الشرط الثالث: أن تحيل العادة تواطؤهم على الكذب،

الشرط الرابع: أن يكون مستند خبرهم الحس؛ كقولهم سمعنا ولمسنا وشممنا ونحو ذلك.

فهذه أربعة شروط للمتواتر عند عدد من المتأخرين والمتكلمين والأشاعرة وغيرهم من أهل البدع، وأهل السنة لا يقولون بذلك ولا يقرون به، وإن جرى في بعض كتبهم استقاء من أهل البدع فهذه غفلة، ولقد التزم **الإمام أحمد** وغيره أن المتواتر هو ما ثبت إسناده إلى رسول الله ﷺ وتلقاه العلماء بالقبول، وحديث الجارية تلقاه العلماء بالقبول، وقابلوه بالتسليم، وليس له أي علة، وقد رواه مسلم من حديث معاوية بن الحكم السلمي، وهو من الأحاديث التي شرق بها أهل البدع، وسعوا جاهدين لتضعيفه أو حمله على المجاز، وقد قال النبي ﷺ للجارية ((**أين الله**)) امتحنها في إيمانها حين دعت الحاجة إلى الاختبار والامتحان؛ قال لها النبي ﷺ:((**أين الله**))،الجهمي لا يقر به ،وإذا قيل له أين الله قال في كل مكان، هو في كل مكان بمعنى بعلمه وبقدرته وبإحاطته، الجهمي يحاول أن يوهمنا بالجواب وألا يقر بذلك.

النبي ﷺ حين خطب الناس في عرفات في أعظم مجمع اجتمع فيه رسول الله ﷺ بأمته فكان يقول: ((**اللهم فاشهد يرفع إصبعه إلى السماء ويخفضها**)) يرفع إصبعه إلى السماء ثم إلى الأرض، اللهم اشهد؛ يشير إلى ربه وأنه في العلو، الجهمية يمتنعون من الإشارة إلى الله –جل وعلا– بالإصبع يقولون هذا من التحديد، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، وهذا أثر من الآثار اسمه التلقي عند أهل البدع من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة والماتريدية والكرامية وأتباع هؤلاء من أهل الضلال الذين تغيرت فطرهم ،وانتكست أفهامهم، يتلقون على العقل ويتلقون على أهل البدع، لذلك أهل السنة يوصون بالتلقي على أهل السنة، ويحذرون من الأخذ عن أهل البدع، هؤلاء لا يميزون بين السني وبين الرافضي، بين السني وبين الجهمي، كما قال ابن سيرين: (إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم) رواه الإمام مسلم –رحمه الله تعالى– في مقدمة صحيحه، ويعرف الطالب بشيخه وبتمسكه وبعلمه وبقول الحق وباتباعه للسنة، وبمجاهدة أهل البدع والضلال الذين يلبسون على الناس ،ويريدون أن يجعلوا من الحق باطلاً ومن الباطل حقاً.

وقد حذر منهم النبي ﷺ وقال لعائشة:((**إذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منهم فاحذريهم، فأولئك الذين سمى الله،﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾**)) والخبر متفق على صحته، وقد كان أئمة السلف حين يرون الطالب يرتاد أماكن أهل البدع يَحْذرونه ويُحَذِرونه، وكانوا يقولون للذين يجالسون أهل البدع، ويتلقون عنهم هؤلاء يريدون الجمع بين الحق وبين الباطل، ولم يقتصروا على هذا فيما بعد،فقد أصبحوا يجالسون الكفار، يجالسون المرتدين، يجالسون الذين يريدون أن تكون بلاد المسلمين بؤرة فساد ومرتع غيلة تحت غطاء حرية الرأي وحرية التسامح والسماع والربط بين الآخر، فهم ليسوا من العلماء ولا من طلبة العلم ولا من أهل الحل والعقد فهم يستقبلون ولا يستدبرون، وأصحاب هذا الفكر العفن ضلوا ضلالاً بعيداً وأصبحوا يتلقون ثقافة الضلال

يريدون جلبها لبلاد المسلمين، فهم لا يكتفون بضلالهم؛ بل يريدون أن تضلوا سواء السبيل.

فالآن يأتون بالكفر بمسمى حرية الأديان، يأتون بالبدع والضلالات بمسمى حرية الرأي، يجالسون الكفار والمرتدين تحت غطاء روح التسامح، يحاربون الجهاد والمجاهدين تحت مسمى حرب التطرف والعنف والإرهاب؛ وهم أهل الإرهاب وحماته، ولكنه إرهاب من وجه آخر؛ إرهاب منظم : الصحافة والإعلام وغير ذلك.

النبي ﷺ-نرجع للحديث- قال للجارية:((**أين الله**)) قالت: في السماء، فيه إثبات العلو لله على خلقه، وفيه بيان أن الله -جل وعلا- قد فطر العباد على ذلك، وفيه جواز امتحان الناس في عقائدهم حين تدعو الحاجة لذلك؛ وإلا فسؤال الناس بدون مسوغ ولا مبرر هذا ضرب من الخبال؛ مثلاً الإنسان إذا لقي شخصاً قال له ماذا تعتقد؟ وما هو دينك؟ هذا ضرب من الجنون والخبال، لكن حين تدعو الحاجة إلى ذلك فلا حرج.

ولذلك ابن تيمية حينما سأله الناس عن عقيدته فكتب العقيدة الواسطية، وكذلك الإمام محمد بن عبد الوهاب حينما سأله أهل القصيم عن عقيدته أرسل لهم عقيدته وهي موجودة في أوائل الدرر، كذلك الطحاوي في العقيدة الطحاوية، وغير ذلك من الكتب المؤلفة في هذا الباب.

ثم قال النبي ﷺ للجارية:((**من أنا**)) قالت:أنت رسول الله. فالأول لشهادة أن لا إله إلا الله، والثاني لشهادة أن محمداً رسولُ الله، فمن أقر بهذا دون ذاك فليس مؤمن. قال ﷺ:((**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله**)) وفي تفسير قول الله -جل وعلا- ﴿**وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ**﴾لا يذكر الله إلا ومعه رسوله محمد ﷺ.

قال ﷺ:((**اعتقها فإنها مؤمنة**)) هذا من شروط عتق الرقبة ؛ فلا يصح عتق الرقبة إلا إذا كانت مؤمنة، فمن قتل نفساً خطأً، فلا يصح أن يعتق نفساً كافرة، لا يكفر ذلك إلا أن يعتق نفساً مؤمنة ذكرا أو أنثى.

وقوله ﷺ:((**أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيثما كنت**)) هذا الخبر في إسناده ضعف؛ فقد جاء من رواية نعيم بن حماد الخزاعي وهو سيئ الحفظ، وقد أعرض عنه الشيخان عمداً، وقال عنه النسائي -رحمه الله-كثر تفرده عن الأئمة المعروفين فصار إلى حد من لا يحتج بخبره، وقال عنه أبو داود يروي أحاديث ليس لها أصل، وفي إسناده أيضاً عثمان وهو غير معروف، وفي الباب غير ذلك من الأحاديث الصحاح، وأن تعلم أن الله معك حيثما كنت هذا هو الإحسان،أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه ، فأنه يراك؛ هذا جاء في صحيح مسلم من حديث ابن عمر -رضي الله عنهما- فيما يرويه عن أبيه.

الإيمان ما هو؟ هو قول وعمل؛ قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح؛ قول القلب هو اعتقاده، وعمل القلب هو خوفه ورجاؤه وحبه وولاؤه وبراؤه.

قوله:((**أن تعلم أن الله معك**)) أيضاً؛لأن من علم أن الله معه حيثما كان بصدق وإخلاص زاد إيمانه، وصقل قلبه، وابتعد عن كل ما يسخط الله، لأنه ما من عبد يعصي الله إلا لضعف إيمانه بالغيب؛ والدليل على هذا أنه لا يزني زان وهو يزني بحضرة أبيه أو بحضرة صديقه، ولكن حين ينفرد قد يفعل،والله يراه،ويشاهده ،ويبصره ،وهذا دليل على ضعف إيمانه بالغيب، فمقتضى الإيمان بأن الله معك حيثما كنت أن يبعث هذا على الورع والخشية والتقوى، قال الله -جل وعلا- ﴿**وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ**﴾لا ترهب من مخلوق فإن المخلوق لن يغني عنك من الله شيئاً، اتق الله حيثما كنت، قل آمنت بالله ثم استقم، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لن ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لن يضروك إلا بشيء قد كتبه عليك، رفعت الأقلام وجَفت الصحف.

فقوله صلى الله عليه وسلم ((**إذا**)) إذا ظرف لما يستقبل من الزمان، ((**فإن أحدكم إذا قام للصلاة**)) فريضة أو نافلة ((**فلا يبصقن**)) ((**لا**)) ناهية، والأصل في النهي أن يكون للتحريم، والبصاق هو التفل، ((**قبل وجهه**)) فيحرم على المصلي أن يبصق أو يتفل قبل وجهه، لأن النبي ﷺ نهى عن هذا، فما نهى

عنه النبي ﷺ ولم يرد ما يخرج النهي عن ظاهره فإنه للتحريم، قوله:((**ولا عن يمينه**)) أي ويحرم البصاق عن اليمين.

وهذا الحكم مقيد بالصلاة بقول طائفة من العلماء، وذهب آخرون إلى أن هذا لا يختص بالصلاة ، وهذا مذهب طائفة من العلماء لقوله صلى الله عليه وسلم:((**من تفل تجاه القبلة جاء تفلُه بين عينيه يوم القيامة**)) صححه بن خزيمة، ولما روى أبو داود في سننه من حديث السائب: أن رجلاً بصق تجاه القبلة فقال النبي ﷺ:((**لا يصلي بكم هذا**))، فحين حضرت الصلاة تقدم ليصلي بهم، فمنعه قومه ، وأخبروه بأن النبي ﷺ منعه من الإمامة، وحين قضيت الصلاة ذهب إلى النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ: ((**إنك آذيت الله ورسوله**)) رواه أبو داود وغيره.

فهذا والذي قبله في باب منع البصاق تجاه القبلة في صلاة أو غيرها ، وهذا أحوط وأبرأ للذمة ، فإن الأورع الذي يخرج من خلافهم ولو ضعيفاً فاستبنِ.

قوله:((**فإن الله قبل وجهه**)) أخذ العلماء من هذه العلة أن الحكم لا يختص بالصلاة؛ فإن الله قبل وجه المصلي وغير المصلي؛ فحينئذ يمتنع البصاق تجاه القبلة ، ويمتنع البصاق عن اليمين في بعض الروايات فإن عن يمينه ملكين.

قوله:((**ولكن عن يساره**)) أخذ بعض العلماء من الحديث جواز البصاق في المسجد لأن الذي قام يصلي لم ينه أن يبصق عن اليسار، وهذا حين كانت المساجد ترابًا؛ يبصق على التراب فذهب أكثر العلماء إلى تحريم هذا في المسجد ، أو في أماكن المسلمين العامة ؛ لأن هذا يُقذرها، وحين يفسح هذا المجال لا يكاد يجد المصلي موضعاً يصلي فيه من كثرة البصاق بل وقد ينتن المسجد، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم:((**البصاق في المسجد خطيئة ،وكفارتها دفنها**))، وهو في الصحيحين ، وقوله صلى الله عليه وسلم :((**ورأيت في سيئ أعمالها النخامة في المسجد لم تدفن**)) فيجب تنزيه المساجد عن البصاق والنخامة والتفل ونحو ذلك مما يقذر سواء كانت المساجد مفروشة أو ترابية ، ويجب حمايتها وصيانتها

والعناية بنظافتها وتهيئتها للمصلين،بل يشرع تطييبها وتجميرها والعناية بها، ونعيم المجمر سمي بذلك لأنه كان يجمر مسجد رسول الله ﷺ.

قوله ((**أو تحت قدمه**)) وفي رواية ((**ولكن عن يساره وتحت قدمه**)) فيه التفريق بين البصاق تجاه القبلة وتحت القدم، وهذا الحديث أحد الأحاديث المتفق على صحتها.

الشاهد فيه ((**فإن الله قبل وجهه**)) وهذا لا ينافي علوه واستواءه على عرشه، فمعية الله -جل وعلا- لخلقه لا تنافي علوه واستواءه على عرشه، فإن الله -جل وعلا- فوق سماواته مستوٍ على عرشه ، وهو قبل وجه كل مصلٍ، ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾.

وقوله صلى الله عليه وسلم: ((**اللهم رب السماوات السبع**)) ((**اللهم**)) مجمع الدعاء ومن قال : اللهم ، فكأنما قال : اللهم إني أسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العلى .

((**رب السماوات**)) قيل الرب هنا بمعنى الخالق، أي اللهم خالق السماوات والأرض، وقيل الرب هنا بمعنى المالك ،أي اللهم مالك السماوات والأرض،ولا مانع أن يكون الرب يشمل المعنيين؛ فإن الله -جل وعلا- قال عن نفسه ﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾ والقراءة الأخرى ﴿**ملك يوم الدين**﴾و﴿**خالق كل شيء**﴾.

((**رب السماوات و الأرض**)) تقدم أن الاتفاق قائم على أن الأرض خلقت قبل السماء، ولكن تُقدم السماء على الأرض لأنها أشرف.

قوله:((**السماوات السبع**)) لا يختلف العلماء في ذلك؛ أن السماوات سبع، وأن لكل سماء حراسًا يحرسونها، لأن السماء لها أبواب ،فحين أسري بالنبي ﷺ لم يتجاوز النبي ﷺ سماءً حتى يفتح له ، ويُسأل جبريل من معك؛ والحديث متفق على صحته.

قوله ﴿والأرض﴾ الله جل وعلا قال ﴿**وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ**﴾ أي خلق سبع أراضين ﴿**يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا**﴾ وقال النبي ﷺ: «**من**

ظلم شـبراً من الأرض طوقه يوم القيامة من سـبع أراضـين» ما قال أقاليم، بل قال أراضـين، إذاً فالسماوات سبع ، والأراضون سبع.

قوله:((ورب العرش العظيم)) وصف العرش بالعظمة، وهذا دليل على عظم خلقه وكبير حجمه.

قوله:((ربنا ورب كل شيء)) أي يا ربنا، توسل إلى الله –جل وعلا– ورب كل شيء لا يخرج شيء عن ربوبية الله، ولا عن ملك الله ، ولا عن قدرة الله ، ولا عن خلق الله، ﴿**اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ**﴾ ﴿**إِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾ وقال تعالى: ﴿**أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ**﴾ فرق الله –جل وعلا– بين الخلق وبين الأمر، وهذا من أقوى الأدلة عند أهل السـنة على إثبات صـفة الكلام لله –جل وعلا– ولذلك قال سـفيان (من قال إن كلام الله مخلوق فإنه كافر لأنه جمع بين ما فرق الله) قال الله:﴿**أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ**﴾) فالله –جل وعلا–فرق بين الخلق والأمر، وهذا يقول إن الخلق والأمر واحد، قال تعالى عن أمره ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾ ما قال فيخلقه،((**أن يقول**)) فيه إثبات صفة القول لله تعالى.

قوله:((**فالق الحب والنوى**)) إشارة إلى عظيم خلقه وعلمه بكل شيء ، وأنه لا يخرج شيء عن علمه ، صغر أو عظم ، دق أو جلَّ ، فالذي خلق السماوات السبع والأراضين السبع هو الذي خلق الحب والنوى ،فحصلت منه الزروع والثمار مما يأكل الناس والأنعام.

قوله:((**منزل**)) يجوز التشـديد والتخفيف؛ مُنْزِل ويجوز مُنَزِّل، وقد فرق بينهما بعض العلماء؛ فقالوا مُنْزِل على دفعة واحدة ، ومُنَزِّل على وزن التفريق.

((التوراة)) نزلت على موسـى و((الإنجيل)) على عيسـى و((القرآن)) على محمد ﷺ، فهذه الكتب المَنَزَّلة كلام الله، لا يختلف العلماء في ذلك وأهل السـنة والجماعة يثبتون ذلك، وأن الله –جل وعلا– يتكلم متى شاء إذا شاء، لا يعجزه شيء ولا يؤوده شيء ، فصفة الكلام من صفات الكمال لله –جل وعلا– وهي صفة ذاتية من وجه وصفة فعلية من وجه آخر.

قوله: ((**أعوذ بك من شر نفسي**)) ((**أعوذ**)) أي ألوذ وألتجأ، ((**من شر نفسي**)) لأن النفس مجبولة على وجود الشر فيها، ولا ملجأ ولا منجى من الله إلا إليه ، وكان من دعاء النبي ﷺ:((**اللهم آت نفسي تقواها،وزكها أنت خير من زكاها،أنت وليها ومولاها**)) رواه مسلم، وكان من دعائه صلى الله عليه ومسلم:((**اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى**)) رواه مسلم، وكان صلى الله عليه وسلم يقول:((**إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا**)).

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى-:

وسل العياذ من اثنتين هما اللتا	**ن بهلك هذا الخلق كافلتان**
شر النفوس وسيئ الأعمال ما	**والله أعظم منهما شران**
ولقد أتى هذا التعوذ منهما	**في خطبة المبعوث بالقرآن**
لو كان يدري العبد أن مصابه	**في هذه الدنيا هما الشران**
جعل التعوذ منهما ديدانه	**حتى نراه داخل الأكفان**

فلا يحصل من العباد كفر ولا فسوق ولا ضلال ولا حسد ولا بغي ولا إعجاب إلا بسوء أنفسهم ، فهم في حاجة إلى إصلاح بواطنهم، وكذلك صُرفوا عن عيوب الآخرين.

قوله:((**ومن شر كل دابة أنت آخذٌ بناصيتها**)) ((**دابة**)) أي ما يدب على الأرض من الآدميين وغيرهم ، ففيه اللجوء إلى الله والاستعانة به (من شر كل دابة الله آخذٌ بناصيتها) إذا كانت الدابة مأخوذٌ بناصيتها ، فحينئذ لا يلجأ العبد إلى المخلوق ، ولعلق قلبه وآماله بالخالق، لأن هذا المخلوق الذي تلتجأ إليه ، وتفوض أمرك إليه - ناصيته بيد الله لا حول له ولا قوة له إلا بالله، وهذا يبعث على التعلق بالله ، وعلى خوفه ومحبته ورجائه، قال تعالى:﴿**وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا**﴾، ﴿**وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا**﴾، ﴿**أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ**﴾.

قوله:((**أنت الأول**)) وهذا يغني عن وصـــف الله -جل وعلا- بالقديم؛ فالأول اسمه -جل وعلا- وصفته بخلاف القديم من محدثات المتكلمين ، فلم يصف الله -جل وعلا- نفسه بالقدم، ولا وصفه به رســـوله محمد ﷺ ، ولكن الأول أعم وأشمل وأبلغ من القديم، وقد يُخبر عن الله -جل وعلا- بالقدم ، لكن لا يسـمى ولا يوصـف ، لأن هذا ليس له أصـل، وأما قوله ﷺ:((**وسـلطانه القديم**)) فهذا وصـف للسلطان.

قوله:((**فليس قبلك شيء**)) أي: كان الله ولم يكن شـيء قبله ، ولا شـيء معه ، فهو الأول فليس قبله شــيء ، وهو الآخر أي هو الذي يبقى ، وهو الوارث فليس بعده شــيء، وهو الظاهر فليس فوقه شـيء، الظهور هو العلو؛ لا شـيء فوق الله ، ففيه إثبات صـفة العلو لله -جل وعلا-، والظاهر اسـم من أسماء الله.

قوله:((**وأنت الباطن فليس دونك شــيء**)) وهو أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته، وهذا لا ينافي علوه واستواءه على عرشه.

قوله:((**فاقض عني الدين**)) هذا توســل إلى الله -جل وعلا- بأسمائه وصــفاته وعظيم فضــله بأني يقضــي دينك، فهذا يقال عند النوم ، كما جاء في مسـلم من حديث أبي هريرة ، من ألمت به ملمة ، أو حلت به فاقة ، فليســـارع إلى دعاء الله جل وعلا بهذا ، وقد كان النبي ﷺ يدعو بهذا عند النوم ، فحري بمن قال ذلك ، وتوسل إلى الله بالأسماء والصفات أن يُقضى دينه ، ويُفرج همه ، وتُزال كربته.

((**فاقض عني الدين وأغنني من الفقر**)) ففيه عظيم أمر الديْن؛ ولذلك قال الرســـول ﷺ:((**يغفر للشهيد كل شيء إلا الديْن**)) رواه مسلم، وكان النبي ﷺ يستعيذ بالله كثيراً من الديْن وغلبته ، ولم يكن الســـلف يحثون على الدين أو يرغبون فيه ، بل كانوا ينهون عنه إلا ما دعت الحاجة إليه ؛ لأن حقوق المخلوق مبنية على المشاحة، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم:((**نفس المؤمن معلقة بدينه حتى يقضى عنه**)) حديث جيد، وغير ذلك من الأدلة الدالة على عظيم أمر الديْن ، وضـرورة المسـارعة في قضـائه ووفائه ، ورد الحقوق إلى أهلها ففي الحديث: ((**على اليد ما أخذت حتى تؤديه**)).

وقوله صلى الله عليه وسلم لما رفع الصحابة أصواتهم بالذكر -((**أيها الناس، أربعوا أو ارفقوا بأنفسكم؛ فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً**)) فيه تنزيه الله -جل وعلا- عن النقائص ، ووصفه بصفات الكمال ونعوت الجلال ، وإنما تدعون أي تسألون سميعًا يسمع كلامكم وسركم ونجواكم، بصيرا؛ يبصر أماكنكم أينما كنتم يرى الذرة في ظلمة الليل على صفاة سوداء ، ويعلم ما تكنه صدوركم وما تعلنون، لا يخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم، أحاط علمه بكل شيء، ولا يغيب عن نظره شيء، ﴿**أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ**﴾.

قوله:((**إنما تدعون سميعاً بصيراً**)) فيه إثبات صفة السمع لله -جل وعلا- ((**بصيرا**)) فيه إثبات صفة البصر لله -جل وعلا- قال تعالى:﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ فالسميع اسمه وصفته، والبصير اسمه وصفته، وأهل السنة يثبتون ذلك إثباتاً بلا تمثيل وتنزيهاً بلا تعطيل؛ فلا يحرفون ولا يكيفون ولا يمثلون لأن الله -جل وعلا- لا سمي له ولا كفء له ولا ند له ، ولا يقاس بخلقه ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾.

قوله:((**قريباً**)) من قربه ، من قربه أنه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته، الأمر أعظم ولكن هذا للتقريب الأفهام، وهذا لا ينافي علوه واستواءه على عرشه وهذا يبعث على طاعة الله وعلى المسارعة إلى البحث عن رضاه ، فطائفة من البشر يخشون من المخلوق ما لا يخشون من الخالق ، ويطلبون من المخلوق ما لا يطلبون من الخالق ، ويستترون من المخلوق ما لا يستترون من الخالق ، ويستخفون من المخلوق ما لا يستخفون من الخالق ، ويتقربون من المخلوق ما لا يتقربون إلى الخالق ، ويحترمون من المخلوق ما لا يحترمون من الخالق ، ويعظمون من المخلوق ما لا يعظمون من الخالق، ويرجون من الله مغفرة ورضواناً، هيهات، لابد من طاعة الله وطاعة رسوله وتعظيمه والمسارعة إلى رضاه، وامتثال أمره .

الواجب على كل مسلم أن يكون لسان حاله ﴿**وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى**﴾ ولا يستثقل طاعة الله ، ولا طاعة رسوله ﷺ ، ولا المسارعة إلى محابهما من بر الوالدين وصلة الرحم ، والإنفاق في وجوه الخير والدعاء ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ورعاية الملهوف ، وإغاثة المكروب ونحو ذلك.

ويقر الحديث مشـــروعية خفض الصــوت بالدعاء ، وذلك إذا لم يكن الدعاء يؤمن عليه ﴿**ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَـــرُّعًا وَخُفْيَةً**﴾ ويؤخذ من ذلك مشــروعية خفض الصــوت بالذكر إذا لم تدع الحاجة إلى رفع الصوت كدبر الفريضة ، وحين دخل النبي ﷺ مسجد والصحابة يجهرون بقراءة القرآن قال النبي ﷺ لهم: ((**لا يجهر بعضكم على بعض بالقرآن**)) وأما إذا لم يكن في ذلك تشويش ولا أذية للآخرين فلا حرج.

ويؤخذ من ذلك إثبات الأسماء والصـــفات، ويؤخذ من ذلك نفي النقائص عن الله ، ويؤخذ من ذلك إثبات صفة السمع لله والبصر والقرب، قالت عائشة -رضي الله عنها-: (الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة تجادل وتشتكي ، وأنا بقربها ولا أسمع صوتها، وسمع الله شكواها من فوق سبع سماوات).

قوله:((**إنكم سترون ربكم**)) السين تفيد الاستقبال ، وتفيد تحقق الشيء، (ترون ربكم) فيه إثبات رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة على الصراط، يراه المؤمنون دون الكافرين، قال تعالى:﴿**كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ**﴾ قال الشافعي -رحمه الله- في تفسير هذه الآية (لما حجب أعداءه كان دليلاً على أن أولياءه يرونه، وإلا لكان الأعداء وغيرهم في هذا الأمر ســـواء) قال تعالى: ﴿**أَفَنَجْعَلُ الْمُسْـــلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ**﴾.

قوله:((**كما ترون القمر**)) هذا تشـــبيه الرؤية بالرؤية لا المرئي بالمرئي، نظيره قوله صـــلى الله عليه وسلم:((**إن أول زمرة يدخلون الجنة وجوههم على صورة القمر**)) لا يمكن أن نقول أن كل مؤمن على وجه القمر، إنما هو لبيان حقيقة الشيء ،وبين كماله وصورته وحقيقته ونحو ذلك.

قوله:((**كما ترون القمر ليلة البدر،لا تضامون**)) أي:لا يلحقكم ضيم في رؤيته بمعنى لا تزدحمون، كل منكم يرى ربه مخلياً به، قال الله -جل وعلا- ﴿**لِلَّذِينَ أَحْسَـنُوا الْحُسْـنَى وَزِيَادَةٌ**﴾ الحسـنى الجنة، والزيادة النظر إلى وجه الرب -جل وعلا-، وهذا أعلى نعيم أهل الجنة، لأن الله قال:﴿**وَزِيَادَةٌ**﴾.

قوله: ((**فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس –وهي صلاة الفجر– وصلاة قبل غروبها – وهي صلاة العصر – فافعل**))،قال صلى الله عليه وسلم:((**من صلى البردين دخل الجنة**)) متفق على صحته ؛ والبردان هما الفجر والعصر، ولذلك وصف بالنفاق من تخلف عن هاتين الصلاتين فقال النبي ﷺ:((**أثقل الصلاة على المنافقين صلاة الفجر وصلاة العشاء**))، وجاء في صلاة العصر أدلة خاصة .

ففي هذا الزمان يتخلف عنها كثير من الناس كتخلفهم عن صلاة الفجر، يعودون من أعمالهم فينامون ولا يقومون ، ثم يشتغلون بأعمالهم ولا ينامون ، قال صلى الله عليه وسلم في صلاة العصر: ((**من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله**)) متفق على صحته، أي فكأنما سلب، دخل بيته فلم يجد لا ولداً ولا زوجةً ولا مالاً؛ ما وجد شيئاً، ما حاله؟ قد يصاب بالجنون، قد يذهب عقله ، ولكن بعض الناس لا يبالي، فتفوته صلاة العصر والعياد بالله ،لكن إن فاته السمر مع زوجته وأهل بيته ،أوفاته الاختبار وقت الامتحان ، أتصور أنه يشتم كل أهل البيت ، وأتصور أن يقع منه ما الله به عليم ، لكن ، حين تفوته الصلاة فالله غفور رحيم، وقال النبي ﷺ والحديث في البخاري فيمن تعمد ترك صلاة العصر:((**من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله**)) رواه البخاري، حبط عمله؛ من ترك صلاة واحدة حبط عمله، فما شأن الذين لا يصلون أبداً ، ولا يعرفون طريق المساجد.

يؤخذ من هذا الحديث أن الأعمال سبب لدخول الجنة، ويؤخذ من هذا الحديث تخصيص بعض الصلوات بالفضل، ويؤخذ من هذا الحديث أن المؤمنين يرون الله –جل وعلا– في عرصات القيامة ويرونه بعد دخول الجنة، ويؤخذ من هذا الحديث أن المؤمنين حين يرونه لا يلحقهم في ذلك ضيم ولا مشقة ولا ازدحام ولا غير ذلك.

قال الشيخ –رحمه الله تعالى– **(من أمثال هذه الأحاديث التي يخبر فيها رسول الله ﷺ عن ربه فيما يخبر به)**؛ أي أن هذه الأحاديث ليست حصراً، والفرقة الناجية؛ أهل السنة والجماعة يؤمنون بذلك، ويؤمنون بكل ما جاء عن الله على مراد الله ، وبكل ما جاء عن رسول الله ﷺ على مراد رسول

الله ﷺ ، كما يؤمنون بما قاله الله في كتابه من غير تحريف؛ التحريف هو الميل، ولا تعطيل؛ أي نفي الشيء بدون بديل، والتحريف قد يكون استبدال كتحريف الأشاعرة الاستيلاء بدل الاستواء ، والتعطيل كقول الجهمية :إن الله لا يتكلم ،كقول العرب (جيد عطل) أي خال من الزينة ، ومن غير تكييف ولا تمثيل؛ التكييف هو تشبيه حقيقة الشيء بحقيقة الشيء، والتمثيل أن تقول يد كيدي أو إصبع كإصبعي أو وجه كوجهي.

والقول الوسط هو قول فرقة أهل السنة : يثبتون حقيقة الشيء ويؤمنون بذلك ولا يكيفون ولا يمثلون ولا يدعون المجاز في ذلك فيؤمنون بذلك حقيقة، كما أن الأمة هي الوسط في الأمم؛ أهل السنة وسط بين المشبهة وبين المعطلة؛ وسط في كل الأبواب ، وسط في صفات الله تعالى بين أهل التعطيل الجهمية وأهل التمثيل المشبهة، وسط في أفعال الله –جل وعلا– بين الجبرية والقدرية وغيرهم، وسط في باب وعيد الله تعالى بين المرجئة والوعيدية ، وفي أسماء الإيمان والدين بين الحرورية والمعتزلة وبين المرجئة والجهمية

كما أن هذه الأمة وسط بين الأمم، ومعنى التوسط بين الشيئين، أن هذه الأمة هي أفضل الأمم وأكرمها على الله ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا**﴾ وسطًا: أي خياراً ، وأهل السنة هم أخير الناس وأكرمهم على الله ؛ لأنهم متبعون للكتاب والسنة وذلك في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ قال: ((**افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، افترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وسوف تفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلهم في النار إلا واحدة**)) جاء في الحديث الآخر من حديث معاوية ((**هم الجماعة**))، وقال صلى الله عليه وسلم في حديث العرباض:((**إنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً**–وبين المخرج–**فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور**)) فأهل السنة يؤمنون بذلك عن طريق الكتاب والسنة بخلاف الأشاعرة والمتكلمين الذين يقدمون العقل على النقل.

وسطية أهل السنة والجماعة بين الفرق

فَإِنَّ الْفِرْقَةَ النَّاجِيَةَ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ يُؤْمِنُونَ بِذَلِكَ؛ كَمَا يُؤْمِنُونَ بِمَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ؛ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلا تَعْطِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلاَ تَمْثِيلٍ؛ بَلْ هُمُ الْوَسَطُ فِي فِرَقِ الأُمَّةِ؛ كَمَا أَنَّ الأُمَّةَ هِيَ الْوَسَطُ فِي الأُمَمِ.

فَهُمْ وَسَطٌ فِي بَابِ صِفَاتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَيْنَ أَهْلِ التَّعْطِيلِ الْجَهْمِيَّةِ، وَأَهْلِ التَّمْثِيلِ الْمُشَبِّهَةِ؛ وَهُمْ وَسَطٌ فِي بَابِ أَفْعَالِ اللهِ بَيْنَ الْجَبْرِيَّةِ وَالْقَدَرِيَّةِ، وَفِي بَابِ وَعِيدِ اللهِ بَيْنَ الْمُرْجِئَةِ والْوَعِيدِيَّةِ : مِنَ الْقَدَرِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ، وَفِي بَابِ أَسْمَاءِ الإِيمَانِ والدِّينِ بَيْنَ الْحَرُورِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ وَبَيْنَ الْمُرْجِئَةِ وَالْجَهْمِيَّةِ، وَفِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم بَيْنَ الرَّافِضَةِ وَ الْخَوَارِجِ.

الشرح

بالنسبة للأمم السابقة وأن المقصود بالوسطية الخيار، وقد اتفق المفسرون على معنى قول الله –جل وعلا-:﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا**﴾ أي:خيارا، وأن الوسط يطلق على معنيين وعلى أكثر؛ أشهرهما التوسط بين الشيئين ، ولا يختلف العلماء أن هذه الأمة هي آخر الأمم وأكرمها على الله، إلى أن ينتهي إلى القول بأنه التوسط بين الشيئين في هذا الموضع، الموضع الثاني: الوسط أي الخيار ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا**﴾ واختلف في قول الله –جل وعلا- ﴿**مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ**﴾ قال بعض العلماء:﴿**مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ**﴾ في كفارة اليمين ، أي من أفضل وأزكى وأخير ما تطعمون الأهل، وقال بعض العلماء من أوسط أي من التوسط، وهذا الذي ذكره الشوكاني وغيره من العلماء، وأنه لا يخرج الطعام الرديء ، ولا يؤمر بإخراج الطعام الجيد؛ يكون وسطاً بين الشيئين، لأن الله –جل وعلا- لما نفى الخبيث علم أن ما عداه جائز قال الله –جل وعلا- ﴿**وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآَخِذِيهِ**﴾ ﴿**وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ**﴾ ما معنى تيمموا؟ ولا تيمموا أي ولا تقصدوا، (الخبيث) ما معنى الخبيث هنا؟ الحرام، والرديء صحيح، وقد يطلق على عدة معاني؛ ما هي؟ يطلق على الرديء كما في هذا الموطن، ويطلق على المحرم، ويطلق على النجس لأنه يحمل الخبث.

قال الشيخ –رحمه الله تعالى– في بيان مكانة أهل السنة والجماعة بين فرق الأمة؛ قال: فهم وسط؛ أي على المعنيين، وسط بمعنى الخيار، ووسط بمعنى التوسط بين الشيئين، إذاً فأهل السنة وسط في باب الصفات لله تعالى بين أهل التعطيل الجهمية ، وأهل التمثيل المشبهة؛ أهل التعطيل هم الذين يخلون الله –جل وعلا– عن أسمائه وصفاته ولا يعوضون ذلك بمعنىً آخر، من قول العرب في لغتها: جيدٌ عَطِلٍ ؛

حين يصفون المرأة إذا لم يكن في عنقها قلادة ولا غيرها يقولون هذه جيدٌ عطل بمعنى خال من الزينة، فالمعطلة يسمون بهذا الاسم لكونهم يعطلون الله عن أسمائه وصفاته الثابتة له بالكتاب والسنة.

وهذا اللفظ يطلق على الجهمية لأنهم الذين ينفون أسماء الله وصفته ويطلق على طوائف من المعتزلة الذين يقولون أن الله سميع بلا سمع، عليم بلا علم، ويطلق على الأشاعرة من وجه دون وجه؛ من وجه نفي اللفظ الحقيقي ، ولا يطلق من وجه آخر لأنهم يسمون محرفة يعتاضون عن لفظ بلفظ آخر وعن معنى بمعنى آخر، فهو يطلق عليهم من وجه دون وجه.

قوله **(الجهمية)** نسبة إلى الجهم بن صفوان، لم يكن الجهم بن صفوان هو مؤسس هذا المذهب، ولكنه حمل لواءه وأصل هذا المذهب حينما أخذه عن الجعد بن درهم، والجعد أخذ بدعته عن أبان بن سمعان، وأبان أخذ بدعته عن طالوت بن أخت لبيد بن الأعصم ،وطالوت أخذ بدعته عن لبيد بن الأعصم اليهودي الذي سحر النبي ﷺ.

نسبت بدعة الجهمية إلى الجهم، لأنه هو الذي قعد لهذا المذهب، وهو الذي قتله خالد القسري، وأشار إلى هذا المعنى الإمام ابن القيم -رحمه الله تعالى- في نونيته فقال:

ولذا ضحى بجعدٍ خالدٌ قسري يوم ذبائح القربان
إذ قال إبراهيم ليس خليله كلا ولا موسى الكليم الداني
شكر الضحية كل صاحب سنة لله درك من إمام قربان

فأهل السنة وسط بين هؤلاء المعطلة الذين لا يثبتون لله اسماً ولا صفة وينفون عن الله صفة الرحمة، صفة الغضب، صفة المحبة، صفة الكلام، وفي نفس الوقت هم وسط بين هؤلاء وبين المشبهة الذين غلوا في الإثبات؛ فكان الواحد منهم يقول يدٌ كيدي وسمع كسمعي وبصر كبصري، وقد صاح أهل السنة بهؤلاء كما صاحوا بالذين من قبل.

وقد تحدث الإمام ابن القيم -رحمه الله تعالى- في مختصر الصواعق وغيره من كتبه عن الأحاديث الواردة عن النبي ﷺ:((**أنه حين قرأ وكان الله سميعاً بصيراً وضع إصبعه على عينه والإصبع الآخر على أذنه**)) قال ابن القيم -رحمه الله تعالى-: يراد من ذلك بيان حقيقة الصفة ونفي المجاز، المشبهة يحتجون بهذا؛ يقولون أن النبي ﷺ أشار بإصبعه إلى عينه وإلى أذنه، الاتفاق قائم كما ذكره ابن القيم بأن المقصود بيان الحقيقة لأن الله ليس كمثله شيء فلا يقاس بخلقه،﴿**وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ**﴾ الكرسي هو موضع قدميه، ولذلك ذهب بعض أهل السنة إلى أن هذا خاص بالنبي ﷺ فلا يشرع لأحد أن يشير بإصبعه، وهذا مذهب أحمد -رحمه الله- فالإمام أحمد روى في مسنده أن النبي

ﷺ قرأ على المنبر ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ ثم بسط النبي ﷺ يده وقبضها، ومع ذلك الإمام أحمد لما رأى رجلاً في حلقته قرأ هذه الآية وبسط يده قال له (قطع الله يدك، قطع الله يدك، قطع الله يدك)؛ قال ذلك ثلاثاً، ثم نهض الإمام أحمد وتركه مع أنه هو راوي الحديث، هذا المذهب الأول في المسألة.

المذهب الثاني: أنه لا حرج من صنيع ذلك على ما جاء في الأحاديث الصحاح دون غيرها، ما لم يترتب عليه ضرر عند العامة أو عند المشبهة أو عند الذين لا يعلمون ولا يعقلون، وهذا قول الأعمش؛ الأعمش ثبت عنه بإسناد صحيح حين روى قوله صلى الله عليه وسلم:((**القلوب بين إصبعين**» حرك أصابعه وذكر ذلك عنه الآجري -رحمه الله تعالى- في الشريعة، وروى ذلك عنه ابن ماجة أيضاً في سننه.

المذهب الثالث في المسألة: التفصيل؛ وهؤلاء يقولون فيما جاء به النص وما لم يترتب على ذلك ضرر، وأما ما لم يرد به نص أو يترتب على ذلك ضرر؛ كأن يعتقد بعض العامة أن هذا مثل هذا، أو أن هذا عوج في التشريع، فيجب اتقاؤه والابتعاد عنه لأن المقصود من ذلك هو بيان الحقيقة.

قال نعيم بن حماد الخزاعي -رحمه الله تعالى-: "من شبه الله بخلقه فهو يعبد وثناً، ومن عطل الله عن أسمائه وصفاته فهو يعبد عدماً".

وحقيقة مذهب المشبهة : التعطيل لأنهم يشبهون الخالق بالمخلوق ويعطلون الخالق عن أسمائه وصفاته، نظم ابن القيم عقيدة أهل السنة في هذا الباب فقال:

لسنا نشبه وصفه بصفاتنا ... إن المشبهَ عابدُ الأوثانِ
كلا ولا نخليه من أوصافه ... إن المعطل عابد البهتانِ
من شبه الرحمن العظيم بخلقه ... فهو الشبيه بمشرك نصراني
أو عطل الرحمن عن أوصافه ... فهو الكفور وليس ذا الإيمانِ

قوله: (وهم وسط):

أي خيار، وفي نفس الوقت من التوسط بين الشيئين في باب أفعال الله بين الجبرية والقدرية؛ الأصل في الجبْرية بسكون الباء، هذا الأصح لغة؛ الجبْرية، ولكن ذهب بعض أهل اللغة إلى أن الجبرية إذا قرنت بالقَدَرية تفتح الباء تخفيفاً، الجبرية هم الذين يقولون بأن الله جبر العباد على أفعالهم وعلى حركاتهم وعلى سكناتهم، وقد غالى منهم طائفة فقالوا بأن كل ما يفعله العبد محبوب لله؛ لأن الله هو الذي جبره على ذلك وحينئذ يكون الشرك والبدع والمعاصي والذنوب والفاحشة محبوبة لله، وغالى من

هؤلاء طائفة أيضـــاً؛ قالوا إن ما أفعله هو عين فعل الله لأنه هو الذي جبرني على هذا، وهذا أقبح وأقبح.

وهذا يفيدنا فائدة مهمة؛ أن البدعة تؤول بصـــاحبها إلى مخالفة النقل والعقل وإلى الكفر، ولذلك أهل الســـنة يقولون أن البدعة بريد الكفر، وأهل الســـنة لا يقولون بأن الله جبر ولا أن الله لم يجبر، ويتكلمون في الجبل؛ بأن الله جبل العباد، وحين تحاج لدى الأوزاعي رجلان؛ هذا يقول بأن الله جبر العباد، وهذا يقول بأن الله لم يجبر العباد، فقال للآخر الذي قال أن الله لم يجبر: (ما أراك إلا نفيت بدعة ووقعت في مثلها) وجاء مثل هذا عن الإمام أحمد -رحمه الله تعالى- وتكلم عن هذا بتوسع شيخ الإسلام بن تيمية -رحمه الله تعالى- في الفتاوى.

فأهل الســـنة وســـط في أفعال الله بين الجبرية والقدرية؛ القدرية لا يقولون بأن الله جبر العباد على أفعالهم وعلى حركاتهم وعلى ســـكناتهم، لكن يقولون بأن العبد يخلق فعل نفســـه، وأن مشـــيئة العبد مستقلة عن مشيئة الله، وأن له إرادة غير تابعة لإرادة الله، فهم ينسبون الشيء للعبد، والأوائل ينسبون الشـــيء لله، الأوائل لا يجعلون للعبد حركة، وهؤلاء لا يجعلون لله خلقاً ولا مشـــيئة ولا إرادة ، ويجعلون العبد يفعل كل شيء، وحقيقة هذا المذهب أنَّ مع الله خالقاً آخر.

أهل السنة وسط بين هؤلاء وهؤلاء؛ يقولون بأن للعبد فعلاً وبأن للعبد إرادة وبأن للعبد مشيئة، ولكن هذه المشـــيئة تابعة لمشـــيئة الله ﴿**وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ**﴾ الله خلق العبد وخلق فعله ولكنه خيره وبين له طريق الخير وطريق الشـــر، قال تعالى:﴿**وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ**﴾ قيل المعنى: أي بينا له طريق الخير وطريق الشـــر، وقال الرســـول ﷺ:((**اعملوا**)) إذاً هناك إرادة للعبد ((**اعملوا فكل ميســـر لما خلق له**)) وقال تعالى: ﴿**وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾ الله أثبت أن للعبد مشيئة ولكن مشيئته تابعة لمشيئة الله -جل وعلا.

ومنه يتضـــح معنى الآثار الواردة بأن القدرية مجوس هذه الأمة؛ الأحاديث الواردة عن النبي ﷺ في كون القدرية مجوس هذه الأمة معلولة ، والصواب وقفها على الصحابة -رضي الله عنهم- ولا يصح من المرفوع شـــيء، ومعنى هذا أن المجوس جعلوا للعالم خالقين؛ خالق النور وخالق الظلمة ، ولكنهم لا يسوون هذا الخالق بذاك الخالق؛ يجعلون خالق النور أعظم من خالق الظلمة، ونفس الأمر من القدرية؛ يقولون بأن العبد يخلق فعل نفســـه، إذاً جعلوا مع الله خالقاً آخر فهم من هذه الحيثية يشـــابهون المجوس ولا يسوون بين الخالقين.

قوله: (**وفي باب وعيد الله**):

أي وأهل السنة وسط؛ خيار، ومن التوسط أيضاً بين الشيئين في باب وعيد الله؛ أي الأحاديث والآيات الدالة على الوعيد كقوله صلى الله عليه وسلم ((**لا يدخل الجنة قاطع رحم**)) وكقول الله -جل وعلا- ﴿**فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ وغير ذلك من أدلة الوعيد، **(بين المرجئة)** والمرجئة طوائف والحديث هنا عن الذين يقولون لا يضر مع الإيمان ذنب؛ وحينئذ لن يسري الوعيد على العاصي، وبين الوعيدية من القدرية الذين يقولون بأن الوعيد نافذ ، ولا يخلف الله وعده ولا وعيده؛ قد أصابوا في الأولى وأخطؤوا في الثانية، لا يخلف الله وعده هذا نص القرآن ﴿**وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ**﴾ لا يخلف الله الميعاد، أما الوعيد فلم يرد دليل أن الله لا يخلفه، وهذا الباب مرتبط بجملة بعدها وذلك في قوله **(في باب أسماء الإيمان والدين بين الحرورية والمعتزلة وبين المرجئة والجهمية)**

أسماء الإيمان والدين هي ألفاظ؛ هذا مسلم، هذا كافر، هذا فاسق، هذه أسماء الإيمان والدين، أهل السنة وسط بين الحرورية والمعتزلة؛ الحرورية الخوارج؛ يقولون والمعتزلة"من مات على كبيرة فإنه مخلد في النار" وهؤلاء يكفرون بمطلق الذنوب؛ فمن مات وهو يشرب الخمر أو يأكل الربا أو يزني أو يسرق فإنه مخلد في النار، ويرون الذنب ينافي أصل الإيمان، بينما الفرق بين الخوارج والمعتزلة أنهم يختلفون في حكمه في الدنيا؛ فذهبت المعتزلة إلى أنه بمنزلة بين المنزلتين، وذهبت الخوارج إلى أنه جذىً من جذىً جهنم في الدنيا والآخرة وأنه مخلد في النار، وهؤلاء يكابرون في أحاديث الشفاعة، وهي أكثر ما يقال عنها بالتواتر؛ من كثرتها ومجيئها من طرق متعددة وهم يكابرون في هذه الأحاديث ولا يؤمنون بذلك ، وهؤلاء لا يقبلون أخبار الآحاد، ولذلك قال بعض العلماء بأن الخوارج والمعتزلة يحكمون على أنفسهم بالخلود في النار لأنهم هم أهل الكبائر وهم حماة الشر.

فالخوارج هم الذين خرجوا في بداية أمرهم على عثمان، ثم قاتلوا عليا وقاتلهم وانتصر عليهم، والمعتزلة هم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه؛ ويقولون عن أسماء الله -جل وعلا- سميع بلا سمع، بصير بلا بصر، وهذا من أكبر الكبائر.

قوله: (وبين المرجئة والجهمية):

المرجئة يقولون لا يضر مع الإيمان ذنب، وأن الإيمان عندهم قول واعتقاد وهذا قول طائفة منهم، طائفة من المرجئة يقولون بأن الإيمان هو مجرد اعتقاد ومعرفة فليس بقول ولا بعمل، والمرجئة طوائف،ولذلك يقول العلماء عن غلاة المرجئة بأنهم جهمية، الذين يقولون عن الإيمان بأنه مجرد معرفة، وهذا يعني في إلزامات أهل السنة لهؤلاء أن يكون إبليس مؤمناً؛ لأنه عارف؛ إذا كان مجرد معرفة عارف، يقول:﴿**فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾ ويقول:﴿**رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ**﴾.

وعلى قول الجهمية وقول الأشاعرة وأيضاً من يقول بأن الإيمان هو التصديق يكون فرعون مؤمناً؛ لأنه قال:﴿**آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ**﴾ هذا مجرد معرفة ومجرد تصديق.

فأهل السنة وسط بين هؤلاء وهؤلاء؛ بين من يكفرون بمطلق الذنوب ، وبين الذين يقولون أن الإيمان مجرد معرفة أو تصديق ولا يضر مع الإيمان ذنب، وأهل السنة يقولون بأن الذنوب ثلاثة أنواع:

النوع الأول: ذنب ينافي أصل الإيمان ويخرج من الملة كالشرك ودعاء غير الله والذبح والنذر لغيرالله أو سب الله أو سب رسوله ﷺ سباً صريحاً –عياذًا بالله من ذلك – أو الاستهزاء الصريح بالدين ونحو ذلك.

النوع الثاني: ذنب ينافي كمال الإيمان الواجب، وهذا له مرتبتان؛ المرتبة الأولى: أن يوجب الفسق، المرتبة الثانية: يوجب العصيان؛ لأن الله فرق بين هذا وذاك فقال الله –جل وعلا- ﴿**وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ**﴾ والفسق جاء في القرآن على معنيين؛ فسق مخرج من الملة وهو كثير في القرآن، وفسق لا يخرج من الملة كقول الله –جل وعلا- ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا**﴾ هذا من النوع الذي لا يخرج عن الملة وهو الإخبار بخلاف الصدق وخلاف الواقع، ومثال ذلك عند أهل السنة الزنا، شرب الخمر، أكل الربا، النمص ؛ لأن النبي لعن الفاعلة، وما وصف بغضب أو لعنة أو وعيد شديد وغير ذلك مما لا ينافي أصل الإيمان فلا يكفر فاعله مهما فعل ما لم يستحل ذلك؛ يعني مهما شرب من الخمر لا يكفر، مهما أكل من الربا لا يكفر، مهما زنا لا يكفر ولكنه معرض عند أهل السنة للوعيد، معرض للوعيد، ليس معنى هذا أن الذنب لا يضر بالإيمان، لا، ينافي كمال الإيمان الواجب فهو يضر الإيمان وصاحبه معرض للوعيد ولكنه لا يكفر؛ بمعنى أنه لا يخلد في الجحيم كما تقوله الخوارج والمعتزلة، فأهل السنة وسط يقولون لا يخلد في الجحيم ويقولون يضر إيمانه؛ ينقص ثوابه وهو معرض للوعيد، ليس كما تقوله المرجئة بأنه لا يضر مع الإيمان ذنب.

القسم الثالث: الذنب الذي ينافي كمال الإيمان المستحب، من ذلك المكروه لم يطلق عليه أنه ذنب . ولكنه لا ينافي كمال الإيمان الواجب، وممكن يقال ما ينافي كمال الإيمان الواجب من البدع، والقسم الثالث ما ينافي كمال الإيمان الواجب من الفسق.

فأهل السنة في باب أسماء الإيمان والدين بين هؤلاء وهؤلاء، وفي نفس الوقت يحرصون على ضبط هذا الباب وتأصيله وحماية جنابه وربطه بالعلم دون الجهل؛ فلا تدفع الغيرة إلى تكفير أصحاب المعاصي ، ولا تبعث الجرأة على التكفير إلى المنع من التكفير، لأن بعض الناس في هذا العصر تسارع إلى التكفير بدون دليل وهذا صفة أو خصلة من خصال الخوارج، وآخرون حين يرون هؤلاء يكفرون؛

يتجرؤون على التكفير يقولون لا نكفر أحداً حتى الذي قامت عليه الحجة وانتفت عنه الشبهة وهذا ضلال.

فكل من قامت عليه الحجة وانتفت عنه الشبهة فإن هؤلاء يكفرون، ولكن يربط هذا الباب بأهل العلم الذين يفهمون معنى إقامة الحجة، ويفهمون معنى إزالة الشبهة؛ لأن طالب العلم المبتدأ قد لا يفهم هذا الباب ولا يميز؛ يحفظ في كلام العلماء من قال ذلك كفر فيطبق على كل مسألة، لكن الفقهاء المعنيين بضبط الحلال والحرام هم أهل القدرة على تنزيل العام على الخاص ووضع الأدلة في مواضعها، وهذا لا يتأتى لطالب العلم الصغير.

فلذلك نواقض الإسلام تدرس وتعلم بالحديث عن النوع دون الحديث عن العين، وينبغي لكل طالب العلم ولكل عامي من ذكر أو أنثى أن يتعلمها وأن يحفظها لكي يحذرها ولكي يقرر الأصل العام؛ أنه إن فعل ذلك كفر، ولكن حين يأتي التنزيل على فلان وعلان فإن العامي يخرج عن هذا الباب ويقيد هذا بأهل العلم ما لم يكن العامي مقلداً لعالم يروى دينه وعلمه وورعه في هذا الباب.

قوله:(وفي أصحاب رسول الله ﷺ بين الرافضة والخوارج):

أي وأهل السنة وسط أي خيار وأيضاً من التوسط بين الشيئين، بين الرافضة والخوارج؛ والرافضة طوائف يتجاوزون سبعين فرقة، فأهل السنة وسط بين الرافضة الذين يغلون في آل البيت وينصبونهم إلهاً دون الله، وبين الخوارج والنواصب الذين لا يتولون آل البيت أو يبدعونهم ويضللونهم أو يكفرونهم كما صنع الخوارج؛ فأهل السنة وسط بين هؤلاء وهؤلاء.

قلت قبل قليل بأن الروافض مراتب؛ منهم الغلاة كالاثني عشرية يسمون بالإمامية وهم الغالب في هذا العصر، وهؤلاء وثنيون، والأصل في مذهبهم دعاء غير الله، وكلكم ربما قرأ في هذا اليوم في بعض الصحف تجد في الرياض مثلاً يرى الصور لما صنع مشركو عاشوراء في كربلاء بالأمس من نحر نفوسهم بالسكاكين وإراقة الدماء على رؤوسهم ودعاء غير الله -جل وعلا- وتأليه الأولياء والصالحين.

وهؤلاء تتمثل فيهم عدة أمور؛ الأمر الأول: دعاء غير الله -جل وعلا- وهذا شرك أكبر لا يغفره الله إلا بالتوبة، الأمر الثاني : تكفير الصحابة ولا يستثنون من ذلك إلا آل البيت وسلمان والمقداد وأبا ذر، وفي نفس الوقت ذهب متأخروهم إلى كفر هؤلاء، الأمر الثالث: قذف عائشة بالإفك بعدما برأها الله وهذا كفر لأنه تكذيب لكلام الله وتكذيب لكلام رسول الله ﷺ وطعن مبطن في الرسول ﷺ ، الأمر الرابع: دعوى تحريف القرآن، وهذا يكاد يتفق عليه أئمتهم ولذلك لا يتجاسرون على نقد كتاب أحد شياطينهم في دعوى تحريف كلام الله -جل وعلا- المعنون بعنوان (رفع ارتياب) ويقال أيضاً

(فصل الخطاب في تحريف كلام رب الأرباب) وهذا مطبوع ومتداول وبقوة في بلاد الرافضة، ولا يتجاسرون على نقده ولا على الرد عليه، بل ذهب بعضهم إلى أن مؤلفه مجتهد، الأمر الخامس: أنهم لا يؤمنون بأسماء الله وصفاته أبداً ولا يوجد هذا في كتبهم أبداً؛ ملغى هذا الباب، هم معطلة في هذا الباب، ومثل هذا كثير في مذهبهم وفي واقعهم وأيضاً لا يؤمنون بالسنة مطلقاً لأنها جاءت من رواية المرتدين ومن رواية النواصب وقد ذكر السيوطي -رحمه الله تعالى- في مقدمة كتابه (مفتاح الجنة) الإجماع على كفر من قال نؤمن بالكتاب ولا نؤمن بالسنة، وهناك أيضاً أمور كثيرة جداً مثل التناقض في مذاهبهم وضلالهم وانحرافهم ، وأنهم ألصق الناس باليهود ، ولذلك أنصح الأخوة بقراءة كتاب (بذل المجهود في متابعة الرافضة لليهود) مطبوع في مجلدين؛ كتاب جيد ونافع ومفيد في هذا الباب .

وأما الخوارج فقد أخبر النبي ﷺ عنهم وأمر بالحذر منهم ، وأمر بقتالهم ، فخرجوا على عليّ رضي الله عنه فقاتلهم مع بقية الصحابة -رضي الله عنهم- لأن هؤلاء يكفرون بمطلق الذنوب، زيادة على هذا يجعلون من الذنب ما ليس بذنب، فهم يكفرون بمطلق الذنوب، ومن سوء فهمهم وقلة علمهم يجعلون من الذنوب ما ليس بذنب، وكانوا يقولون عن عليّ أنه ما حكَّم كتاب الله ويقولون لا حكم إلا لله، فكان عليّ يقول :"كلمة حق أريد بها باطل" كذلك استحلوا دماء الصحابة وقاتلوهم وكفروهم، وتواترت الأحاديث عن النبي ﷺ بوجوب قتالهم، وقال عنهم:((**يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية**)).

ومع هذا النص العظيم المتواتر عن النبي ﷺ إلا أن ابن تيمية حكى الإجماع على عدم كفرهم، مع أنه قال يمرقون من الإسلام، فهذا يبعث على الورع في عدم الجرأة على تكفير من لم يرد فيهم مثل هذا النص، إنما مجرد اجتهاد، إذا كان النبي ﷺ قال عن هؤلاء يمرقون من الإسلام ، ومع ذلك أهل العلم لا يكفرونهم ، فكيف بالذين لم يرد فيهم مثل هذا النص؟

أمر آخر: يجب التفريق بين الخوارج الأول والخوارج الأواخر؛ الخوارج الأوائل لم يكن عندهم من البدع إلا القليل وكانت أعظم بدعة عندهم هي هذه البدعة، بخلاف الخوارج الأواخر ؛ المتواجدين الآن في عصرنا في عمان وغيرها، فإن هؤلاء جهمية معطلة في باب الأسماء والصفات، وخوارج في باب أسماء الإيمان والدين، يكفرون على الكبائر، ومن عجيب أمرهم أنهم مرجئة أيضاً في تنزيل النواقض على المعينين فهم جمعوا بين مذهب الخوارج وبين مذهب المرجئة ، وهذا من التناقض الموجود في مذهبهم.

ولذلك ذهب بعض العلماء إلى تكفير الخوارج الأواخر دون الأوائل، وهذا ما ذهب إليه الشاطبي والقرطبي والسبكي وغير هؤلاء، وعلى كلٍ لا يسع الحديث عن هؤلاء ولا عن هؤلاء ، فالحديث عن

وسطية أهل السنة.

وقد أخبر النبي ﷺ عن وجود الاختلاف وأنه كثير وليس بقليل ، وأوجب متابعة الصحابة؛ فقال صلى الله عليه وسلم في حديث العرباض وهو حديث جيد رواه الأربعة وغيرهم:((**إنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين**)) هذا من أعظم الردود على الرافضة، فهم يجعلون الصحابة مرتدين، كيف يكونون مرتدين وقد أمر النبي ﷺ باتباعهم والسير على منهاجهم والاقتفاء بآثارهم وضرورة تعظيمهم واحترامهم والاقتداء بهم، ولذلك قال:((**عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور**))،((**إنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي**))، ومن جميل كلام سفيان -رحمه الله تعالى- (إن استطعت ألا تحك رأسك إلا بأثر فافعل)، وقد جاء من رواية جمع من الصحابة كمعاوية وعبد الله بن عمرو بن العاص وأبي هريرة قال صلى الله عليه وسلم:((**افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وسوف تفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة**)) هذا حديث صحيح، جاء في حديث معاوية: ((**الجماعة**)).

وفي حديث عبد الله بن عمرو بن العاص: ((**هم من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي**)) وهذه رواية ضعيفة؛ تفرد بها عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الأفريقي وهو سيئ الحفظ، تابعه الفلسطيني عند العقيلي في الضعفاء وهو متروك الحديث، الذي ثبت الجماعة؛ والجماعة هم من كان على مثل ما كان عليه النبي ﷺ والصحابة.

نصوص العلو لا تنافي معية الله لعباده

فَصْل

وَقَدْ دَخَلَ فِيمَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ الإِيمَانُ بِمَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ، وَتَوَاتَرَ عَن رَّسُولِه، وَأَجْمَعَ عَلَيْهِ سَلَفُ الأُمَّةِ: مِنْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ فَوْقَ سَمَاوَاتِهِ، عَلَى عَرْشِهِ، عَلِيٌّ عَلَى خَلْقِهِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا، يَعْلَمُ مَا هُمْ عَامِلُونَ.

كَمَا جَمَعَ بَيْنَ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ:﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

وَلَيْسَ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ [الحديد: ٤]. أَنَّهُ مُخْتَلِطٌ بِالْخَلْقِ؛ فَإِنَّ هَذَا لا تُوجِبُهُ، اللُّغَةُ، بَلِ الْقَمَرُ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللهِ مِنْ أَصْغَرِ مَخْلُوقَاتِهِ، وَهُوَ مَوْضُوعٌ فِي السَّمَاءِ، وَهُوَ مَعَ الْمُسَافِرِ وَغَيْرُ الْمُسَافِرِ أَيْنَمَا كَانَ. وَهُوَ سُبْحَانَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ، رَقِيبٌ عَلَى خَلْقِهِ، مُهَيْمِنٌ عَلَيْهِمْ، مُطَّلِعٌ عَلَيْهِم إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِن مَّعَانِي رُبُوبِيَّتِهِ. وَكُلُّ هَذَا الْكَلامِ الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ مِنْ أَنَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ وَأَنَّهُ مَعَنَا حَقٌّ عَلَى حَقِيقَتِهِ، لاَ يَحْتَاجُ إِلَى تَحْرِيفٍ، وَلَكِنْ يُصَانُ عَنِ الظُّنُونِ الْكَاذِبَةِ؛ مِثْلِ أَنْ يُظَنَّ أَنَّ ظَاهِرَ قَوْلِهِ:﴿فِي السَّمَاءِ﴾. أَنَّ السَّمَاءَ تُظِلُّهُ أَوْ تُقِلُّهُ، وَهَذَا بَاطِلٌ بِإِجْمَاعِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالإِيمَانِ؛ فَإِنَّ اللهَ قَدْ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، وَهُوَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولاَ، وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ؛ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴿وَمَنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم:٢٥].

الشرح

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في حديثه عن إثبات الأسماء والصفات وتوضيح بعض المعاني الواردة في هذا الباب وبيانه أنه لا تناقض بين علوه وفوقيته وبين معيته لخلقه فقال رحمه تعالى:

فصل:

الفصل هو الحاجز بين الشيئين يؤتى به للانتقال من أسلوب إلى أسلوب أخر وقد يؤتى به ويكون الثاني بمعنى الأول لأن الكلام إذا طال سرده بدون فصل أورث الملل والسآمة فكان هذا الفصل لشحذ الهمم وصرف الأنظار وقد يؤتى بفصل ليكون الثاني تفسيرا للأول.

قوله:وقد دخل فيما ذكرناه من الإيمان بالله:

الإيمان في اللغة يطلق على التصديق لقول الله جل وعلا :﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا﴾ **[يوسف: ١٧]** أي بمصدق لنا.

وفي الشرع: هو قول وعمل قول القلب واللسان وعمل القلب واللسان والجوارح والمشهور في كتب المتأخرين في تعريف الإيمان أنه: قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالأركان وهذا التعريف صحيح لكنه ينقصه عمل القلب يقول الإمام البخاري رحمه الله تعالى: أدركت ألف شيخ وهم يقولون إن الإيمان قول وعمل.

ولذلك لم يذكر ابن تيمية رحمه الله تعالى في العقيدة إلا القول المجمع عليه (قول وعمل) قول القلب واللسان وعمل القلب واللسان والجوارح وهو الذي ذكره في كتابه الإيمان بخلاف القول الآخر لأنه أولاً :لم يتفق عليه ثانيًا : فيه نقص.

قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: الإيمان قول وعمل ونية ولا يجزئ واحد دون الآخر .. المقصود بذلك الجنس ولا يجزئ جنس القول عن جنس العمل ولا جنس العمل عن جنس الاعتقاد ولذلك اتفق أهل السنة وأجمعوا على أن تارك جنس القول أو تارك جنس العمل كافر. لا يختلفون في ذلك قد حكى إجماعهم الإمام الآجري رحمه الله في كتابه الشريعة.

قوله: (**الإيمان**) هنا فاعل ذكر: فعل ماض والإيمان فاعل.

(ثم أخبر الله جل وعلا به في كتابه وتواتر عن رسوله ﷺ)

المتواتر: هو ما صح إسناده إلى رسول الله ﷺ وتلقاه العلماء بالقبول هذا الصواب في معنى المتواتر وقال بعض العلماء: المتواتر ما رواه بضعة عشر وقال آخرون ما رواه ما لا يقل عن أربعين وقال آخرون ما رواه ما لا يقل عن ثلاثمائة وبضعة عشر كعدد أصحاب طالوت.

وقال بعض العلماء: المتواتر ما توافر فيه أربعة شروط:

الشرط الأول: أن يرويه عدد كثير.

الشرط الثاني: أن تكون الكثرة في جميع طبقات السند.

الشرط الثالث: أن تحيل العادة تواطؤهم على الكذب.

الشرط الرابع: أن يكون مستند قولهم الحس كقولهم: سمعنا ولبسنا وشممنا.

تقدم الحديث عن ذلك وهذه الشروط معروفة عن المتكلمين وليست بمعروفة عن أئمة السلف الماضين.

والصواب في المتواتر: ما ثبت إسناده إلى رسول الله ﷺ وتلقاه العلماء بالقبول.

ولهذا لم يمتنع الحافظ الذهبي رحمه الله تعالى في كتابه(العلو) عن وصف حديث معاوية بن الحكم السلمي الوارد في صحيح مسلم ولم يرو عن غيره من الصحابة حين قال النبي ﷺ للجارية:((**أين الله؟**)) قالت: في السماء قال:((**من أنا؟**)) (قالت: أنت رسول الله). قال عنه هذا حديث متواتر أي في معنى اصطلاح أئمة السلف.

وإن كان الرائج الآن في كلام المتأخرين الشروط المتقدمة وينبغي التنبيه–وأكرر- بأن ذلك ليس له أصل.

ولذلك إذا أردنا ألا نقول بتعريف قط نقول: ما جاء من غير وجه واتفق العلماء على تصحيحه ولا يقيد هذا بعدد معين.

وأهل السنة يؤمنون بكل ما أخبر الله عنه في كتابه من الإيمان بالله وملائكته وكتبه والرسول والنبيين ومن الإيمان بالدابة: ﴿**أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ**﴾ [النمل: ٨٢] ومن الإيمان بنزول عيسى بن مريم كما أخبر الله جل وعلا عن نزوله وتواترت بذلك الأحاديث عن رسول الله ﷺ وجاء في صحيح مسلم:((**والذي نفسي بيده ليهلن ابن مريم بفج الروحاء**)).

ومن ذلك ما أخبر به النبي ﷺ من تسبيح الحصى وحنين الجذع وتسبيح الطعام في يده ونبع الماء بين يديه وانشقاق القمر فلقتين وغير ذلك مما أخبر الله عنه في كتابه أو تواتر في الأثر عن النبي ﷺ فأهل السنة يؤمنون بذلك ويصدقون .

وكان من أعظم الناس تصديقًا هو أبو بكر الصديق ولذلك سمي بالصديق وحين أتى إليه كفار قريش يريدون التشويش على إيمانه فقال له أحدهم: يا أبا بكر صاحبك يزعم بأنه أسري به في ليلة وصلى الأمس في بيت المقدس وذهب إلى السموات السبع في ليلة واحدة أتصدق؟ قال: إن كان قد قال فنعم أصدق فسمي بعد ذلك أبو بكر الصديق كما جاء في قول الله تعالى:﴿**وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ**﴾ [الزمر: ٣٣] الذي جاء بالصدق هو محمد ﷺ وصدق به هو أبو بكر الصديق وقال بعض العلماء: الذي جاء بالصدق هو جبريل وصدق به هو محمد ﷺ: وقد أثنى الله جل وعلا على أبي بكر في قوله: ﴿**إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا**﴾ [التوبة: ٤٠] هذه معية خاصة للنبي ﷺ وأبي بكر الصديق.

قوله: وأجمع عليه سلف الأمة الأصل الأول الكتاب قال ﷺ:((**إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله**)) رواه مسلم.

الأصل الثاني: السنة وهذا لا يختلف فيه العلماء ولا يماري فيه العقلاء قال ﷺ:((**إنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور**)).

وفي صحيح مسلم من حديث جابر قال ﷺ:((**أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدى هدى رسول الله ﷺ**)).

الأصل الثالث: الإجماع ويأتي إن شاء الله تعالى في كلام شيخ الإسلام قوله:(والإجماع الذي ينضبط ما كان عليه السلف الصالح) إذ بعدهم كثر الخلاف وانتشرت الأمة

والإجماع نوعان إجماع قطعي يكفر المخالف فيه ويكفر منكره ومن ذلك الإجماع بأن الصلوات خمس فلو أن شخصا كابر وقال بأن الصلوات أربعة فهذا يحكم بكفره لأن الإجماع قطعي بأن الصلوات خمس قال ﷺ:((**خمس صلوات كتبهن الله تعالى على العباد**)) ومن الإجماعات القطعية أن عدد ركعات صلاة الظهر أربعة وعدد ركعات صلاة العصر أربعة وعدد ركعات صلاة المغرب ثلاثة وعدد ركعات صلاة العشاء أربعة وعدد ركعات صلاة الفجر اثنتان .

ومن الإجماعات القطعية تحريم الزنا وتحريم نكاح الأم ونكاح الأخت ومن الإجماعات القطعية تحريم شرب الخمر ومن الإجماعات القطعية تحريم ربا النسيئة ومن الإجماعات القطعية تحريم النميمة وهي السعي بين الاثنين بغرض الإفساد بخلاف ما كان ببقصد النصح هذه إجماعات قطعية لا يختلف فيها العلماء يؤمنون بذلك ويؤمنون بهذا الإجماع.

النوع الثاني: إجماع ظني وليس بقطعي وهذا ما يعبر عنه بعض الفقهاء كابن قدامة في المغني رحمه الله يقول: لا أعلم في ذلك خلافًا ولا أحفظ عن أحد من العلماء خالف وغير ذلك من الألفاظ المشعرة بالبعد عن القطعي ويعبر عنه بعض العلماء بقوله: أجمع العلماء واتفق العلماء وفي بعض هذه الإجماعات نظر فمن ذلك إجماعات ابن المنذر رحمه الله فهو لا يبالي بمخالفة الواحد والاثنين وهذا فيه نظر ومن ذلك إجماعات ابن جرير فهو لا يبالي بمخالفة الواحد والاثنين وهذا فيه نظر ومن ذلك إجماعات النووي وبعض إجماعات شيخ الإسلام ابن تيمية وإجماعات ابن عبد البر وغير ذلك هذه لا تكون صحيحة من كل وجه وهي من الإجماعات الظنية لكن الإجماعات القطعية التي لا يختلف فيها العلماء.

هذه الإجماعات لا يكفر المخالف فيها وبعض العلماء يرى التعبير بقول ابن قدامة: لا أعلم فيه خلافًا وتحاشـى لفظة الإجماع ومنهم قول الإمام أحمد من ادعى الإجماع فقد كذب وما يدريه لعلهم اختلفوا وليس معنى هذا أنه لا يحكى الإجماع في مثل هذه الأبواب لأنه قد يتواطأ العلماء على قول فيحصل بذلك الإجماع ولذلك قال الشيخ: يجمع العلماء على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد.

قوله: **(لأنه سبحانه فوق سماواته على عرشه)** هذا من الإجماعات القطعية دل على ذلك الكتاب والسـنة وأجمع العلماء كما قال ذلك ابن عبد البر وقبله ابن خزيمة وغير هؤلاء يحكون الإجماع على أن الله فوق سماواته مستو على عرشه وهذا نص القرآن.

إذا قيل هذا نص كذا وكذا فما معني النص؟

إذا قيل هذا نص القرآن هذا نص السنة إذا قيل هذا نص كذا وكذا فمعناه الذي لا يحتمل معنيين لا يحتمل إلا معنى واحدًا. قوله جل وعلا: ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**﴾ [طه: ٥] هذه الآية لا تحتمل معنيين تحتمل معنى واحدًا تقدم الحديث عن خبر الاستواء عند أهل السـنة وحكم منكر العلو وحكم منكر الاسـتواء والحديث هنا عن بيان دلالة الكتاب والسـنة وإجماع سـلف الأمة وما فطر الله عليه عباده؛ من أنه فوق سماواته.

قوله رحمه الله:عالي على خلقه:

قال الله جل وعلا:﴿**وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ**﴾ [البقرة: ٢٥٥] ﴿**أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّـمَاءِ**﴾ [الملك: ١٦] ولذلك موسـى كان يدعو فرعون إلى ربه الذي في السـماء فلذلك قال فرعون:﴿**وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا**﴾ [غافر: ٣٦-٣٧] ولذلك قال العلماء: من أثبت العلو فهو موسـوي محمدي ومن أنكر العلو فهو فرعوني لأن فرعون هو الذي كابر في العلو يقول:﴿**وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا**﴾ [غافر: ٣٧] فرعون يقول:﴿**وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا**﴾.

قول الله سبحانه:﴿**مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا**﴾ [المجادلة: ٧] أي: أن علو الله على خلقه واستواءه على عرشه لا ينافي معيته فالله جل وعلا مع الخلق بعلمه الذي هو موصـوف به أزلاً وأبدًا أينما كانوا وحيثما حلوا والمعية نوعان: معية علمية فالله جل وعلا مع كل الخلق مؤمنهم وكافرهم يعلمه الذي هو موصـــوف به أزلاً وأبدًا النوع الثاني معية خاصة تقتضي النصر والحفظ والكلائة والتأييد كما في قول الله جل وعلا: ﴿**إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ**﴾ [النحل: ١٢٨].

وكما في قول الله جل وعلا:﴿**إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى**﴾ [طه: ٤٦] وكما في قول الله جل وعلا:﴿**لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ**

مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

قوله: (يعلم ما هم عاملون) في وصف الله جل وعلا بالعلم فالله جل وعلا لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الطلاق: ١٢] وأن الله قد أحاط بكل شيء علما.

وهو العليم أحاط علما بالذي		في الكون من سر ومن إعلان
وبكل شيء علمه سبحانه		فهو العليم وليس ذا نسيان

كما جمع بين ذلك في قوله:﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ﴾ [الحديد: ٤] في إثبات صفة الخلق لله جل وعلا قال تعالى:﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] قدم ذكر السموات على الأرض لأن السموات أفضل من الأرض وقد اتفق العلماء على تقديم خلق الأرض على خلق السماء ولكن الدحي كان بعد خلق السموات ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٣٠].

قوله:﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤] أي: من أيام الله لقوله جل وعلا:﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧].

قوله:﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] وهذا لا يختلف فيه العلماء في إثبات الاستواء؛ وتخصيص الاستواء على العرش فيه دلالة قوية على أن الاستواء غير الاستيلاء لأن الله مستول على كل شيء على الأرض وعلى غيرها فلماذا يخص العرش بالذكر فعلم أن المقصود بالاستواء هو العلو والصعود والارتفاع كما قال ابن القيم رحمه الله تعالى:

فلهم عبارات عليها أربع ... قد حصلت للفارس الطعان
وهي استقر وقد علا وكذلك ... ارتفع الذي ما فيه من نكران
وكذاك صعد الذي هو رابع ... وأبو عبيدة صاحب الشيباني
يختار هذا القول في تفسيره ... أدرى من الجهمي بالقرآن

ويؤخذ منه أيضًا أن الاستواء ذات العلو لله جل وعلا ويؤخذ من ذلك أيضًا إثبات صفة القدرة ويؤخذ من ذلك أيضًا إثبات الأفعال الاختيارية لله ويؤخذ من ذلك أنه لا تنافي بين علمه ومعيته وبين علوه على خلقه لأن الله سبحانه وتعالى قال:﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ٢٩] لما ذكر العلو قال يعلم لذلك لا تنافي بين هذا وذاك في إثبات صفة العلم لله جل وعلا ولذلك قال جل وعلا ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤] أي معكم بعلمه.

وقد ذكر الآجري رحمه الله تعالى في الشريعة الإجماع على إثبات المعية العلمية لله جل وعلا ووافقه على ذلك ابن عبد البر وغيره من أهل السنة ونص على هذا الإمام أحمد رحمه الله تعالى قبلهما وقال: افتتح الله الآية بالعلم وختمها بالعلم لقوله:﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ [المجادلة: ٧].

قوله:﴿**وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾ [البقرة: ٢٦٥] كقوله تعالى:﴿**وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ [الشورى: ١١] فالسمع اسمه وصفته والبصر اسمه وصفته والبصير اسمه في إثبات صفة الرؤية والبصر لله جل وعلا وهذا لا يختلف فيه العلماء رحمهم اله تقدم الحديث عن كل هذا مفصلاً.

والأشاعرة ومن قبل المعتزلة ومن قبل الجهمية يشككون في هذه الأسماء والصفات لله جل وعلا فلا يثبتون علو الله على خلقه يثبتون علو القدر وعلو الشرف ولا يثبتون علو الذات وهو الأصل.

قال الشيخ رحمه الله تعالى: وليس معنى قوله:﴿**وَهُوَ مَعَكُمْ**﴾ [الحديد: ٤] أنه مختلط بالخلق عندما يفهمه بعض أغبياء العالم الذين لا يفهمون المعية إلا الاختلاط فهؤلاء لا يعون شرعا ولا يفقهون لغة.

اتفق العقلاء وأهل البيان وأهل اللغة أن قول العبد: (زوجتي معي) لا يعني أنها مختلطة به ولا يقول ذلك أحد حتى المجنون لا يقوله إنما يقول ذلك من طبع الله على قلبه وأعمى بصيرته واجتالته الشياطين عن فطرته، العرب تقول في لغتها (زوجتي معي) وليس معنى هذا أنها حالة في ذاته أو أنه حال في ذاتها هذا لا يتأتى لا عقلاً ولا شرعًا فقوله:﴿**وَهُوَ مَعَكُمْ**﴾ [الحديد: ٤] أي بعلمه لأنه قال أيضا﴿**ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ**﴾ [الأعراف: ٥٤] و﴿**يَعْلَمُ**﴾ وقال ﴿**وَهُوَ مَعَكُمْ**﴾ [الحديد: ٤] فالآية صريحة في دلالتها وسياقها وبيانها أن علوه واستواءه على عرشه لا ينافي علمه واطلاعه على أحوال عباده ولا ينافي معيته لهم.

ومما يدل على بطلان هذا أن موسى حين قال:﴿**رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ**﴾ [الأعراف: ١٤٣] قدرات البشر لا تطيق رؤية الله جل وعلا في الحياة الدنيا قال الله جل وعلا ﴿**لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي**﴾ [الأعراف: ١٤٣] الحصى أقوى قدرات ممن خلق من ماء وطين ومن لحم ودم قال انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوق تراني ﴿**فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا**﴾ [الأعراف: ١٤٣] أصبح رمادًا فعلم موسى أنه لا يطيق رؤية الرب ولكن المؤمنين يرون الله في عرصات القيامة ويرونه بعد دخول الجنة لأن الله جل وعلا يخلق فيهم من القدرات ما يجعلهم يقدرون على ذلك فكيف حينئذ يقال: إذا لم يطق موسى والجبل لما تجلى الله إليه فخر موسى صعقا والجبل كان دكًا- كيف يقول هؤلاء المفترون على الله بأن الله مختلط بالخلق تعالى الله جل وعلا عن قولهم علوا

كبيرا لذلك قال الشيخ رحمه الله تعالى:فإن هذا لا توجبه اللغة لأن اللغة تنفي أن يكون معنى قول العبد زوجتي معي أو أخي معي أو أنا معكم أن يكون مختلطًا أو حالّاً أو ممتزجاً في ذواتهم.

ثم قال الشيخ رحمه الله تعالى مثل عقلي يوضح ذلك ويُري الطريق لمن ضل عنه والذين يبحثون عن الحقيقة ويسترشدون بدلالات القرآن والسنة وفيهم ذرة من العقل يعون بهذه الذرة الصواب قال الشيخ بأن القمر آية من أصغر مخلوقاته لم يقل أصغر وهو موضوع في السماء وليس معنى هذا أنه موضوع في السماء كالمسمار في الخشبة هذا باطل

قال تعالى:﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١] أي جعل في السماء والعلماء لا يختلفون في أن ليس كوضع المسمار في الخشبة ولذلك قال بعض العلماء بأن القمر في السماء الدنيا.

وتقدم الحديث عن أبواب السماء وأن لكل سماء أبوابًا لا يدخل أحد إلا بإذن فلم يدخل جبريل ومعه محمد ﷺ إلا بإذن حين فتح له كما في حديث الإسراء والخبر متفق على صحته.

قوله: وهو مع مسافر و غير مسافر أينما كان.

تقول سرنا والقمر هل يعني أن القمر حال فيك أو مختلط بك أو محاب لك حتى المحاباة لا تلزم تقول سرنا والقمر أي مع القمر ولا يلزم أن يكون حالا فيك أو ممتزجا بك

علو الله على خلقه وعدم منافاة ذلك لمعيته، وأن الله جل وعلا فوق سماواته مستو على عرشه ﴿هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾، وتقدم ضرب المثل بالقمر الذي هو آية من آيات الله ، من أصغر مخلوقاته، وهو مع المسافر وغير المسافر أينما كان، وهذا لا يعني اختلاطًا ولا امتزاجًا ولا حلولا، وأن العرب تقول في لغتها: (زوجتي معي)، ولا يعني هذا امتزاجًا ولا اتحادًا ولا اختلاط الزوجة بزوجها، وهذا لا يكابر فيه عاقل، وهو ما أجمعت عليه الرسل واتفق عليه العلماء، وتتجاوب معه الفطر السليمة، وأما من أضله الله وأعمى قلبه واغتالته الشياطين عن فطرته، فقال بالحلول، وقال بالاتحاد وقال بالاختلاط وغير ذلك من الضلالات.

قول الشيخ رحمه الله تعالى:وهو سبحانه فوق عرشه:

والأدلة على هذا كثيرة من الكتاب ومن السنة، ولا يختلف العلماء في هذا، فتعتبر هذه المسألة من المسائل القطعية، والذين لا يؤمنون بعلو الله على خلقه ولا باستوائه على عرشه هم الجهمية وأشباههم، قال ابن القيم عنهم:

ولقد تقلد كفرهم خمسون في عشر من العلماء في البلدان
واللالكائي الإمام حكاه عنهم بل قد حكاه قبله الطبراني

قوله:رقيب على خلقه:

الرقيب: هو الشاهد المهيمن المطلع على كل شيء وهذا لا يتأتى إلا لله جل وعلا، فإن الله جل وعلا رقيب على خلقه بمعنى المهيمن.

فالرقيب والمهيمن اسمان مترادفان، وإن كان الرقيب أعم من المهيمن، الله جل وعلا رقيب على خلقه مهيمن عليهم، بمعنى سامع لأقوالهم، راءٍ لأفعالهم قادر عليهم، فالرقيب يقتضي ثلاثة أمور، الرقيب في وصف الله هو بمعنى المهيمن، والمهيمن يقتضي ثلاثة أمور:

الأمر الأول: أن يكون سميعًا لأقوال العباد وأفعالهم وحركاتهم.

الأمر الثاني: أن يرى أفعالهم وحركاتهم وسكناتهم، ولا يغيب عن رؤيته شيء أبدًا، سواء كان كبيرًا أو صغيرًا.

الأمر الثالث: أن يقتضي القدرة عليهم.

قوله:مطلع عليهم:

لا يخفى عليه شيء، وهذا يبعث على الخوف منه وعلى اتقاء سخطه وتجنب عذابه، فإن العبد حين يهم بالمعصية يتذكر عظمة الله واطلاعه وهيمنته، فيتجنب ذلك وهذا هو المذكور في سورة يوسف فيما ذكره الله جل وعلا عن يوسف:﴿**رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ**﴾، برهان الرب هو الوازع الإيماني في القلب، فلم يجعل الله أهون الناظرين إليه، وكلما قوي إيمان العبد كلما استحضر هذه المعاني، كلما كان أسرع إلى الطاعة وأبعد عن المعصية.

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في الفتاوى أن المعصية تقع من العبد لضعف إيمانه بالغيب، ومن قوي إيمانه بالغيب لم يكد يعصي الله، ومن عصاه سرعان ما ينيب إليه ويستغفره، وإذا ضعف إيمانه بالغيب تلطخ بالذنوب والمعاصي والآثام والناس يتفاوتون في هذا أعظم من تفاوتهم في خَلْقهم وأشكالهم.

قوله:إلى غير ذلك من معاني ربوبيته:

أي: من أفعال الله تعالى وأسمائه وصفاته، وقد ذهب بعض العلماء إلى أن التوحيد ثلاثة أقسام – وهذا قول الجمهور – الربوبية والإلهية والأسماء والصفات.

وذهب ابن تيمية وابن القيم إلى أن التوحيد نوعان، ما هما؟

ابن تيمية يقول:

الأول: (توحيد في المعرفة والإثبات)؛ في المعرفة: الربوبية، الإثبات: الأسماء والصفات؛ ولهذا قال: (إلى غير ذلك من معاني ربوبيته)، وهو بتحدث عن إثبات الأسماء والصفات، وعظمة الله وقدرته ونحو ذلك.

الثاني: يقول ابن تيمية: (توحيد في القصد والطلب)، توحيد في القصد بحيث لا يقصد العبد غير الله جل وعلا، وهذا معنى قوله جل وعلا:﴿**اللَّهُ الصَّمَدُ**﴾؛ أي: الذي تصمد إليه الخلائق في الحوائج، وقيل: هو السيد الذي قد كمل في سؤدده.

فهم هذه الأسماء ضروري، بعض الناس يقولها دائمًا لكن لا يفهمها وهذه مصيبة، الله جل وعلا خاطب العباد بالقرآن وتكلم بالقرآن وأمرهم أن يتفهموا، وإلا كيف يعملون؟!، فإذا لم يتجاوبوا مع المعاني كيف ترق قلوبهم؟! كيف تدمع عيونهم؟!،﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا**﴾،﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾.

فتدبر القرآن إن رمت الهدى فالعلم تحت تدبر القرآن

قوله:وكل هذا الكلام الذي ذكره الله:

الذي ذكره الله: من أنه فوق العرش وأنه معنا وذلك في آية الحديد.

يقول الشيخ:حق على حقيقته:

فلا مجاز في هذا الباب؛ فإن المجاز هو ما يمكن نفيه أو ما لا تقصد حقيقته وكلاهما داخل في هذا المعنى، ولا يختلف العلماء في أن الأصل في الكلام حمله على الحقيقة.

وقد حكى ابن عبد البر في المجلد السابع من التمهيد الإجماع على هذا.

وذكر أبو عمر الطلمنكي – رحمه الله – بأن العلماء أجمعوا على أن الله مستو على عرشه على الحقيقة لا على المجاز.

وقد سمى ابن القيم رحمه الله في كتابه (**الصواعق**) هذا المجاز بالطاغوت الأكبر وعنون له: كسر الطاغوت الأكبر، وذكر وجوهًا كثيرة في هدم هذا الطاغوت والرد عليه، وبيان ضلال القائلين به؛ لماذا؟ لأن هذا يعني ألا يكون لله اسم ولا صفة تحت مسميات المجاز وعدم الحقيقة، ويعني أيضًا أن الناس لا يكاد يفهم بعضهم بعضًا، فإذا تحدث معك شخص تدعي المجاز في هذا الكلام وأنك لا تقصد حقيقته، ويعني أيضًا أن الله خاطب العباد بما لا يعرفون، ولا يفهمون، ولا يعون، ويعني أيضًا أن القرآن ليس تبيانًا لكل شيء، ويعني أيضًا أنه لا يَفهم القرآن إلا أهل المجاز فقط، وحتى أهل المجاز قد لا يفهمون، لأنهم قد يفهمون الآية على الحقيقة وهي على المجاز، ويعني أيضًا تخطئة النبي ﷺ حين حث الأمة كلها على حفظ آية الكرسي وقراءتها دبر كل صلاة، ومعروف أن العامة لا يفهمون إلا الحقيقة، لا يفهمون المجاز، وقال ﷺ:((**من قرأ آية الكرسي دبر كل صلاة لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت**))، ويعني هذا أن النبي قصر في بيان المجاز للعامة، فحين يسمعون هذه الآيات يسمعون الأسماء والصفات لا بد أن يعوا أن الكلام ليس على الحقيقة، وإنما هو على المجاز، وغير ذلك من المعاني الفاسدة.

قوله: لا يحتاج إلى تحريف:

أي: أن الله فوق سماواته مستوٍ على عرشه وهو معنا، حق على حقيقته.

تقدم أن المعية نوعان: معية علمية، ومعية خاصة؛ وهي تقتضي الإحاطة والنصر والتأييد، فتقول لأخيك: اذهب وأنا معك، لا يفهم أحد من اللفظ، أي: أنا مختلط في ذاتك، أو أنا ممتزج فيك، هذا لا يفهمه أحد، حتى المجانين لا يقولون بذلك الذي تنادي به الحلولية والاتحادية، يقصدون بذلك: أنا معك، أي أنصرك وأؤيدك وأعينك وأذب عنك، ونحو ذلك من المعاني المعقولة، فحين قال الله جل وعلا: ﴿**وَهُوَ مَعَكُمْ**﴾، أي بعلمه لكل الخلق المسلمين والكافرين، وحين قال الله جل وعلا فيما ذكره عنه النبي محمد ﷺ لأبي بكر: ﴿**لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا**﴾ أي: بالحفظ، أي: يحفظنا من كفار قريش والنصر والتأييد على المشركين، وحين قال الله جل وعلا لموسى:﴿**إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى**﴾، فسر الله جل وعلا ذلك، وهذا واضح في كل آيات القرآن ﴿**أَسْمَعُ وَأَرَى**﴾، فالذين يقولون بأن عين المخلوق هو عين وجود الله، هؤلاء ما هم بمسلمين، ما هم بمسلمين كالحلولية والاتحادية، وأمثال هؤلاء الذين يكابرون في المنقول ويناقضون العقول.

قوله:ولكن يصان عن الظنون الكاذبة:

وذلك مثل دعاوى الحلوليين والاتحاديين، ومثل دعاوى أهل البدع والضلال الذين يمتنعون عن

وصـــف الله بالعلو؛ لأن هذا يعني أن الســـماء تحويه، كالهواء الضـــام للوعاء، وهذا باطل دل الكتاب والسنة على بطلانه؛ لذلك قال الشيخ رحمه الله:

مثل أن يظن:

مثل خبر لمبتدأ محذوف تقديره، وذلك مثله أن يظن أن ظاهر قوله: (في السماء) أن السماء تقله أن تظله، الله جل وعلا قال: ﴿**وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا**﴾ أي لا يكرثه ولا يثقله، فلا تقوم الســـماء ولا الأرض إلا بإذنه، وهو الذي يمسك السماوات والأرض أن تزولا، وهو الذي يمسك السماء أن تقع على الأرض، وذكر الله جل وعلا أنه: ﴿**وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ**﴾، الأعلى وهو فوق سماواته مســـتو على عرشـــه العظيم الذي لا يحتاج إلى أحد، تأمل ختم الآيات بمثل هذه الأسماء، كرد على الذين يعتقدون ويتصـورون أن السماء تقله أو تظله أو أنه بحاجة إلى خلقه؛ ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**﴾، غني عن كل خلقه.

قال الشـــيخ رحمه الله تعالى – فيمن اعتقد بأن الســـماء تقله وتظله **– يقول:هذا باطل بإجماع أهل العلم والإيمان:**

وهذا لا ينازع فيه أحد، وهذا من الإجماعات القطعية، وتقدم –بالأمس– شـــرح الإجماع القطعي والإجماع الظني، وشروط كل منهما.

قوله: فإن الله قد وسع كرسيه:

قال ابن عباس في الكرسي: موضع القدمين، الكرسي الذي وسع السماوات والأرض، قال ابن عباس عنه: موضع القدمين، روى ذلك عنه الدارمي – رحمه الله تعالى - في الرد على الجهمية وصححه الإمام الدارمي – رحمه الله تعالى–.

قوله: وهو يمسك السماوات والأرض أن تزولا:

وجاء في حديث ابن عمر في الصـحيحين أن الله يضـع السـماوات على إصبع والأراضـين على إصـبع، والجبال والشـجر على إصـبع...الحديث،((**ثم يهزهن، فيقول: أنا الملك، أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟**))، قال جل وعلا:﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾، والقراءة الأخرى وهي الســـبعية ﴿**ملك يوم الـــديـــن**﴾، **قـــال الله جـــل وعـــلا:** ﴿**وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ**﴾، له الأمر كله، قال تعالى:﴿**أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ** ﴾،﴿**وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا**

رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾، وقوله:﴿**وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ**﴾،﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ** ﴾ الكوني والشرعي.

ويؤخذ من ذلك: إثبات قدرة الله جل وعلا.

ويؤخذ من ذلك: إثبات الأسماء والصفات.

ويؤخذ من ذلك: إثبات الأفعال الاختيارية لله.

ويؤخذ من ذلك: إثبات كلام الله جل وعلا.

ويؤخذ من ذلك: بيان عظمة الله وعظيم مخلوقاته.

ويؤخذ من ذلك أن الله هو العلي الأعلى، قال تعالى:﴿**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى**﴾، ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**﴾،﴿**أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ**﴾، وقد قال النبي ﷺ للجارية:((**أين الله؟**)) قالت: في السماء. وحين خطب النبي ﷺ في عرفات في أعظم مجمع حضره الناس قال النبي ﷺ:((**اللهم اشهد**))، يستشهد ربه وكان يرفع إصبعه إلى السماء، وينكتها إلى الأرض، يقول:((**اللهم اشهد، اللهم اشهد، اللهم اشهد**))، فيرفع إصبعه إلى السماء ثم ينكتها إلى الأرض، يستشهد الله جل وعلا الذي في السماء، ويؤخذ من ذلك مشروعية تدبر القرآن، وفهم المعاني، وأن الله جل وعلا خاطب العباد بما تتجاوب معه فطرهم وعقولهم. ويؤخذ من ذلك أن العقل السليم الذي ليس بمبرسم لا يخالف النقل الصحيح:

وإذا تعارض نصٌّ لفظ وارد ... والعقل حتى ليس يلتقيان
فالعقل إما فاسد ويظنه الرَّ ... ائي صحيحًا وهو بالبطلان
أو أن ذاك النص ليس ... بثابت ما قاله المعصوم بالبرهان

ويؤخذ من ذلك ضلال المتكلمين والمعارضين لما جاءت به الرسل، وأن هؤلاء الذين ينادون بالعقل هم أقل الناس عقلا، وأصغرهم قدرًا، وأقلهم فهمًا؛ ولذلك حين تاب أحدهم ندم على ما قال، وقال: يا ليتني أموت على عقيدة امرأة من إحدى عجائز نيسابور، وقال آخر وهو الشهرستاني:

لعمري لقد طفت المعاهد كلها ... وسيرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أرَ إلا واضعًا كف حائر ... على ذقن أو قارعاً في المنابر

وقال الرازي – وهو من أكابرهم وأعلمهم في هذا الباب –:

نهاية إقدام العقول عقال
وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا
وغاية دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا
سوى أن جمعنا في قيل وقالوا

وهذا ليس بالعلم، لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلا ولا تروي غليلا، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، اقرأ في الإثبات ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾، واقرأ في النفي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾، ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي.

نصوص العلو لاتنافي قرب الله من عباده

فَصْل

وَقد دَّخلَ فِي ذَلِكَ الإيمَانُ بِأَنَّهُ قَرِيبٌ مُجِيبٌ؛ كَمَا جَمَعَ بينَ ذَلِكَ فِي قَوْلِه:﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[البقرة: ١٨٦] الآيَة، وَقَوْلِهِ صلى الله عليه وسلم :((إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُم مِّن عُنقِ رَاحِلَتِهِ)). وَمَا ذُكِرَفِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنْ قُرْبِهِ وَمَعِيَّتِهِ لاَ يُنَافِي مَا ذُكِرَمِنْ عُلُوِّهِ وَفَوْقِيَّتِهِ؛ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فِي جَمِيعِ نُعُوتِهِ، وَهُوَ عَلِيٌّ فِي دُنُوِّه، قَرِيبٌ فِي عُلُوِّهِ.

الشرح

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في الحديث عن الإيمان بقرب الله جل وعلا من خلقه، وأن ذلك "لا ينافي علوّه وفوقيته" فالمسلمون يؤمنون بكل ما جاء عن الله على مراد الله، وبكل ما جاء عن رسول الله على مراد رسول ﷺ، ويعتقدون بأن كلام الله حق لا يناقض بعضه بعضا، وأن التناقض يأتي لسوء الأفهام، ونقص العلم، وعدم ضم الأدلة بعضها إلى بعض، فكلام الله حق يصدِّق بعضه بعضًا، ويفسّر بعضه بعضًا.

ولذلك لا يوجد أحد من الصحابة، ولا أحد من أئمة التابعين يستشكل شيئا من ذلك، ولم يقل أحد من الصحابة للنبي ﷺ: كيف يكون الله فوق السماء ويسمع كلامنا، ويجيب دعاءنا، أو كيف الجمع بين علو الله وقربه؟ فكانوا يفهمون ذلك ويتجاوبون مع هذه الحقائق، ومن سلمت فطرته من الشوائب لا يشكل عليه شيء من هذه المعاني.

تقدم الحديث عن الإيمان وأنه قول وعمل، قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، قول القلب وعمله، وهو حبه وخوفه ورجاؤه وولاؤه وبراؤه، الإيمان قول وعمل: قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح.

وقد قال الإمام الشافعي (رحمه الله تعالى):(**الإيمان قول وعمل ونية، ولا يجزئ واحد دون الآخر**) فمن كان مؤمناً بالله وملائكته وكتبه ورسله، وبكل ما جاء عن الله وما جاء عن الرسول ﷺ – يؤمن بأن الله قريب مجيب، كما جمع الله جل وعلا بين ذلك في قوله تعالى:﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ**﴾، **والقرب نوعان:** قربه من داعيه بالإجابة، والثاني قربه من عابديه بالإثابة.

وقد قال الله جل وعلا:﴿**هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ**﴾ فسّر النبي ﷺ ذلك بقوله:((**أنت**

الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن-أي القريب- **فليس دونك شيء**)).

قوله:﴿**أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ**﴾ :

وهذا اللفظ صريح بأن القرب هو قرب إجابة ﴿**فليستجيبوا لي**﴾ أي فليستجيبوا إلى أوامري، ولينتهوا عما نهيتهم عنه، ﴿**وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون**﴾وقد قال هرقل لقومه:(هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي)والخبر في الصحيحين، فلا فلاح ولا رشد بدون طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، ﴿**فلله العزة جميعا**﴾ أي إنسان يريد العزة فليطلبها بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ.

وقوله ﷺ:((**إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته**)):

هذا الخبر في الصحيحين تقدم الحديث عنه في قوله ﷺ حين رأى الصحابة يرفعون أصواتهم بالذكر:((**أربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا، إنما تدعون سميعاً** - أي يسمع كلامكم مما تسرون ومما تعلنون- **بصيرا**-يرى أماكنكم في الليل والنهار وفوق الأرض وتحتها لا يغيب عن نظره شيء صغير ولا كبير- **قريبا**- أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته))، هذا قرب إجابة وقرب إثابة، قرب إجابة لأنهم يدعونه، وقرب إثابة لأنهم يعبدونه.

وقد ذهب الحلولية والاتحادية إلى أن هذا القرب بذاته، وهؤلاء لما قل علمهم وضعف إيمانهم، ظنوا الاختلاف بين الأدلة وضربوا بعضها ببعض، وهذا من الجهل.

ويدل على بطلان كلامهم قوله ﷺ:((**ينزل ربنا إلى السماء الدنيا**)) هذا دليل على أنه فوق السماوات مستوٍ على عرشه وإذا بقي ثلث الليل الآخر نزل، وفيه رد على دعواهم أنه مختلط بالخلق إذ لو كان مختلطاً لم يحتج إلي نزول أو اتحاد أو أنه عين وجود المخلوقات كما **يدعي ابن سينا** وغيره، هذا كله ضلال وكفر بالله جل وعلا.

يؤخذ من هذا باب توحيد الإلهية والربوبية والأسماء والصفات، الحديث هذا يؤخذ منه توحيد الإلهية والربوبية والأسماء والصفات كلها في حديث واحد.

قال الشيخ (رحمه الله تعالى):وما ذكر في الكتاب والسنة من قربه ومعيته:

أي وما جاءت أدلته في الكتاب والسنة من القرب والمعية لا ينافي ما ذكر من العلو والفوقية، لأن كلام الله حق لا يناقض بعضه بعضا، وهذا أمر لا يختلف فيه أهل الإسلام وقد فطر الله على ذلك عباده، وتقدم الحديث عن المعية العامة والمعية الخاصة، فالأدلة الواردة في قربه لا تنافى الأدلة الواردة في

علوه، فهو عَلِيٌ دنوّه، قريب في علوِّه، قال الشـيخ رحمة الله إن الله تعالى ليس كمثله شـيء في جميع نعوته، يعني في أسمائه وصفاته وأفعاله، هذا معنى قوله في جميع نعوته أي في أسمائه وصفاته وأفعاله.

الاسم يعبر عن الذات والصفة تعبر عن المعنى، والصفات نوعان، تقدم الحديث عن ذلك، صفات ذاتية وصفات فعلية.

العقل الصحيح يؤيد النقل ويوافقه، إلا إذا كان العقل فاسداً، المعتزلة والأشاعرة والجهمية والكرامية والماتريدية يقدمون العقل على النقل وهذا من أعظم أسـباب ضـلالهم، ويا ليت العقول صـحيحة إذن لدل ذلك على النقل الصـحيح، لكن هذه العقول مارجة لا تعي حقا ولا تعرف حقيقة، ولذلك ندم كثير من هؤلاء على تحكيم عقولهم كالشهرستاني وهو من أئمة علم الكلام حين قال :

لعمري لقد طفت المعاهد كلها
وسيرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعا كف حائر
على ذقن أو قارعا سن نادم

قال إمام الحرمين: " يا ليتني أموت على عقيدة عجوز من عجائز نيسابور".

وهذا الرازي يقول:

نهاية إقدام العقول عقال
وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا
وغاية دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا
سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

"فقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسـفية، فما رأيتها تشـفي عليلاً، ولا تروي غليلا، ورأيت أقرب الطرق: طريقة القرآن، أقرأ في الإثبات ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾،﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ وأقرأ في النفي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَـيْءٌ﴾،﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي".

قوله :وهو عَلِيٌّ في دنوه:

الحديث هنا عن علو الذات الذي أجمع عليه أهل السنة، فهو جل وعلا فوق سماواته مستوٍ على عرشه وهذا لا ينافي قربه، فإنه في علوه قريب، يجيب دعوة الداع يسمع يبصر ويرى، ولذلك تقول عائشة حين جاءت المجادلة تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ، تقول:(الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، والله لقد جاءت المجادلة إلى رسول الله ﷺ وأنا قريبة منها ما أسمع صوتها وسمع الله شكواها من فوق سبع سماوات، وأنزل الله ﴿**قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا**﴾).

قوله:قريب في علوه:

أي هو قريب في إجابته وإثابته، لا ينافي علوه واستواءه على عرشه .

وقوله جل وعلا:﴿**وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**﴾ ذهب **شيخ الإسلام** وتلميذه العلامة **ابن القيم** إلى أن المقصود ونحن، أي بملائكتنا، من سياق الآية، يقول: والأنا المعظم يقول نحن نفعل كذا ونقول كذا، إذا كان له أتباع، وأكد شيخ الإسلام قوله بالآية بعدها:﴿**إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ**﴾فالحديث إذن عن الملائكة، سياق الآية الثانية ﴿**وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**﴾أي أن المقصود الملائكة وأنكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى قول من قال: ونحن أقرب إليه بالعلم من حبل الوريد، أنكر هذا. . ورد هو وغيره على من قال ونحن أقرب إليه أي بالذات من حبل الوريد وادعوا بأن الله في كل مكان، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

وتقدم قوله جل وعلا ﴿**فَإِنِّي قَرِيبٌ**﴾أي:قريب الإجابة وأن الذي تدعونه سميع بصير قريب، أي بإجابتكم وإثابتكم، وهو فوق سماواته مستوٍ على عرشه.

قال أبو عمر الطلمنكي رحمه الله:(**أجمع العلماء على أن الله مستوٍ على عرشه على الحقيقة لا على المجاز**) فهو يحكي إجماع العلماء، والأصل في الكلام هو الحقيقة دون المجاز ومن المجاز ما يمكن نفيه، أو إيهام السامع خلاف ما يريده، وهذا باطل، **وحتى الأصوليون** يقررون بأن الأصل في الشيء الحقيقة كما قال ابن المراقي:

واللفظ محمول على الشرع إن لم يكن فمطلق العرف

ولا يختلف العلماء في هذه الأصول، وأنه يجب حمل الكلام على حقيقته، وأن الله جل وعلا فوق سماواته، مستوٍ على عرشه، ودلت الأدلة على أن قربه قرب إجابة وقرب إثابة، وبدليل الأدلة الأخرى:

((**ينزل ربنا**)) لو كان كما يقولون مختلطا بالخلق أو ممتزجا أو حالا فيهم، أو هو في كل مكان لم يكن للنزول معنى، ولم يكن لتخصيص العرش معنى، ولذلك قال الله جل وعلا: ﴿**ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ**﴾ ﴿**ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ**﴾ لو كان الله في كل مكان، لم يحتج أن يستوي إلى السماء، ولم يحتج ليستوي على عرشه ﴿**ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ**﴾ ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**﴾.

ثم إن موسى لما طلب من الله أن يراه، مجرد رؤية، القوى البشرية في الحياة لا تطيق رؤية الله، الله يرى في عرصات القيامة لأن الله يخلق فيهم قوة وقدرة أقوى من قدرتهم في الحياة، يرونه بعد دخول الجنة ﴿**لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ**﴾قال الله جل وعلا لموسى:﴿**لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا**﴾تجلى مجرد تجل، فعلم موسى أنه لا يطيق رؤية الله جل وعلا، وليس معناه أن رؤية الله محالة، لو كانت محالة ما علقها الله على الجبل، ولكنها ممتنعة في الحياة الدنيا، خلافا لما تدعي الصوفية من أنهم يرون الله في الحياة الدنيا، هذه ضلال وانحراف، الله جل وعلا يرى في عرصات القيامة، ويرى بعد دخول الجنة، قال ﷺ:((**أنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا**)) قبل غروب الشمس وهي العصر، وقبل طلوع الشمس وهي الفجر.

القرآن كلام الله منزل غير مخلوق

فَصْلٌ

وَمِنَ الإِيمَانِ باللهِ وَكُتُبِهِ الإيمانُ بأَنَّ الْقُرْآنَ كَلامُ اللهِ، مُنَزَّلٌ، غَيْرُمَخْلُوقٍ، مِنْهُ بَدَأَ، وَإِلَيْهِ يَعُودُ، وَأَنَّ اللهَ تَكَلَّمَ بِهِ حَقِيقَةً، وَأَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم هُوَكَلامُ اللهِ حَقِيقَةً، لاَ كَلامَ غَيْرِهِ. وَلا يَجُوزُ إِطْلاقُ الْقَوْلِ بِأَنَّهُ حِكَايَةٌ عَنْ كَلاَمِ اللهِ، أَوْ عِبَارَةٌ؛ بَلْ إِذَا قَرَأَهُ النَّاسُ أَوْ كَتَبُوهُ فِي الْمَصَاحِفِ؛ لَمْ يَخْرُجْ بِذَلِكَ عَنْ أَنْ يَكُونَ كَلامَ اللهِ تَعَالَى حَقِيقَةً، فَإِنَّ الْكَلاَمَ إِنَّمَا يُضَافُ حَقِيقَةً إِلَى مَنْ قَالَهُ مُبْتَدِئًا، لاَ إِلَى مَنْ قَالَهُ مُبَلِّغًا مُؤَدِّيًا. وَهُوَكَلامُ اللهِ؛ حُرُوفُهُ، وَمَعَانِيهِ؛ لَيْسَ كَلامُ اللهِ الْحُرُوفَ دُونَ الْمَعَانِي، وَلاَ الْمَعَانِيَ دُونَ الْحُرُوفِ.

الشرح

شرع الشيخ رحمه الله تعالى يتحدث عن إثبات صفة الكلام لله جل وعلا.

قال:ومن الإيمان بالله وكتبه الإيمان :

الإيمان: مبتدأ مؤخر، وتقدم تعريف الإيمان: قول وعمل: قول القلب واللسان وعمل القلب واللسان والجوارح، الإيمان قول وعمل ونية، ولا يجزئ واحد دون الآخر ، بمعنى لا يجزئ جنس القول عن جنس العمل ولا جنس العمل عن جنس الاعتقاد، بمعنى أنه لو فصل جنس العمل لكان مرتدا لأنه ما أتى بالإيمان، وعجيب هذا الذي يقول إن الإيمان قول وعمل، يقول ما يكفر تارك العمل وأنه ضعيف الإيمان، ولا يسمى هذا إيماناً، إذ لابد أن نأخذ من التعريف أن تارك جنس القول وتارك جنس العمل يعتبر كافراً.

ولو أن الكافر قال: (أشهد أن لا إله إلا الله)، ولا يعمل أبدا لا يصلي ولا يصوم ولا يزكي ولا يحج، هل نعتبر هذا مسلما (لا) لأنه ما أتى بالإيمان، الإيمان قول وعمل، وأين العمل، فلابد أن يأتي بجنس العمل ولكن الشارح يقول ولا يجزئ واحد دون الآخر.

فمن الإيمان بالله الإيمان بأن القرآن كلام الله بمعنى أن الله تكلم، والله يتكلم متى شاء إذا شاء، وكلام الله حقيقة ليس مجازا لأن العرب في لغتها لا تعرف تأكيد الأفعال بالمصادر إلا إذا تحققت فقوله:﴿**وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا**﴾كلم فعل ماض، الاسم الشريف فاعل، موسى مفعول به، تكليماً مصدر يسمى مفعولا مطلقا، العرب في لغتها لا تؤكد الأفعال بمصادر إلا إذا كان الشيء حقيقة وليس مجازاً.

ونفي الكلام عن الله يقتضي عدة أمور:

الأمر الأول: أن هذا وصف لله جل وعلا بالنقائص.

الأمر الثاني: إنكار الرسالات والنبوات.

الأمر الثالث: إنكار الأوامر والنواهي.

لقول جل وعلا:﴿**إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾وقوله جل وعلا ﴿**وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ**﴾وقال ﷺ:((**من يؤويني، من يحملني لأبلغ كلام ربي**)) وغير ذلك من الأدلة الدالة على إثبات صفة الكلام لله جل وعلا.

والكلام صفة كمال وقال تعالى:﴿**وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ**﴾وأهل السنة لا يختلفون في ذلك، والذين يقولون بأن كلام الله مخلوق، ويقولون بأن القرآن مخلوق، يعني هذا أن شيئا من الله مخلوق، ومن قال بأن شيئا من الله مخلوق فإنه كافر بالإجماع، وهذا لازم القول بأن القرآن مخلوق، من لازم القول بأن القرآن مخلوق أن يكون شيء من الله مخلوقاً وهذا كفر بالله جل وعلا كما قال مالك وغيره من العلماء.

قوله: كلام الله منزل غير مخلوق:

لفظة (غير مخلوق) لم تكن متداولة في عصر الصحابة رضي الله عنهم، وقد قال ذلك أئمة التابعين حين كان هذا يقتضي الحديث عن هذه المسألة، ولا حرج من إطلاق ذلك مناظرة لأهل البدع والضلال ، لأن هذا حق والمسلم يلتزم الحق، ولا يمتنع عن ذكره، إن قال قائل : لم يرد هذا القول، بل ورد أنه منزل وأنه كلام الله، نقول: نحن نقول إنه غير مخلوق كبراءة من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة، لأنهم هم يقولون إنه منزل، لكنهم يقولون هو مخلوق، خلقه الله ثم أنزله، فأنت تقول غير مخلوق كبراءة من هؤلاء لأنهم يلبسون على الناس ولذلك زر بن حبيش وجماعة من الأكابر يقولون بأنه منزل وغير مخلوق وأجمع على هذا العلماء.

قوله:منه بدأ وإليه يعود:

أي تكلم الله به.

قوله:وأن الله تكلم به حقيقة:

هذا لفظ القرآن:﴿**وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا**﴾، وهذا لإنكار دعوى المجاز، وللرد على الأشاعرة

والكلابية والمعتزلة وغيرهم.

فالأشاعرة يقولون بأنه عبارة عن كلام الله، والكلابية يقولون بأنه حكاية عن كلام الله، وقول كل من الكلابية والأشاعرة هو بمعنى واحد.

فالكلابية والأشاعرة متفقون على أن القرآن مخلوق، فنفس أصول الأشاعرة هي أصول الجهمية، إلا أن السلف يكفرون الجهمية، ولا يكفرون الأشاعرة؛ لأن أسلوب الأشاعرة أقوى، وهم أخف شرا من الجهمية، وللأشاعرة نصرة للدين؛ كالردود على الرافضة ومحاربتهم ومواجهتهم، وفي نفس الوقت هم يضطربون في هذا الباب فيثبتون بعضا وينكرون بعضا.

ولكن الأصول التي ينطلق منها الأشاعرة هي نفس أصول المعتزلة، وأصول الجهمية، فهم يتفقون في قضايا كثيرة كالقول بخلق القرآن، وإنكار العلو، وإنكار بعض الأسماء والصفات، هم يتفقون في هذا الأصول، فالذين ينادون الآن بأن الأشاعرة لا يختلفون عن أهل السنة أو هم من أهل السنة – هذا ضلال وتلبيس؛ أولا: يقولون بأن الأشاعرة من أهل السنة إلا في الأسماء والصفات، وهذا غلط أيضا، فهذا غير صحيح؛ الأشاعرة ليسوا من أهل السنة في أبواب كثيرة، حتى في الإيمان، الأشاعرة في الإيمان جهمية.

فالأشاعرة يقولون في باب الإيمان كما هو موجود في جوهرة التوحيد، فالذين يقرؤون جوهرة التوحيد الآن هم على عقيدة الجهمية في باب الإيمان، يقولون عن الإيمان بأنه مجرد تصديق، هذا قول الجهمية الذين يقولون بالمعرفة ،وهم أقبح من المرجئة؛ المرجئة يقولون: قول واعتقاد، الأشاعرة ما يقولون: قول، ترجع الصورة إلى مجرد الاعتقاد، فيقولون الإيمان مجرد تصديق، فمن صدق فقد آمن، وعلى هذا القول الضال يكون فرعون مؤمنا؛ لأنه صدق وآمن حين لا ينفعه الإيمان، وأبو طالب يكون مؤمنا؛ لأنه يقول:

ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذار مسبة لوجدتني سمحا بذاك مبينا

ويقول:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفينا

فهم مصدقون، حتى صريح القرآن عن الآية التي نزلت في أبي طالب:﴿**وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ**﴾، وهم ينهون عن أذيته، وينأون عن اتباعه، ويقول أبو طالب: لولا أن تعيرني قريش لأقررت بها

عينك، يعني: لا إله إلا الله، هذا هو التصديق، ولكن لم ينفعه تصديق ما دام أنه لم يعمل، فالذين يقولون بأننا لا نختلف مع أهل السنة إلا في باب الأسماء والصفات هذا غلط، وليس له أصل فأهل السنة يختلفون مع الأشاعرة في أبواب كثيرة، يختلفون مع الأشاعرة في الإيمان (فالأشاعرة في الإيمان على عقيدة الجهمية)، يختلفون مع الأشاعرة في مصادر التلقي.

هذا محور الفوارق بين أهل السنة والأشاعرة، فالأشاعرة حين تنظر في مصادر تلقي تجد العقل قبل الكتاب والسنة، وأعظِم ذلك من قول! وأقبح به من ضلال! فهؤلاء يجعلون أصول التلقي العقل، أما أهل السنة فالكتاب والسنة، ويقولون: النقل الصحيح لا يعارض العقل الصحيح:

فـإذا تعـارض نص لفظ وارد		**والعقـل حتى ليس يلتقيـان**
فالعقل إما فاسـد ويظنه الرا		**ئي صـحيحا وهو ذو بطلان**
أو أن ذاك النص ليس بثابت		**مـا قـالـه المعصـوم بالبرهـان**

ومما يخالفون فيه أهل السنة والجماعة أيضا الأسماء والصفات، يختلفون في الأسماء والصفات.

ومما يختلف فيه أهل السنة والجماعة أيضا تنزيل الأحكام على المعينين، وأصول متعددة يفارق فيها أهل السنة الأشاعرة.

وكثير من متأخري الأشاعرة على أصول الجهمية، والذي يدرس الآن في الجامعات في العالم العربي والإسلامي على مذاهب الماتريدية وعلى مذاهب الأشاعرة الغلاة، باستثناء ما يوجد الآن في بلادنا، تتلقون العقيدة الطحاوية وهي على أصول أئمة أهل السنة والجماعة، باستثناء مسائل يسيرة أخطأ فيها الطحاوي رحمه الله تعالى.

فكتاب جوهرة التوحيد يدرس الآن في كثير من الجامعات العربية والإسلامية وهو يمثل مذاهب الأشاعرة والماتريدية من المتأخرين وهم يحفظون هذا الكتاب، ويستظهرونه عن ظهر قلب، ويحتجون به كما يحتجون بالقرآن والسنة أو أعظم؛ ويقولون دائما في كتبهم: قال في جوهرة التوحيد، حكى صاحب جوهرة التوحيد.

قوله:وأن هذا القرآن الذي أنزله على محمد هو كلام الله حقيقة، لا كلام غيره:

وهذا لا يختلف فيه العلماء؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((**لأبلغ كلام ربي**)). والله عز وجل

تكلم بالتوراة، وتكلم بالإنجيل، وتكلم بالزبور، وتكلم بالفرقان – القرآن –، هذه كتب كلها منزَّلة من عند الله جل وعلا، وهي كلام الله حقيقة لا كلام غيره، فإن الكلام إنما يضاف في الحقيقة إلى من قاله مبتدئا؛ لا إلى من قاله مبلغا مؤديا، وسيأتي إن شاء الله توضيح هذه المسألة، والله أعلم.

القرآن هو كلام الله أنزله غير مخلوق ، منه بدأ وإليه يعود ، وأن الله تكلم به حقيقة، قال : "ولا يجوز إطلاق القول- لا يجوز بمعنى : ويمتنع – ويمتنع شرعاً إطلاق القول بأنه حكاية عن كلام الله"

ويسأل كثير من الناس في فتاواهم عن الفرق بين ما لا يجوز وبين ما يحرم، وهذا فيه تفصيل ، فالذي يجري علي ألسنة الفقهاء أنه لا تختلف لفظة (لا يجوز) عن لفظة يحرم، والذي يجري على ألسنة النحاة من قولهم (لا يجوز كذا) لا يعنون بذلك التحريم؛ يعنون لا يجوز لغة، فلا يجوز في اللغة أن ترفع المفعول ليس بمعنى أنه حرام أي يثاب فاعله ويعاقب تاركه.

ولفظة (لا يجوز) أعم من لفظة التحريم ، فكل محرم لا يجوز وليس كل ما لا يجوز يكون محرماً، فقوله "لا يطلق القول " أي يمتنع إطلاق القول بأنه "حكاية "كقول الكلابية أو" عبارة" كقول الأشاعرة؛ فإن الأشاعرة يزعمون أن القرآن عبارة عن كلام الله، والكلابية يقولون حكاية عن كلام الله، ويؤول القولان معاً إلى القول بخلق القرآن، وأنه قام على العقل الفعال وعبر عما في نفس الله –جل وعلا.

وقد اتفق العلماء على أن الذي قرؤوه أو كتبوه في المصاحف لم يخرج بذلك على أن يكون كلام الله على الحقيقة فإن الله –جل وعلا- موصوف بصفة الكلام؛ الذي هو صفته، فيتكلم متى شاء إذا شاء، وصفة الكلام من الصفات الذاتية والفعلية الاختيارية وهي صفة كمال لله، فعطاؤه كلام وعذابه كلام، قال تعالى:﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾ وقال تعالى: ﴿**أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ**﴾ فقد فرق الله –جل وعلا- بين الخلق وبين الأمر وقد احتج بهذه الآية سفيان وأحمد وغيرهما من الأئمة على اثبات صفة الكلام لله –جل وعلا- وإلا لم يكن للمغايرة معنى ، فقال:﴿**أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ**﴾ فرق الله –جل وعلا- بين الخلق وبين الأمر ، فالأمر هو قوله وكلامه، قال تعالى:﴿**فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ**﴾ فإن الكلام إنما يضاف حقيقة إلى من قاله مبتدئًا لا إلى من قاله مبلغاً مؤدياً، فقوله –جل وعلا-:﴿**إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ**﴾ هذه إضافة تبليغ، فحين يحكي لك زيد عن عبد الله تقول: حدثني زيد مبلغاً عن عبد الله، فالكلام كلام زيد لكن الأصل لمن؟ لعبد الله ؛ لأنه هو الذي قاله مبتدئًا ، وزيد مبلغ مؤدٍ ، وليس له سوى النقل، فقوله:﴿**إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ**﴾ هذا مضاف إضافة تبليغ بدليل أن الله جل وعلا كفر من قال عن القرآن الكريم بأنه قول البشر ﴿**إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ**﴾ قُتل بمعنى لعن؛ لعنه الله ﴿**ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ***

﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ هذا لعنه الله وبين الله كفره لأنه نسب كلام الله إلى قول البشر ، فعلم أن القرآن ليس من كلام محمد ، وليس من كلام جبريل ، وأن الله تكلم بذلك حقيقة.

وتقدم بالأمس اتفاق أهل اللغة و البيان على أن الأفعال إذا أكدت بمصادر لا تحتمل إلا الحقيقة؛ فحين قال الله: **﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾** الكلام في هذه الآية باتفاق أهل اللغة والبيان وأهل المعرفة حقيقي وليس فيه شيء من المجاز، وحين ناظر أحدُ أهل السنة أحد علماء الكلام في إثبات صفة الكلام لله -جل وعلا- احتج عليه السني بهذه الآية :**﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾** فنصب الجهمي لفظ الجلالة ؛ فجعل موسى هو الذي يتكلم، قال له السني: هب أننا قلنا كما تقول، فما أصنع في قول الله -جل وعلا- **﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾** فبهت هذا الجهمي.

قوله: "وهو كلام الله" أي الموجود بين الدفتين ، والموجود في الصدور - هو كلام الله، حروفه ومعانيه، الحرف من الله؛ هو الذي تكلم الله به، قال النبي ﷺ:((**فيناديهم بصوت يسمعه مَن بَعُد كما يسمعه من قرب**)) ومعانيه؛ فلا يعبر جبريل عما في نفس الله كما يقول أهل البدع، أو أن الله موصوف بالكلام في الجملة،وجبريل يعبر عما يريده الله مثلما يخلقه في نفسه ، هذا كلام باطل.

ولهذا قال أهل السنة ليس كلام الله الحروف دون المعاني ولا المعاني دون الحروف كما يقول الأشاعرة والكلابية، فهؤلاء يقولون بأن كلام الله حروف دون معانٍ ، وهؤلاء يقولون أن كلام الله المعاني دون الحروف، فهؤلاء وأولئك ليس لهم إلا أن نأتي بنصوص وأدلة من كتاب الله ومن سنة رسول الله ﷺ، تدل على بطلان هذا القول ومخالفته للمنقول والمعقول.

تقدم بالأمس أن هذا القول يؤول إلى القول بخلق القرآن وإلى وصف الله بالخرس تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، وإلى إنكار الرسالات والنبوات وغير ذلك، فكلام الله الحرف والمعنى، فقوله -جل وعلا- **﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾** هذه الحروف تكلم الله بها بنحو ما تقرؤون في القرآن، والمعنى من الله لم يعبر أحد عما يريده الله بكلامه، قال تعالى:**﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾**، وقال تعالى:**﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾**، ولم يكن أحدٌ من الصحابة ينازع في شيء من هذا؛ بل كانوا متفقين على الإقرار بأن القرآن هو كلام الله؛ حروفه ومعانيه، وليس كلام الله حروفًا دون معانٍ كقول الأشاعرة، ولا معاني دون حروف كقول الكلابية، قال الله -جل وعلا-:**﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾** ولم يقل خلق الله، فعلم أن القرآن هو كلام الله، والله -جل وعلا- تكلم بالتوراة، تكلم بالإنجيل، تكلم بالزبور، تكلم بالفرقان، وهذه الكتب كلها منزلة من الله.

والله -جل وعلا- يتكلم بصوت كما أجمع أهل السنة على هذا؛ فقد قال النبي ﷺ:((**بصوت**

يســمعه من بعد كما يســمعه من قرب)) وقال ﷺ والحديث في الصــحيحين ((**ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان**))، وفيه إثبات صفة الكلام لله، حكيت لكم الإجماع عن ابن عبد البر وعن الطلمنكي وغيرهما أن الأصل في الكلام حمله على الحقيقة، وهذه قاعدة من قواعد أهل السنة في باب الأسماء والصـفات وغير ذلك؛ أن الأصـل في الكلام حمله على الحقيقة، فلا تجوز دعوى المجاز في شيء من ذلك.

رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة

وَقَد دَّخَلَ أَيْضًا فِيمَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الإِيمَانِ بِهِ وَبِكُتُبِهِ وَبِمَلاَئِكَتِهِ وَبِرُسُلِهِ: الإِيمَانُ بِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَرَوْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَيَانًا بِأَبْصَارِهِمْ كَمَا يَرَوْنَ الشَّمْسَ صَحْوًا لَيْسَ بِهَا سَحَابٌ، وَكَمَا يَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لاَ يُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ. يَرَوْنَهُ سُبْحَانَهُ وَهُمْ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَرَوْنَهُ بَعْدَ دُخُولِ الْجَنَّةِ؛ كَمَا يَشَاءُ اللهُ تَعَالَى.

الشرح

قوله:وقد دخل أيضاً فيما ذكرناه من الإيمان به:

أي: من آمن بالله وملائكته ورسله، آمن بأن المؤمنين يرونه يوم القيامة، وقد قال الإمام مالك وأحمد وغيرهما: من لم يؤمن بأن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة عياناً بأبصارهم فليس بمسلم، لأنه مكذب لكلام الله ومنكر وجاحد لكلام رسول الله ﷺ ومخالف للإجماعات القطعية في هذا الباب، قال الله -جل وعلا-:﴿**كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ**﴾ قال الشافعي -رحمه الله تعالى-: حين حجب الله أعداءه كان هذا دليلاً على أن أولياءه بخلاف ذلك، وقال صلى الله عليه وسلم: ((**إنكم سترون ربكم**)) السين هنا للتنفيس،((**سترون ربكم**)) وهي تفيد الاستقبال وتفيد بيان الحقيقة، قد أكد النبي ﷺ ذلك بقوله ((**كما ترون القمر ليلة البدر**)) هذا تشبيه الرؤية بالرؤية لا تشبيه المرئي بالمرئي، كما قال النبي ﷺ: ((**إن أول زمرة تدخل الجنة وجوههم على وجوه القمر**)) وهذا لتقريب الأفهام ولبيان الحقيقة، فالمؤمنون يرون الله -جل وعلا- في عرصات القيامة ويرونه بعد دخول الجنة وتكون لذة الرؤية بقدر الإيمان، وذلك من دعاء النبي ﷺ ((**وأسألك لذة النظر إلى وجهك**))، وقال تعالى:﴿**لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ**﴾ الحسنى أي الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الرب.

ويشترك في الرؤية الرجال والنساء، وقد جاء في بعض الآثار بأن العميان يرونه قبل المبصرين جزاءً لهم على صبرهم واحتسابهم، وقال بذلك غير واحد من أئمة السلف ولكن لا يثبت في الباب شيء عن النبي عن النبي ﷺ،هناك آثار عن بعض السلف ولكن لا دليل على شيء من ذلك، وفي الوقت الذي أجمع فيه أهل السنة على أن المؤمنين يرون ربهم في العرصات ويرونه بعد دخول الجنة، وأجمعوا على أن المشركين لا يرونه؛ لا في العرصات، ولا عند دخول الجنة، اختلف العلماء في المنافقين في العرصات، انعقد الإجماع على أن المؤمنين يرونه في العرصات وبعد دخول الجنة، وانعقد الإجماع على أن الكفار لا يرونه في العرصات ولا يرونه في الجنة لأنه حرم الجنة على الكافرين ﴿**إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ**﴾، واختلف الفقهاء والعلماء في رؤية

المنافقين لربهم في العرصات، وهذه الرؤية عند الذين يقولون بإثباتها هي رؤية تحسر كرجل يرى الذي خسره ويتحسر عليه،نظير هذا قوله صلى الله عليه وسلم:((**ما من ميت يموت ويوضع في قبره،فإن كان من أهل الجنة فُتح له باب من النار وقيل هذا مقعدك لو لم تؤمن بالله، وإن كان من أهل النار فُتح له مقعده من الجنة وقيل هذا مقعدك لو آمنت بالله**)) فهذا على وجه التحسر والندم فهم يرون الله ويتحسرون ويندمون على ما فرطوا في جنب الله، الذين يرون ذلك على هذا الوجه، لا يكادون يخرجون عن هذا المعنى، وقال بعض العلماء بالعموم، ولكن يبدو أن هؤلاء لم يروا حديث أبي سعيد في الصحيحين .فحين يرونه يسجدون باستثناء المنافقين، لأنه إذا أراد أن يسجد فلا يقدر، وبعد هذا الكلام لا يكلمهم الله؛ أي لا يكلمهم الله كلاماً يسرهم ويفرحهم، فهم يعذبون ويتحسرون على تفريطهم في طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ.

قوله:((**وكما ترون القمر ليلة البدر**)):

أي: لا يلحقهم ضيم ولا زحام في رؤية الرب –جل وعلا–، فهم يتنعمون برؤيته ويتشوقون لذلك ، وأعظم نعيم أهل الجنة هو رؤية الرب –جل وعلا–، قال تعالى:﴿**وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ**﴾ النظر إلى وجه الرب ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**﴾، ﴿**لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ**﴾ فسر هذه الآية أبو بكر الصديق وأكابر الصحابة بأن الحسنى هي الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الرب –جل وعلا–، وأهل السنة يؤمنون بذلك، ويؤمنون بكل ما جاء عن الله على مراد الله، وبكل ما جاء عن رسول الله ﷺ على مراد رسول الله ﷺ لا يشبهون ولا يكيفون ولا يمثلون لأنه سبحانه لا شبيه له ولا كفؤ له ولا ند له ولا يقاس بخلقه، وفارق في هذه المسألة الجهمية والمعتزلة والأشاعرة فلا يثبتون لله –جل وعلا– الرؤية ويحرفون الكلم عن مواضعه، ويقولون عن ذلك بأن معناه النعيم؛ إشارة إلى النعيم، إشارة إلى الرضا، إشارة إلى المحبة، إشارة إلى العطاء، وهذا باطل لأن النبي ﷺ قال:((**كما ترون القمر ليلة البدر**)) هذا تشبيه للرؤية بالرؤية وأنها حقيقة وليست مجازية، وليست بمعنى الإثابة والعطاء أو كناية عن المحبة أوغير ذلك.

وأما قوله –جل وعلا– ﴿**لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ**﴾ فقد قال أهل العلم إن المعنى في هذه الآية على معنيين؛ المعنى الأول:﴿**لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ**﴾ بمعنى لا تحيط به، فالإنسان يرى السماء، هل يحيط بها؟ يرى القمر، هل يحيط به؟ أنا أرى أمامي الآن ما هنا، هل أحيط به؟ لا أحيط به، لا أستطيع أن أعري عما وراءه وعما يكون عن جنبه، إذا القول الأول ﴿**لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ**﴾ يعنى لا تحيط به .

القول الثاني:﴿**لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ**﴾ بمعنى لا تراه في الدنيا ، والأكثرون على القول الأول؛ وهو أنهم

يرونه ولا يحيطون به.

وأما قوله -جل وعلا- لموسى ﴿لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾ فإن موسى طلب رؤية الله؛ فهو مستقر في علمه أن الله يُرى لذلك طلب الرؤية ، والله -جل وعلا- ما نهاه عن ذلك ، ولا قال له لا يحق لك أن تسأل ما ليس لك به علم، علق الرؤية على ممكن، قال:﴿وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ وتعليق الشيء على ممكن يكون ممكنًا عند العلماء، ولكن القوة البشرية في الحياة الدنيا لا تطيق رؤية الرب ، وقد بين الله ذلك بما يفهمه العباد فقال:﴿وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ التجلي في اللغة هو الظهور، ﴿جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾

وأهل البدع يقولون بأن (لن) تفيد النفي المؤبد ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ وهذا باطل من حيث المعنى لأن الله قال:﴿وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾ وموسى أعرف بربه من الجهمية وأهل البدع بحيث لا يطلب ما لا يحق له، وفي نفس الوقت هؤلاء يخالفون في كلام أهل اللغة؛ فإن أهل اللغة لا يرون (لن) تفيد النفي التأبيدي كما سرد ذلك ابن مالك -رحمه الله تعالى- في الشافية وليس في الألفية.

ومن رأى النفي بلن مؤبداً فقوله انبذ وخلافه اعمدا

وقوله:يرونه سبحانه وهم في عرصات القيامة، ثم يرونه بعد دخول الجنة كما يشاء الله تعالى:

لم يرد بعد دخول الجنة هل يرونه في اليوم مرة، مرتين، هل يرونه مرة في الأسبوع؟ هل يرونه مرة في الشهر؟ هل يرونه مرة واحدة ؟لم يرد شيء من ذلك، ولا تفصيل ذلك، والأدلة الواردة والآثار المذكورة في بعض كتب العلماء من أنهم يرونه يوم الجمعة، هذه أحاديث معلولة منكرة، أعلمنا الله أنهم يرونه بعد دخول الجنة ، ولم يرد شيء يثبت أنهم يرونه في كل جمعة وفي كل ساعة وفي كل لحظة وفي كل يوم، لم يرد هذا، لا تماروا أنهم يرونه ، وأن رؤيته من أعلى أنواع النعيم ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ الزيادة هي النظر إلى وجه الرب -جل وعلا- فحري بالمسلم الذي يسمع لمثل هذا أن يجتهد في الأعمال الصالحات ليصل إلى هذه المرتبة ، ولذلك يؤخذ من هذا أن هذه الأعمال سبب لدخول الجنة، قال تعالى:﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ويؤخذ من هذا إثبات الجزاء والحساب والبعث بعد الموت ، ويؤخذ من هذا إثبات القدرة لله -جل وعلا- ويؤخذ من هذا إثبات الأسماء والصفات لله -جل وعلا- ويؤخذ من هذا إثبات العظمة لله -جل وعلا- حيث يدير الكون كله؛ علويه وسفليه، ولا تختلط عليه أصوات العباد على اختلاف لغاتهم وكثرة عددهم، وهو مطلع على أعمالهم وراءٍ لأفعالهم،

وأهل السـنة يؤمنون بكل هذا ويثبتون لله ما أثبته لنفسـه ، أو أثبته له رسـوله ﷺ بما ثبت عنه من الأحاديث الصـحاح التي تلقاها أهل المعرفة بالقبول ، ويثبتون ذلك على فَهْم الصـحابة، فَهْم الأئمة المتبوعين.

فتنة القبر وأحوال الخلق يوم القيامة

فَصْل

وَمِنَ الإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الآخِرِ الإِيمَانُ بِكُلِّ مَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم مِمَّا يَكُونُ بَعْدَ الْمَوْتِ، فَيُؤْمِنُونَ بِفِتْنَةِ الْقَبْرِ، وَبِعَذَابِ الْقَبْرِ وَنَعِيمِهِ. فَأَمَّا الْفِتْنَةُ: فَإِنَّ النَّاسَ يُمْتَحَنُونَ فِي قُبُورِهِمْ، فَيُقَالُ لِلرَّجُلِ: مَن رَّبُّكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ وَمَن نَّبِيُّكَ؟ فيُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ، فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: رَبِّيَ اللهُ، وَالإِسْلاَمُ دِينِي، وَمُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم نَبِيِّي، وَأَمَّا الْمُرْتَابُ: فَيَقُولُ: هَاه هَاه: لاَ أَدْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ، فَيُضْرَبُ بِمِرْزَبَةٍ مِنْ حَدِيدٍ، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا كُلُّ شَيْءٍ؛ إِلاَّ الإِنْسَانَ، وَلَوْ سَمِعَهَا الإِنْسَانُ؛ لَصُعِقَ.

ثُمَّ بَعْدَ هَذِهِ الْفِتْنَةِ إِمَّا نَعِيمٌ وَإِمَّا عَذَابٌ، إِلَى أَنْ تَقُومَ الْقِيَامَةُ الْكُبْرَى، فَتُعَادُ الأَرْوَاحُ إِلَى الأَجْسَادِ.

وَتَقُومُ الْقِيَامَةُ الَّتِي أَخْبَرَ اللهُ بِهَا فِي كِتَابِهِ، وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ، وَأَجْمَعَ عَلَيْهَا الْمُسْلِمُونَ، فَيَقُومُ النَّاسُ مِنْ قُبُورِهِمْ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً ، وَتَدْنُو مِنْهُمُ الشَّمْسُ ، وَيُلْجِمُهُمُ الْعَرَقُ ، فَتُنْصَبُ الْمَوَازِينُ ، فَتُوزَنُ بِهَا أَعْمَالُ الْعِبَادِ،﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٢-١٠٣]. وَتُنْشَرُ الدَّوَاوِينُ، وَهِيَ صَحَائِفُ الأَعْمَالِ، فَآخِذٌ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ، وآخِذٌ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ أَوْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ؛ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا اقْرَأْ كَتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٣-١٤]. وَيُحَاسِبُ اللهُ الخَلاَئِقَ، وَيَخْلُو بِعَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ، فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ؛ كَمَا وُصِفَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ. وَأَمَّا الْكُفَّارُ؛ فَلا يُحَاسَبُونَ مُحَاسَبَةَ مَنْ تُوزَنُ حَسَنَاتُهُ وَسَيِّئَاتُهُ؛ فَإِنَّهُ لاَ حَسَنَاتَ لَهُمْ، وَلَكِنْ تُعَدُّ أَعْمَالُهُمْ، فَتُحْصَى، فَيُوقَفُونَ عَلَيْهَا وَيُقَرَّرُونَ بِهَا ويجزون بها.

الشرح

(بعض الداخلين إلى الدرس لا يصلون تحية المسجد قبل الجلوس، وهي كما تعلمون سنة مؤكدة، تقدم على كلمة أو كلمتين، أو جملة أو جملتين من الدرس، وبإمكان الإنسان أن يتقدم؛ وعلى كلٍ إذا كان الرسول ﷺ أمر الداخل يوم الجمعة والخطيب يخطب أن يصلي ركعتين، فهما أولى من حضور الدرس؛ لأنه لا يفوت؛ يعني الخطبة قد تفوت، ومع ذلك فالداخل عليه أن يؤدي ركعتين؛ فهذا أولى؛ إن دخل المسجد، أن يسارع إلى أداء ركعتين، ولا حرج أن يخففهما كما قال ﷺ لسليك:((إذا جاء أحدكم يوم الجمعة والإمام يخطب فليركع ركعتين، وليتجوز فيهما)) كذا في مسلم، وأصله في الصحيحين).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى- في الحديث عن أصول أهل السنة والجماعة وما يدينون به من الكتاب والسنة؛ قال:**ومن الإيمان الإيمان بالله واليوم الآخر**:

من الإيمان: جار ومجرور: خبر مقدم، الإيمان: مبتدأ مؤخر؛ فهذا شروع في الحديث عن الإيمان باليوم الآخر؛ وهذا يعني الإيمان بالغيب، والإيمان بأشراط الساعة، والإيمان بالمغَّيبات التي لا يعلم كُنْهها إلى الله -جل وعلا؛ فأهل الحق يؤمنون بكل ما جاء عن رسول الله ﷺ أو أخبر به عن ربه، ويصدقون بذلك، ويسارعون إلى هذا الأمر.

والناس يتفاوتون في هذا؛ فأقواهم إيمانا وأصدقهم وأعظمهم حبا للرسول ﷺ هو أكثرهم تصديقا وأسرعهم إجابة؛ فأهل الإسلام يُصدقون الرسول ﷺ في كل ما أخبر به، يؤمنون بتسبيح الطعام بين يديه، وبحنين الجذع، وبانشقاق القمر، وبما لم يأت بعد من خروج الدابة ونزول عيسى بن مريم وخروج الدجال وبأشراط الساعة المذكورة في الأحاديث الصحاح.

قوله:ومن الإيمان باليوم الآخر الإيمان بكل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت:

مما أخبر به النبي ﷺ؛ أي: في الأحاديث الصحاح، وتقدمت شروط الأحاديث الصحاح.

قوله:مما يكون بعد الموت:

أي: من القبر، وما بعد القبر، ومن عرصات القيامة، ومما يكون في الجنة والنار؛ فيؤمن -أي أهل الحق يؤمنون- بفتنة القبر، وبعذاب القبر ونعيمه.

والمقصود بفتنة القبر: أن يُسأل الرجل في قبره فيقال: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ وهذا السؤال موجه لكل ميت؛ مُسلما أو منافقاً أو كافرا؛ لا يتخلف عن السؤال أحد؛ وقد قال بعض العلماء كابن عبد البر وغيره: يُسأل في ذلك المؤمن والمنافق، أما الكافر فلا يُسأل وهذا ضعيف؛ الأدلة الصحيحة الصريحة تفيد سؤال المؤمن كما تفيد سؤال الكافر؛ فقد جاء عند أبي عيسى الترمذي: عن أبي هُرَيْرَةَ قال: قال رسول اللهِ ﷺ:((**إذا قُبِرَ الْمَيِّتُ** - أو قال: **أحدكم** - **أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ يُقَالُ: لِأَحَدِهِمَا الْمُنْكَرُ وَالْآخَرُ النَّكِيرُ، فَيَقُولَانِ: ما كُنْتَ تَقُولُ في هذا الرَّجُلِ**...)) الحديث. وقد صحح هذا الحديث الإمام أحمد وغيره من العلماء، وحسن إسناده التستري-رحمه الله تعالى- في شرح الحائية لابن أبي داود.

وقيل للإمام أحمد -رحمه الله تعالى- تقول بـ "منكر" و"نكير"؟ فقال: هكذا جاء الخبر؛ فأهل السنة

يؤمنون بذلك، ويؤمنون بأن الملكين يقعدانه، وإن لم يتسع القبر؛ فهو يسأل جالسا ويسألان ولا نسمع شيئا؛ فأهل السنة يؤمنون بذلك؛ لأن هذا من عالم الغيب؛ وسمي غيبا لماذا؟ لأنه تغيب عن العباد حقيقته؛ ولكن يؤمنون به ويعلمون أنه حق وإن كانوا لا يشاهدون؛ فهم يؤمنون بذلك، وأهل الإسلام يتميزون بالإيمان بهذا الأمر.

فيسألانه: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ هذه هي الأصول الثلاثة.

قوله:وبعذاب القبر:

أي أن الكفار يعذبون في قبورهم، وإلا لم يكن للاستعاذة من عذاب القبر معنى؛ لولم يكن هناك عذاب في القبر. من دعاء النبي ﷺ ((**وأعوذ بك من عذاب القبر**)). ولذلك في حديث سعد في صحيح البخاري: كان النبي ﷺ يدعو في دبر كل صلاة: ((**اللهم إني أعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك من البخل، وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمل، وأعوذ بك من فتنة الدنيا ومن عذاب القبر**))، ولو لم يكن في القبر عذاب لم يكن للتعوذ منه معنى، وهذا متواتر عن النبي ﷺ.

فأهل السنة يؤمنون بذلك، وأن العذاب يكون على الجسد والروح؛ سواء دفن أو لم يدفن؛ سواء غرق، سواء أُحرق، سواء وضع في ثلاجة؛ إذا توفي أتاه ملكان فسألاه سواء دفن أو لم يدفن؛ ولكن ذُكر القبر وخرج مخرج الغالب؛ لأنه أصلا يدفن في ملة الإسلام وملل الكفر؛ ﴿**ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ**﴾،﴿**أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا**﴾. وكذلك العذاب قد يكون على أهل القبلة في القبر؛ إلا أن أهل القبلة لا يُخلَّدون في العذاب؛ يُعذَّبون على قدر شرهم، وإلى وقت يعلمه الله –جل وعلا– ثم بعد ذلك يُخرجون؛ قد يكون بعض الناس يُعذب في نفس القبر، وهو يُعذَّب في النار، وقد يكون عذابه في القبر – والعياذ بالله – إلى أنْ تقوم الساعة، وقد يكون عذابهُ لحظات، وقد يأخذ عذابه في القبر ويأخذ عذابه في يوم القيامة، ثم يُخرجون، كالحديث الوارد الثابت المتواتر عنه – صلى الله عليه وسلم – حممًا.

قولهُ:ونعيمه:

فإن المؤمنين يُنَعمون، وأعظم الناس نعيماً في القبر بعد الرُسل هم المجاهدون في سبيل الله كما تواترت بذلك الأدلة، ولذلك المرابط والمجاهد هو يُؤَمَّنُ الفتان، إنْ مات مرابطاً في سبيل الله أَمِن الفتان كما جاء في صحيح مُسْلِمٍ، وهذا فَضْلٌ لم يَحْظَ به أحدٌ غير المرابط في سبيل الله – جل وعلا.

وَيُنَعَّمُ المؤمنون في قبورهم إلى أنْ تقوم الساعة.

قَوْلُه: فأما الفتنة:

فإنَّ الناسَ يُفْتنون في قبورهم فَيُقال للرجل: مَنْ رَبُّك ؟ وما دينك ؟

السؤال "مَنْ" هذا أيضاً: هل منْ لم يؤمِنْ بمحَّمدٍ – صلى الله عليه وسلم –هو مَنْ أصحاب السعير ؟ قال – صَلى الله عليه وسلم: ((**لا يَسْمَعُ بي أحدٌ مَنْ هذه الأمة لا يهودي ولا نصراني ثم لم يؤمن بما أُرْسِلْتُ به إلا كان مَنْ أصحاب النار**)). وهذا الخبر رواه مُسْلمٌ في صحيحه، وقد أجمع العلماء على أنَّ مَنْ بلغه الإسلام ولم يُؤْمِنْ بمحمدٍ صلى الله عليه وسلم، أنه كافرٌ وَمُخَلَّدٌ في الجحيم.

والذين يمتنعون عن تسمية اليهود والنصارى كُفَّاراً هؤلاء ضالُّون مُنْحرفون، لأنَّ مَنْ قامت عليه الحُجَّة في هذا كَفَرَ هو أيضاً، لأنَّ الله سَمَّاهم كُفَّاراً، قال:﴿**لَقَدْ كَفَر الذين قالوا إنَّ الله ثالثُ ثلاثة**﴾، وقال:﴿**لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ**﴾ سَمَّاهم الله كُفَّاراً، حَكَمَ عليهم – صلى الله عليه وسلم – بالجحيم – ((**لا يسمع بي أحَدٌ مَنْ الأمَّة لا يهودي ولا نصراني ثُمَّ يُؤْمِنْ فإنه بذلك هو مَنْ أصحاب النار**)) لأن بعض الضالين وَالمنْحَرفين عقدياً، يتحدثون عن اليهود والنصارى ويقولون: الغير، أو الغير مُسْلمين، أو اليهود والنصارى، ويمتنعون عن تسميتهم كُفَّاراً، ومن امتنع عن تسمية اليهود والنصارى كُفَّاراً فهو كافرٌ، وكُفْرُه أيضاً بإجماع المسلمين، لا يختلف أحدٌ مَنْ العلماء في كُفْرِه.

وجاء في عقائد أهل الإسلام أن من لم يكفر الكافر أوشكَّ في كُفْره أو صَحَّحَ مَذْهَبَهُم، وحَكَى أبو الحسن الأشعري الإجماع على هذا، والقرآن صريحٌ في هذا، لا يختلف في هذا اثنان مَنْ المسلمين.

قوله:فيثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الآخرة:

هذا صريحٌ في القرآن:﴿**يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ**﴾، القول الثابت ما هو؟ كلمة الإخلاص (**لا إله إلا الله**) في الحياة الدنيا وفي الآخرة، لأنَّ مَنْ عاش على شيء مات عليه، ومَنْ مات على شيء بُعِثَ عليه، فعياذاً بالله مِنْ خلاف ذلك.

قال تعالى:﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ**﴾ وقال تعالى: ﴿**وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآَخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ**﴾،﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا**﴾ وقال تعالى:﴿**وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾ وقال تعالى:﴿**وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾ وقال تعالى:﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ**﴾ ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ**﴾ مَنْ هم ؟ اليهود والنصارى. ﴿**تَعَالَوْا**﴾: أي هلمُّوا وأقبلوا

﴿إِلَى كَلِمَةٍ﴾: ما هي هذه الكلمة؟ لا إله إلا الله ﴿سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾، أي فاصلة بيننا وبينكم، ألا نعبد إلا الله، ولا نُشّرك بالله، ولا يتخذ بعضُنا بعضاً أرباباً مَنْ دون الله، فإنْ تولّوا فقولوا اشهدوا بأناَّ مُسْلمون، أي: وأنكم كافرون، قال تعالى:﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، سَمَّاهم الله جل وعلا – مُشْركين، فالمؤمنون حين يوحِّدون الله – جَلَّ وعلا – ويُطيعون رسوله – صلى الله عليه وسلم – ويستقيمون على ذلك، لهم البُشْرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

ومن وصية النبيّ صلى الله عليه وسلم لسفيان بن عبد الله الثَّقفي – والخبر في صحيح مسلم – قال:((**قُلْ آمنتُ بالله ثم استقم**)). ما معنى الاستقامة في هذا الموقف؟ أي: الثبات على الإيمان بالله. والإيمان هو قولٌ وعملٌ: أي يُقال باللسان والجوارح، والإسلام – الإسلام العاقل الذي جاءت به الرسل كُلُّه – هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة مَنْ الشرك وأهله.

قوله:فيقول المؤمن: ربي الله والإسلام ديني ومحمد صلى الله عليه وسلم نبيِّ:

هذا مَنْ ثبته الله – جل وعلا – على ذلك، وقد يُفْتَنُ في قَبْرِه لسوء أعماله وفساد طويته وضلال سلوكه وانحرافه.

إمَّا لموالاة الكافرين أو لوجود الرياء عنده والسمعة: أنَّه غير مُخْلص لله – جل وعلا – في قوله ولا عمله ولا اعتقاده، أو لوجود ناقض من نواقض الإسلام، لا يصلي ولا يعرف المساجد، ولا يهتدي إلى طُرُقنا، أو لدلالات أُخْرى تستوجب سوء الخاتمة، نسأل الله السلامة والعافية، المؤمن يقول: ربي الله، والإسلام ديني ومحمد – صلى الله عليه وسلم – نبيّي – وفي نفس الوقت: المؤمنون يخافون مَنْ يوم تتقلَّب فيه القلوبُ والأبصار، ويخافون مَنْ قول الله جَلَّ وعلا:﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾، فحين قرأ عمر بن عبد العزيز هذه الآية ظَلَّ ليلةً كاملةً يبكي، وهو يُرَدِّدُ هذه الآية ويقول: ويلٌ لأهل الرياء مَنْ هذه الآية، ويلٌ لأهل الرياء مَنْ هذه الآية، ويلٌ لأهل الرياء مَنْ هذه الآية.

وأما المرتاب كالمنافق والكافر والمشرك والسَّابّ لدين الله – جل وعلا – هؤلاء كلهم يقولون: ها ها، ويَسْتعصي عليهم قول ذلك، لأن الذي لا يذكر الله ولا اليومَ الأخرَ في أعماله، ويُوَفَّ المهلة، فيدخل الاختبار والامتحان، ليَبْلُوَكم أيكم أحسنُ عملاً، يقول: لا أدْري، سَمِعْتُ الناس يقولون الكلام فَقلتُه، لأنه لا يثبت التكاليف والعقائد، وفيه ضرورة الإيمان بذلك فإن هذا حاصلٌ لامحالة، قال تعالى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ فالنبيُّ – صلى الله عليه وسلم – يُخْبِرُ عن ربه، فَنَحْنُ نؤمن بذلك، ونؤمن بكل ما جاء عن الرسول – صلى الله عليه وسلم – في الأحاديث الصِّحاح.

قوله: فيضرب بالمرزبة:

المرزبة بالتخفيف، ويجوز التسكين، والتخفيف أصحُّ وأشهر لغةً.

قوله: والحديث يقول:((**أنت في العذاب والنَّكال، فيصيح صيحةً ويَصْرِخُ صَرْخَةً يسمعها كُلُّ شيءٍ**)) وجاء في الصحيحين: إلا الثَّقَلَيْن. وهذا صريحٌ في أنَّ البهائم تسمع ذلك، وأنَّه لم يُسْتثن مَنْ السَّماع إلا الثَّقلان، والخبرُ متواترٌ عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم، ولو سَمِعَ الثقلان ذلك لَصُعِقوا.

كما قال بعض العلماء بأنَّ الحكمة مَنْ كون الثقلين لا يَسْمعون أنَّه قد يؤدي بهم ذلك إلى اليأس وإلى القُنوط حين يعصون الله – جَلَّ وعلا، أو إلى الهَمِّ والغمِّ والبُعْدِ عَنْ عِمَارة الكون. وغير ذلك من الحِكَم التي لا يَعْلَمُها إلا الله جَلَّ وعلا، وقد يَعْلَم بعضَها الراسخون في العلم.

قوله: ثم بعد هذه الفتنة إمَّا نعيم وإما عذاب ، ثم قوله: النار يُعْرَضون عليها.

تَقَدَّم قبل قليل الحديث عن العذاب، وأنه مراتب وأن المسلمين يؤمنون بعذاب القبر، وأنه يقع على الروح وعلى الجسد، سواءً دُفِنَ في القبر أم لم يُدْفن، سواءً تَمَزَّق بحريقٍ أو غرق أو حادثٍ أو فُقِدَ أو غير ذلك، لا يَتَخَلَّف عن السؤال أحدٌ.

تَقَدَّمَ أنَّ السؤال يقع على المؤمنين وعلى الكافرين والمنافقين، وأنَّ بعد ذلك إما نعيم وإما عذاب، وقد جاء في الصحيحين أنَّ الرَّجُلَ ((**يُفْتَح له بابٌ مَنْ النار، فيُقال: هذا مقامُك لو لم تؤمن بالله، كما يُفْتح له بابٌ إلى الجنة فيقال: هذا مقامُك إلى يوم يُبْعَثون**)).

تَقدَّم أنَّ أرواح الشهداء تَسْرَحُ في الجنة، وتَقَدَّم أنه لا يؤمَّن عذاب القبر إلا المرابطون والمجاهدون في سبيل الله. تواترت الأحاديث التي جاءت في صحيح مُسْلم وغيرها مَنْ الأحاديث.

وأمَّا الأحاديث الواردة بأنَّ مَنْ مات يوم الجمعة أو ليلتها أُمِّن مَنْ عذاب القبر فالأحاديث ضعيفة غير صحيحة، ولم يثبت في فضل الوفاة يوم الجمعة أو في ليلتها أحاديث صحيحة، كلها معلولة، أما المرابطُ فقد قال رسول الله – صَلىَّ الله عليه وسلم:((**مَنْ مات مرابطاً في سبيل الله أُجْرِي عليه عَمَلُهُ، وأُمِن الفتان**)) هذا جاء في صحيح مسلم.

وأمَّا العذاب فإنَّ الكفارَ يُعَذَّبون إلى أنْ تقوم قيامتُهم الكبرى، وقد يُعَذَّب المؤمن في القبر بقدر، وعذابهُ مراحل، فقد يُعَذَّب فترةً، وقد يُعَذَّبُ إلى يوم يُبْعَثون، ثُمَّ يُعَذَّب أيضاً في النار، وقد يُبْتلَى بعذابٍ في القبر دون العذاب يوم القيامة.

ويُؤْخَذُ مَنْ هذا الردّ على الخوارج والرَّدّ على المرجئة، أما وَجْهُ الرَّدِّ على الخوارج فهم يقولون بتخليد أصحاب الكبائر، والأحاديث متواترة عن الرسول صلى الله عليه وسلم ((فيخرجون حمماً)): فهذا رَدٌّ على الخوارج الذين يَدَّعون تخليد أصحاب الكبائر، أمَّا الرَّدُّ على المرْجئة الذين يقولون لا يَضُرُّ مع الإيمان ذنب، فإن بعضهم قد يُعَذَّبُ، ويُرَدّ وعليهم بالآية:﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ**﴾ فقولهُ:﴿**وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ**﴾ هذا رَدٌّ على الخوارج، وقوله:﴿**لِمَنْ يَشَاءُ**﴾ رَدٌّ على المرْجئة.

وأما مَنْ حبسه القرآن فلا يَخْرج مَنْ النار أبداً:﴿**كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا**﴾.

وعذابُ النَّارِ نوعان: عذابٌ بالنار، وعذابٌ بالزمهرير، وهو البرد الشديد، ويشدّد لهم العذاب، قال الله – جل وعلا:﴿**وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ**﴾. لأن المعدن خبيث ولو رُدُّوا إلى الدنيا بعد هذا العذاب لكفروا بالله أيضاً، وعادوا لما نهوا عنه مَنْ تكذيب الرسل ومُخالفة القرآن والشرك بالله.

قولهُ: فَتُعادُ الأرواح إلى الأجساد.

أهل السُّنَّة يقولون بذلك، بأنَّ الله – جل وعلا – يُعيد أرواحهم إلى أجسادهم، وهذا مَحَلُّ إجماع، وتقوم القيامة التي أخبر اللهُ بها في كتابه وعلى لسان رسوله – صلى الله عليه وسلم.

لذلك قال العلماء أنَّ النَّفخات ثلاث: نفخة الفزع، ونفخة الصَّعْق، ونفخة إعادة الأرواح: ﴿**فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ**﴾ وظاهر آية الزُّمَر أنه ليس هناك أكثر مَنْ نَفْخَتَيْن، ولكن مجموع الأدلَّة مَنْ الكتاب ومن السُّنَّة يفيد أن المجموع ثلاثة.

قوله:فيقوم الناس مَنْ قبورهم لربِّ العالمين حُفاةً عُراةً غُرْلاً:

غُرْلاً: أي غير مختونين. حين قالت عائشة للنبيِّ – صلى الله عليه وسلم: أيَنْظُر الناس بعضهم لبعض؟ قال:((**الأمْرُ أكْبَرُ مَنْ ذلك**))، ولا يَهُمُّهم هذا الأمر، لأنهم في شغل عن هذا بتذكُّر خطاياهم وذنوبهم، ويتمنون العودة إلى الدنيا يعبدون الله – عز وجل – ويحسنون العمل، وأهْلُ السنَّة يؤمنون بذلك.

ومع أنَّ هذه المسائل جاءت فيها أحاديث متواترة إلا أن هناك بعض الطوائف يُنْكرون هذا، ولا يؤمنون تحت مُسَمَّيات خبر الآحاد أو غير ذلك، أو تحريفات أُخْرى. تَقَدَّمَ الحديث قبل قليل عن خبر الآحاد وضرورة الإيمان به، وأدِلَّة ذلك مَنْ الكتاب ومن السُّنَّة.

قال شـــيخ الإســـلام ابن تيمية–رحمه الله تعالى– في الحديث عن الإيمان بالله واليوم الآخر:

(والإيمان بكل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت، كقوله:((ستدنو منهم الشمس))).

فإن المؤمنين يؤمنون بذلك؛ يؤمنون بخبر النبي ﷺ بأن الشمس تدنو من العباد يوم القيامة على قدر ميل؛ قيل: ميل: المكحلة، وقيل: الميل: المعروف، والمقصود من ذلك الإشارة إلى قربها؛ ولذلك يلجمهم العرق، فالناس يتفاوتون في غرقهم بالعرق؛ فمنهم من يغرقه، ومنهم من يَبْلُغُ ثدييه، ومنهم من يَبْلُغُ حقْوَيْه، ومنهم مَنْ يَبْلُغُ فَخْذَيه، ومنهم مَنْ يَبْلُغُ ساقيه، ومنهم مَنْ لا يَنالُهُ العَرَقُ أصلاً؛ كالأنبياء والمرسلون ونحوهم؛ فالناس يتفاوتون في هذا الموقف على حَسَب تَفاوتِ إيمانهم وصِدْقِهم مع الله، وتحقيق مقام التوحيد، والنَّأْي بأنفسهم عن مراتب الشِّرك والبدع والضلالات والانحرافات.

ولهذا اليوم فليعمل العاملون؛ فإنَّ العملَ سببٌ لدخول الجنة، وسببٌ لرفعة الدرجات وتكفير السَّيِّئات، وفي نحو ستين موضعًا من كتاب الله ﴿**جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ فالعمل سبب، وقد جاء في البخاري عن محمد بن سنان عن فليح عن هلال بن علي عن عطاء عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أنَّ النبيَّ ﷺ قال:((**كُلُّ أمتي يدخلون الجنَّة إلا من أبى**)). قالوا: يا رسول الله، ومن يأبى؟ قال:((**مَنْ أطاعني دخل الجنة، ومَنْ عصاني فقد أبى**)).

ويُؤْخَذُ من هذا الحديث أنَّ الامتناع عن طاعة الله موجِبٌ لعذاب الله؛ سواءً كان الامتناع بالجحد أو بالاستكبار أو بالاعتقاد، أو بترك العمل، وهذا الحديث من أقوى الأدلة لأهل السنة في هذا الباب، ولذلك لا يختلف أهل السُّنَّة على أنَّ تارك جنس العمل كافر؛ ذكر ذلك الإمام الآجُرِيّ -رحمه الله تعالى- في الشريعة، وقد ذكر الإمام ابن تيمية -رحمه الله تعالى- في الفتاوى وغير ذلك من المواضع أنَّه لا يُتَصَوَّر وجود رجلٍ يشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمد رسول الله صِدْقًا وحقًّا ولا يُسارِعُ إلى العمل؛ فحين لا يعمل فهذا دليلٌ على نِفاقٍ في قلبه، وعلى تكذيبٍ أو جَحْدٍ أو استكبارٍ؛ لا يُتصوَّرُ النطق بالشهادتين مع التَخلُّفِ عن العمل.

والناس في هذا المقام العظيم في عَرَصات القيامة تكون منازلُهم ويكونُ أمنهم على حسب أعمالهم.

قولُه:**فَتُنصَبُ الموازين:**

ولا يختلف أهلُ السُّنَّة في إثبات الميزان الذي توزَنُ به أعمال العباد؛ قال تعالى: ﴿**وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ**﴾؛ ولم يُخالفْ في ذلك إلا المعتزلة؛ فيقولون عن الأدلة الواردة في إثبات الميزان كقوله تعالى: ﴿**فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ**﴾، و: ﴿**وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ**﴾: المقصود من ذلك وضعُ ميزان العدل، وليس هذا الميزان حقيقيا. ورُدَّ عليهم بقوله ﷺ ((**فتوضعُ السجلات في كِفَّة، والبطاقة**

في كِفَّة، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة، ولا يثْقلُ مع اسم الله شيء)).

رواه الترمذيُّ وغيره وإسناده صحيح على شرط مسلم.

وقد اختلف أهل السُّنَّة في تحديد الموزون؛ فقال بعضهم: توزَنُ أعمالُ العباد. وقال بعضهم تُشَخَّصُ وتُشكَّلُ أعمالهم على شكل الأجسام وتوزن. وقال آخرون: توزن أجسامهم بأعمالهم؛ يأتي الرجل وما يحمل من الإيمان فيوزَنُ.

والعمل على بهذا القول هو أقرب الأقوال إلى الصواب؛ لأنَّ الذين يقولون: تشكَّلَ الأعمال على شكل الأجسام؛ لا دليل عليه، والذين يقولون: يوزن الثواب، هذا لا دليل عليه، والذين يقولون: يوزن الرجل ومعه عمله كقوله ﷺ:((**يؤتى بالرجل السمين**)) وغير ذلك من الأدلة؛ فهذا يوزن ومعه عمله.

والذين يقولون: توزن أعمالهم معهم أدلةٌ قوية؛ لكن ليست بصريحة في أقصاء البدن؛ كقوله ﷺ ((**فتوضع السجلات في كِفَّةٍ، والبطاقة في كِفَّةٍ**))، وهذا صريحٌ في وزن السجلات؛ ولكن لا يلزم من ذلك أن لا يكون معها صاحبُها، ومعنى هذه الأقوال كما قلت أنها في دائرة أقاويل أهل السُّنَّة والجماعة في هذا الباب.

مما يَدُلُّ على وزن الرجل مع عمله قوله ﷺ:((**وضِعْتُ في كِفَّة ووضع سائر الناس في كِفَّة فرجحتُ بهم، ووُضِع أبو بكرٍ في كِفَّةٍ، ووضع سائر الناس في كِفَّة فرجح بهم أبو بكر، ووضع عمر في كفة وضع سائر الناس في كفة فرجح بهم عُمَر، ووضع عثمان في كفة ووضع سائر الناس في كفة فرجح بهم عثمان، ثم رُفِعَ الميزان**)) رواه الإمام أحمد بسند صحيح.

يدل على ذلك الأدلة الواردة، وهي كثيرةٌ جدًا على وزن الرجل، ومما يَدُلُّ على وزن الرجل، وأن الذي يخففه عمله، والذي يُثَقِّلهُ عمله؛ قوله تعالى: ﴿**فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾؛ ثقلت موازينه بالأعمال الصالحة من حُسْنِ الاعتقاد وسلامة العمل في شوائب الشرك والبدع والمحدثات، والتقرب إلى الله جَلَّ وعلا بما يمكن من صلاةٍ وصيامٍ وصدقةٍ وبرَّ للوالدين وصلةٍ للأرحام، و تخلٍ عن الرذائل؛ كالغيبة والنميمة، والحسد والبغي والعدوان، و الافتئات على الآخرين؛ أو قطيعة رحم أو عقوق للوالدين أو إسبال أو حلق لحىً، أو غير ذلك مِمَّا حَرَّم الله.

ومَنْ خَفَّتْ موازينه بخلو الميزان من الأعمال الصالحة فقد قَدِمَ على الله وليس عنده عَمَلٌ؛ ﴿**فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ**﴾؛ أخذ بعض العلماء من هذه الآية أن الكفارَ توزَنُ أعمالهم؛ لأن هذه الآية في الكفار، وليست في عُصاة الموحِّدين؛ فأخذ بعض العلماء م هذه الآية

أن الكفارَ توزنُ أعمالهُم لبيان أنَّه لا ظُلْمَ اليوم؛ وأنَّ الناس يوزنون، وأنَّ الميزان هو الحكم العدل، وليكونوا شهداء على أنفسهم؛ قال تعالى: ﴿**وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾، وقال تعالى: ﴿**وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ**﴾، ولقوله ﷺ في حديث أبي ذر: قال ﷺ فيما يري عن ربِّه:((**يا عبادي إني حرمتُ الظلم على نفسي، وجعلته بينكم مُحَرَّمًا فلا تظالموا**)). والخبر في صحيح مسلم، وقال عنه الإمام أحمد: هوأفضل حديث لأهل الشام.

قوله: وتُنْشَرُ الدواوين؛وهي صحائف الأعمال:

والأدلة على هذا كثيرة في كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ. قال تعالى في كتابه:﴿**لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا**﴾، وقال تعالى:﴿**وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ**﴾.

﴿**طَائِرَهُ**﴾ قيل: أي ما يَعْلُقُ به من خير ومن شرٍّ.

وكلمة:﴿**أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَه**﴾ أي من أعمال الدنيا ومهنها وما يتعلَّق بذلك.

وقول الشيخ –رحمه الله تعالى–" فآخذٌ كتابه بيمينه وآخذ كتابه بشماله، أو من وراء ظهره". الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم هم المؤمنون والموحِّدون – والذين يأخذون كتبهم بشمائلهم هم الكفار، ولا تُنافي الآيات الواردة في أخذ الكتاب بالشمال وأخذ الكتاب من وراء الظهر؛ لأن الذي سيتلقى من وراء الظهر سيأخذ كتابه بشماله ومن وراء ظهره في آنٍ واحدٍ؛ فتكون يده اليسرى وراء ظهره ويأخذ كتابه بشماله.

السِّرُّ في هذا تحقيره وبيان عصيانه، وأن ما وعده الله في الدنيا يتحققُ يوم القيامة ويعاينه ببصره. وتقدم بالأمس الحديث على قول الله تعالى:﴿**وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ**﴾؛ فهؤلاء يبحثون عن الرجعة وهو يخبر عنهم، وهو أعلمُ ببواطنهم وظواهرهم؛ أن هؤلاء الكفار الذين يتمنون الرجعة ليعملوا صالحاً؛ ﴿**قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ**﴾ ﴿**وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ**﴾، والله أعلم بهم، وهذا معنى اسم الله –جل وعلا–: "الحكيم الخبير": الحكيم: هو الذي يضع الأشياء مواضعها، والخبير: هو المحيط ببواطن الأشياء وظواهرها.

قول الله –جل وعلا:﴿**وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا**﴾. وظاهر الآية أنهم يُعانون هذا ليعلم أنه لا ظُلْم اليوم، وأنه يُستشهد بذلك على

نفسه، ولذلك يَسْتَحْضِرُ كُلَّ ما عمل مُنْذُ تكليفه إلى أن لَقِيَ الله جل وعلا؛ لا يغيب عن باله شيء.

قولُه: "سيحاسبُ الله الخلائق". فيؤخذ من ذلك إثبات البعث والجزاء والحساب، وقد أخبر الله عن الكفار: ﴿**زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي**﴾: أمر الله جل وعلا نبيه في القرآن أن يُقْسِم في ثلاثة مواطن. قوله تعالى: ﴿**وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ**﴾ [سورة يونس: ٥٣].

وقوله جل وعلا: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ**﴾ [سورة سبأ: ٣].

وقوله: ﴿**زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ**﴾ [التغابن ٦٤]؛ يجمع الخلق كلهم أولهم وآخرهم إنسهم وجنهم في مقامٍ واحدٍ وفي صعيدٍ واحدٍ، ويحاسبُ الله جل وعلا الخلائق يكون هذا الوقت الذي مقداره خمسون ألف سنة على المؤمن كما بين صلاة الظهر والعصر، ويكون على الكافر يومًا عسيرًا مقداره يكون خمسين ألف سنة.

قوله:ويخلو بعبده المؤمن:

هكذا جاء الحديث في الصحيحين مقيَّدًا بالمؤمن، ((**فيُقَرِّره بذنوبه**)). وظاهر الأحاديث أنه ليس بينه وبينه واسطة.

قال ﷺ:((**ما منكم من أحدٍ إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان**))؛ ففيه إثباتُ صفة الكلام لله جل وعلا، وأفاد هذا القول الذي جاء في الحديث:((**فيُقَرِّره بذنوبه**)). وقد ثبت وصف ذلك في الكتاب والسنة؛ أي السنة المتواترة.

قوله:فأما الكفار من اليهود والنصارى والمرتدين فلا يحاسبون محاسبة من توزن حسناته وسيئاته:

تَقَدَّمَ قبل قليل أنَّ الآية تُفيدُ أنهم يوزنون؛ ولكن لبيان أنه لا ظُلْم اليوم، وليكون الإنسان على نفسه بصيرة.

قوله:لا يحاسبون محاسبة من توزن حسناته وسيئاته:

لم يَنْفِ الميزان؛ لكن لا يحاسبون محاسبة من توزن حسناته وسيئاته؛ لأنه لا حسنات لهم؛ قال الله -جل وعلا-: ﴿**وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا**﴾؛ ولكن يوضع في الميزان، فلا يكون له شيء؛ قال الله -جل وعلا-:﴿**وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾؛ فهذه الآية في المرتد، والآية الأولى في اليهود والنصارى والمشركين.

قوله:لكن تُعَدُّ أعمالُهم فتُحْصى:

الكفار يُجْزَون في أعمالهم في الدنيا؛ كما جاء في صحيح مسلم؛ فإذا عَمِلَ الكافرُ حسنةً في الدنيا جزاه الله عليها في الدنيا، ويلقى الله مُفْلِسًا من الأعمال الصالحة؛ لأن الله يقول:﴿**وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ**﴾ فمن كفر بالله ورسوله ﷺ فلن يُقْبل عمله؛ قال تعالى:﴿**عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ**﴾: معنى هذه الآية على قول بعض المفسرين أنها في اليهود والنصارى والمرائين؛ فاليهود والنصارى قد يعبدون الله في الدنيا، ويَصْلَوْن نار جهنم يوم القيامة، و المراؤن يعبدون الله في الدنيا ويصلون نار جهنم يوم القيامة؛ فقوله: ﴿**عَامِلَةٌ**﴾: أي في الدنيا، ﴿**نَاصِبَةٌ**﴾: أي تصلى نار جهنم في الآخرة؛ لأن العمل غيرُ مقبول بدون الأصل وهو التوحيد.

قال ﷺ والخبر في صحيح مسلم: ((**لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأُمَّة لا يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بما أُرسِلْتُ به إلا كان من أصحاب النار**))، وقال تعالى:﴿**قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا**﴾، وقال تعالى:﴿**إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ**﴾، وقال ﷺ:((**يُؤْتى بالموت بين الجنة والنار فيُذْبح فيُقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت**)). والخَبَرُ مُتَّفَقٌ على صحته؛ فيُؤْتى في صورة كَبْشٍ وَيُذْبح بين الجنة والنار؛ هذا كُلُّه يؤَكِّد أن الكفار أصحاب السعير كما قالوا عن أنفسهم، ويقولون يومَ القيامة: ﴿**وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ**﴾، ﴿**وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ**﴾، والأدلة صريحة في أن هؤلاء حَصَبُ جهنم، وأنهم يُسَمَّوْن كافرين، وأنهم يوزَنون ولكن لبيان أنه لا ظُلْم اليوم، وليس لزامًا أن توزن حسناته وسيئاته؛ لأنه قول الله جل وعلا صريحٌ في القرآن: ﴿**وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا**﴾فإنه لا حسنات لهم، ولكن سَتُعَدُّ أعمالهم؛ فتُحْصى، فيطلعون عليها، ويُقَرَّرون بها؛ كما قال تعالى:﴿**كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا**﴾،نسأل الله أن يسقينا في عرصات يوم القيامة من الحوض المورود للنبيِّ ﷺ.

الحوض، والصراط، والقنطرة

وَفِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ الْحَوضُ الْمَوْرُودُ لِلنَّبِيِّ ﷺ ماؤُه أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، آنِيَتُهُ عَدَدُ نُجُومِ السَّمَاءِ، طُولُهُ شَهْرٌ، وَعَرْضُهُ شَهْرٌ، مَن يَّشْرَبُ مِنْهُ شَرْبَةً: لاَ يَظْمَأُ بَعْدَهَا أَبَدًا.

وَالصِّرَاطُ مَنصُوبٌ عَلَى مَتْنِ جَهَنَّمَ، وَهُوَ الْجِسْرُ الَّذِي بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، يَمُرُّ النَّاسُ عَلَيْهِ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ، وَمِنْهُم مَن يَمُرُّ كَالْبَرْقِ، وَمِنْهُم مَن يَمُرُّ كَالرِّيحِ، ومِنهُم مَن يَمُرُّ كَالْفَرَسِ الْجَوَادِ، وَمِنْهُم مَن يَمُرُّ كَرِكَابِ الإِبِلِ، ومِنهُم مَن يَعْدُو عَدْوًا، وَمِنْهُم مَن يَمْشِي مَشْيًا، وَمِنْهُم مَن يَزْحَفُ زَحْفًا، وَمِنْهُم مَن يُخْطَفُ خَطْفًا وَيُلْقَى فِي جَهَنَّمَ: فَإِنَّ الْجِسرَ عَلَيْهِ كَلاَلِيبُ تَخْطِفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِم، فَمَنْ مَرَّ عَلَى الصِّرَاطِ: دَخَلَ الْجَنَّةَ.

فَإِذَا عَبَرُوا عَلَيْهِ وَقَفُوا عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقْتَصَّ لِبَعْضِهِم مِن بَعْضٍ، فَإِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا: أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ.

الشرح

من أعلى مراتب الإيمان، الإيمان بالغيب، وقد أثنى الله –جل وعلا– على عباده المؤمنين في صدر سورة البقرة في قوله: ﴿**الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ**﴾

والغيب نوعان:

النوع الأول: الغيب المطلق، ويختص بعلمه الرب –جل وعلا– ويُطْلع على شيء من ذلك بعض رسله، قال تعالى: ﴿**إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ**﴾.

النوع الثاني: الغيب المقيد، وهو ما غاب عنك فقد يكون غيباً عند عمرو، وحاضراً عند زيد، وهذا لا علاقة له بهذا الباب .

فالحديث عن الغيب المطلق، وعن بعض المغيبات التي أخبر النبي ﷺ بها عن ربه، وأخبر عن وجودها في أرض الواقع فيما يُستقبل من أمر الناس، فالإيمان بذلك إيمان بالله وإيمان بالرسول ﷺ.

وقد أخبر النبي ﷺ بأشياء كثيرة من أمور الغيب؛ فقد جاء في الصحيحين من حديث عبد الوارث بن سعيد عن أبي التياح الضبعي عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: ((**إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويثبت الجهل ويشرب الخمر ويكثر الزنا**)) وأخبر النبي ﷺ عن عذاب القبر وعن فتنة القبر، وأخبر عن الدجال، وأخبر عن اليوم الآخر وما فيه من الأهوال، وأخبر عن عرصات القيامة، وهو ما

تحدث عنه الشيخ -رحمه الله تعالى- **بقوله: "وفي عرصات القيامة"** :

عرصات جمع عرصة؛ والعرصة المكان الواسع الذي لا يحيط به عمران أو شيء من ذلك.

وقوله: القيامة:

القيامة نوعان؛ النوع الأول: من مات فقد قامت قيامته، النوع الثاني: القيامة الكبرى، وهي المقصـــودة في أكثر الأحاديث، وأكثر مجيء الآيات، وأجمع على ذلك المســـلمون، وذلك حين يقوم الناس من قبورهم حفاة عراة غرلاً.

وقوله: وفي عرصات القيامة الحوض المورود للنبي ﷺ :

وقد جزم غير واحد من العلماء بأنه الكوثر، قال تعالى: ﴿**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ**﴾، وهذا على اعتبار أنه يختص به النبي ﷺ لا يَشْـركه الأنبياء، وذهب بعض العلماء إلى المغايرة بين الكوثر والحوض، فيرون اختصاص النبي ﷺ بالكوثر دون الحوض، على اعتبار أن لكل نبي حوضاً، ويستدلون على ذلك بالحديث الوارد في جامع أبي عيسى، وهذا الحديث ضـعيف جداً، ولم يثبت عن النبي ﷺ أن لكل نبي حوضـاً، وحينئذ يصـلح تخصـيص هذا بالنبي ﷺ والقول بأن الكوثر هو الحوض، ويصـلح القول بأن الحوض جاء ذكره في الكتاب باعتبار أنه هو الكوثر.

وقد أخبر النبي ﷺ عن صـفات هذا الكوثر فقال صـلى الله عليه وسـلم:((**ماؤه أشـد بياضاً من اللبن وطعمه أحلى من العسل، آنيته** -وهي أكوابه- **عدد نجوم السماء**)) ولا يعلم عدد ذلك إلا الله -جل وعلا- فلم يثبت عن النبي ﷺ ولا عن أحد من الصـحابة تحديد عدد نجوم السـماء، فلا يعلم ذلك إلا الله، ((**طوله شـهر وعرضـه شهر**)) ولم يثبت أيضاً تحديد هذا الطول والعرض؛ هل هو باعتبار الماشي أو باعتبار الراكب، وقد يقال طوله شهر وعرضه شـهر بما يتعارفه الناس، وقد يقال طوله شـهر على أسـرع ما يقدر عليه العبد، وعرضـه شـهر في أسـرع ما يقدر عليه العبد لبيان عظمته، وقد جاءت الأدلة الأخرى تفيد ترجيح القول الأول وذلك أنه من أيلة إلى عدن.

وأهل الســـنة يؤمنون بذلك، ويؤمنون بكل ما جاء عن النبي ﷺ، وهذا من واجبات الإيمان بالغيب، وقد تواترت الأدلة عن النبي ﷺ في الحوض، وجاءت من رواية ما لا يقل عن خمسين صحابياً، وجميع من ألف وصـــنف في المتواتر يذكر أحاديث الحوض، وتقدم بالأمس الحديث عن المتواتر وتعريفه عند أهل السنة وتعريفه عند المتكلمين.

قوله:من يشربُ منه شربة:

شرْبة بسكون الراء أي مرة، لا يظمأ بعدها أبداً، وذلك أن الناس حين يقومون من قبورهم حفاة عراة غرلاً تواجههم الشمس ويلجمهم العرق، يكون في أثناء هذا اليوم عطش، والصواب من كلام العلماء أن هذا الحوض قبل الصراط، وأن القنطرة بعد الصراط.

ويُذاد عن هذا الحوض عدد كبير من البشر الذين يتصورون أنهم على حق وهم على باطل، وحين يقول النبي ﷺ:((**أمتي أمتي يقال: إنك لا تدري ماذا أحدثوا بعدك**)) ويؤخذ من هذا أن النبي ﷺ لا يعلم الغيب المطلق، وقد ذكر الحافظ ابن عبد البر -رحمه الله تعالى- في التمهيد على قوله ﷺ: ((**أمتي أمتي**)) يقول يزاد عند حوضه أهل البدع من الخوارج والرافضة وأهل الكبائر المصرون على ذلك من أكلة الربا وغيرهم.

ولا يختلف أهل السنة أن من مات على بدعة أو على معصية لا تخرجه عن الإسلام؛ أنه تحت المشيئة، قال تعالى: ﴿**وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ**﴾ ﴿**فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ**﴾ ولكن هؤلاء لا يخلدون في النار باتفاق أهل السنة، وهؤلاء معرضون للوعيد، تقدم الحديث أن الله لا يخلف وعده وهذا محل إجماع من أهل السنة، قال الله -جل وعلا- ﴿**وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ**﴾ وقد يخلف وعيده لأن إخلاف الوعيد من صفات الكمال، وكما قال الشاعر:

إني وإن واعدته أو وعدته لمخلفٌ إيعادي ومنجزٌ موعدي

قوله:لا يظمأ بعدها أبداً

أي لا يصيبه عطش، وهو كمقدمة للبشرى؛ لأن من شرب من هذا النهر فإنه سوف يعبر الصراط، وهو الذي يتحدث عنه الشيخ -رحمه الله تعالى- بقوله: "**والصراط منصوب على متن جهنم**" والناس يمرون على هذا الصراط على قدر أعمالهم، وقد قال أبو سعيد الخدري ﷺ «بلغني أنه أحدُّ من السيف وأدق من الشعرة)) رواه الإمام مسلم -رحمه الله تعالى- في صحيحه.

قول الله -جل وعلا-:﴿**وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا**﴾ أي يرد على النار لأن الصراط منصوب على متن جهنم، والناس يمرون على النار وتكون على المؤمنين برداً وسلاماً، وتكون على الكافرين ويلاً وثبوراً،﴿**إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا**﴾.

الشيخ يعرف الصراط بأنه الجسر -ويجوز فتح الجيم- بين الجنة والنار بمعنى أن الجسر يتوسط

جهنم، وتكون الجنة بعده، ولكن بعد الصراط تكون القنطرة، ولا يتجاوز الصراط إلا من كان في علم الله أنه سيتجاوز عنه في القنطرة ؛ لأنه قد يهوي في جهنم حين يمر بالصراط من كان في علم الله أنه لا يتجاوز عنه، أو عليه مظالم لا يعفى عنها فحينئذ القنطرة التي يقتص الناس بعضهم من بعض، هؤلاء حين يتجاوز الله عنهم ويهذبون وينقون يدخلون الجنة، أما الذين لا يهذبون، فإنهم يهذبون في نار جهنم، فإذا هذبوا في نار جهنم وصهرتهم نار جهنم، فإن هؤلاء يخرجون إلى نهر الحياة فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل، ثم بعد ذلك إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة، إذاً النار قبل الصراط، والصراط منصوب على متن جهنم، وبعد جهنم القنطرة، وبعد القنطرة الجنة.

وقد أخذ من هذا بعض العلماء أن جهنم في السماء، ويحتجون بحديث الإسراء حين لقي النبي ﷺ أباه آدم : وعن يمينه أسودة وعن يساره أسودة، وذهب أكثر الأئمة إلى أن جهنم في الأرض لقول الله –جل وعلا-:﴿**وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ**﴾ ولقول الله –جل وعلا-:﴿**ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ**﴾ ولغير ذلك من الأدلة، وليس هناك في المسألة نص قطعي لا يجوز مخالفته، ولذلك اختلف العلماء في ذلك على قولين.

وقوله:والناس يمرون على قدر أعمالهم

﴿**لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ**﴾ فإن الناس يمرون على الصراط على قدر أعمالهم، وما دام الإنسان مات على الإسلام فإنه على خير، فالمصيبة والطامة الكبرى أن يموت على النفاق أو على الكفر أعاذنا الله وإياكم من ذلك، فإن هؤلاء يكبكبون في نار جهنم فلا تنالهم شفاعة الشافعين ولا تغمرهم رحمة أرحم الراحمين؛ فهؤلاء يخلدون في نار جهنم، ويستغيثون فلا يغاثون، وينادون فيقال: إنكم ماكثون، ويستنصرون فلا ينصرون، ويقال لهم اطلبوا النصر ممن كنتم تستنصرون بهم في الدنيا، هل ينفعونكم أو ينجّون.

قوله:فمنهم من يمر كلمح البصر:

النبي ﷺ في هذه الحالة واقف على الصراط ويقول: ((**يا رب سلم سلم، يا رب سلم سلم**)) فيه حرصه ﷺ على أمته، فيكون معنى قول الله –جل وعلا- ﴿**حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ**﴾ أي في الدنيا والآخرة، حريص على هدايتكم في الدنيا، وحريص على دخولكم الجنة يوم القيامة، إذاً لا تختص الآية بأحكام الدنيا.

منهم من يمر كالبرق لقوة إيمانهم، وعظمة يقينهم وصدقهم في الاستجابة لكلام الله وكلام رسوله

ﷺ، والدعاوى في هذا الباب لا تجدي؛ تذهب سبهللة، إنما ينفعك في هذا الجد والاجتهاد ولا يغني التسويف عن صاحبه شيئاً حيث يقول: أريد أن أصلي، أريد أن أصوم، أريد أن أتصدق، حين يسمع كلام الله وكلام الرسول ﷺ حين يسمع موعظة فإذا خرج من الباب نسي كل شيء، الله –جل وعلا– :﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾ قال ابن عباس: إلا ليوحدون، وقال مجاهد وقتادة وغيرهما: إلا لآمرهم وأنهاهم، وأعظم ما أمرهم الله به هو التوحيد، وأعظم ما نهى الله عنه هو الشرك؛ وهو دعوة غير الله معه، قال تعالى:﴿**وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**﴾ شيئاً نكرة في سياق النهي تعم الأصغر والأكبر، الدقيق والجليل.

فمن الناس من يمر على الصراط كلمح البصر لقوة إيمانه وعظيم يقينه وصدقه في الاستجابة لأن الله –جل وعلا– أمر العباد بأن يستجيبوا له وللرسول ﷺ:﴿**اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ**﴾ أي لما فيه حياتكم في الدنيا ونعيمكم يوم القيامة؛ فالعمل هو السبب في دخول الجنة، كما قال النبي ﷺ:((**كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى، قالوا يا رسول الله: ومن يأبى قال: من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى**)) رواه البخاري في صحيحه، وهذا لا ينافي قوله ﷺ:((**لن يدخل الجنة أحد منكم بعمله، قالوا ولا أنت يا رسول الله، قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته**)) الباء في **لا يدخل الجنة أحد منكم بعمله** للعوض، أي لا يدخل الجنة أحد إلا برحمة الله وبسبب عمله، فإذا أتى بالعمل الصالح فإنه يحتاج إلى شرطين؛ الشرط الأول: الإخلاص لله، الشرط الثاني: اتباع النبي ﷺ باطناً وظاهراً، فمن الأول قول الله –جل وعلا–: ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ**﴾ ومن الثاني قوله ﷺ:((**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**)) فالأول معنى لا إله إلا الله، والثاني هو معنى شهادة أن محمداً رسول الله.

قوله: ومنهم من يمر كالبرق، لأن لمح البصر أسرع من البرق، وهؤلاء يكونون في المرتبة الثانية عقب الذين يمرون كلمح البصر، لأن الناس في هذا الموطن يمرون على قدر أعمالهم، ومعنى الأعمال في هذا الباب أي على قدر الإيمان، على قدر الإيمان المتمثل بقول وعمل؛ قول القلب واللسان وعمل القلب واللسان والجوارح، فإن الإنسان قد يكون أكثر عملاً من الآخر، لكن الآخر أكثر تصديقاً وإيماناً به، وفي هذا الموطن لا يظلم أحد، الله –جل وعلا– يقول:﴿**وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ**﴾ ولذلك قال النبي ﷺ عن الخوارج:((**تحقرون صلاتكم مع صلاتهم وصيامكم مع صيامهم**)).

وقال أبو بكر المزني –رحمه الله تعالى– عن أبي بكر الصديق "ما سبقهم بكثرة صوم ولا صلاة، سبقهم بشيء وقر في قلبه" ما الذي وقر في قلبه؟ هو بالإيمان بالله والإيمان بالرسول ﷺ، وحين أخبر النبي ﷺ المشركين أنه أسري به في ليلة، طبعاً أسرى بروحه وجسده، فلو كان في المنام لما كذبه

المشـــركون، ولاعتبروا هذا أمراً عادياً، فحين أخبر النبي ﷺ بأنه في ليلة واحدة ذهب إلى بيت المقدس، والتقى بالأنبياء كلهم، وصلى بهم، ثم عُرج به إلى السموات السبع ثم سدرة المنتهى، وفرضت عليه الصلوات الخمس، وذلك في أصح قولي العلماء أنه قبل الهجرة بثلاث سنين- كان المشركون يضحكون من ذلك، فأرادوا تكذيب النبي فجاؤوا إلى أبي بكر فقالوا له " إن صاحبك يزعم كيت وكيت " وذكروا له، قال: إن كان قد قال فقد صدق، فسمى من ذلك الوقت أبا بكر الصديق؛ لأنه يصدق النبي ﷺ في كل ما جاء به، وهذا الواجب على كل مسـلم، وقد قيل في قول الله -جل وعلا-:﴿**وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ**﴾ الذي جاء بالصدق هو محمد ﷺ، وصدق به هو أبو بكر الصديق، وقول آخر في الآية والذي جاء بالصـدق هو جبريل وصـدق به هو محمد ﷺ، ولذلك الحديث الذي رواه أحمد بسند قوي حين قال:((وُضع أبو بكر في كفة ووضعت سائر الأمة في كفة فرجح بهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه)) هذا الخبر رواه الإمام أحمد وغيره وإسناده جيد.

قوله:ومنهم من يمر كالريح ومنهم من يمر كالفرس الأجاويد ، ومنهم من يمر كركاب الإبل، ومنهم يعدو عدواً، ومنهم من يمشي مشياً، ومنهم من يزحف زحفاً، ومنهم من يُخطف خطفاً ويلقى في جهنم:

وهؤلاء الذين يلقون في جهنم على مرتبتين؛ المرتبة الأولى: الكفار فهم يكبكبون في نار جهنم من أول وهلة، يكبكبون في نار جهنم لأنهم لا حسنات لهم وهؤلاء يخلدون في الجحيم أبد الآبدين، ودهر الداهرين لا يخفف عنهم وهم فيه مبلسون، ويشدد لهم العذاب. ﴿**وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ**﴾، ﴿**كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا**﴾، ﴿**لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا**﴾ كلما مضى حقب أتى حقب آخر، ﴿**خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا**﴾ وغير ذلك من الأدلة الواردة في عذابهم وخلودهم في الجحيم والله -جل وعلا- أخبر عنهم أنهم لو ردوا لعادوا ﴿**وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ**﴾، فلذلك هؤلاء لا يطهرون أبداً؛ كالكلب مهما غمس في ماء البحار لا يطهر أبداً، وهؤلاء مهما عذبوا يبقون في الجحيم ولا يطهرون أبداً.

الذي يطهر المسلم الموحد الذي رجحت سيئاته على حسناته فهؤلاء حين يلقون في نار جهنم وهم النوع الثاني ويمكثون ما شـاء الله أن يمكثوا -يطهرون ويخرجون من نار جهنم حمماً فيلقون في نهر الحياة على حميل السـيل فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السـيل، فإذا هذبوا ونقوا أذن لهم بدخول الجنة.

قوله:فإن الجِسر-ويجوز الجَسر- عليه كلاليب:

الكلاليب معلقة تخطف الناس لمن أراد الله عذابه، والناس في هذا الموقف في كرب عظيم، لا يدرون ماذا يصنع بهم، ولا يدرون أيمرون على الصراط أم يلقون في جهنم؟

ومن أول غمسة في جهنم ينسى أنه مر به نعيم قط؛ من شدة العذاب؛ ولذلك النبي ﷺ يقول للصحابة؛ يقرب لأفهامهم:((**أترون ناركم هذه، هي جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم**))

وحين كان النبي ﷺ جالساً بين أصحابه وسمع وجبة؛ قال النبي ﷺ: «**هذا حجر ألقى في جهنم منذ سبعين خريفاً**)) الآن وصل، يعني لم يصل قعر جهنم إلا عقب سبعين عاماً، ولذلك أهون أهل النار عذاباً من الكفار أبو طالب؛ نعلان يغلي منهما دماغه، نسأل الله –جل وعلا– السلامة والعافية، نسأل الله –جل وعلا– أن يقينا عذاب جهنم وأن يرحمنا فوق الأرض وتحت الأرض ويوم العرض.

قوله:فمن مر على الصراط دخل الجنة:

أي مصيره إلى الجنة فمن مر على الصراط فمصيره إلى الجنة، ولكن قبل أن يدخل الجنة يوقف على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض المظالم التي كانت في علم الله أن الله يتجاوز عن أصحابها، فإذا هذبوا ونقوا، لماذا يهذبون؟ لأن الجنة طيبة ولا يدخلها إلا الطيب، فبعد ذلك أذن لهم بدخول الجنة كما جاء هذا في صحيح الإمام مسلم،وشيخ الإسلام أورد هذا ليبين أن أهل السنة يؤمنون بما جاء من عند الله على مراد الله، وبكل ما جاء عن رسول الله ﷺ على مراد رسول الله، ويؤمنون بالصراط المعنوي ويؤمنون بالصراط الحسي، فمن تجاوز الصراط المعنوي تجاوز الصراط الحسي، فمن هوى في الصراط المعنوي، وضل عن سواء السبيل، فإنه سوف يهوي في الصراط الحسي.

الشفاعة

وأَوَّلُ مَن يَسْتَفْتِحُ بَابَ الْجَنَّةِ النبي مُحمَّد ﷺ وَأَوَّلُ مَن يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنَ الأُمَمِ أُمَّتُهُ. وَله ﷺ فِي الْقِيَامَةِ ثَلاثُ شَفَاعَاتٍ: أَمَّا الشَّفَاعَةُ الأُولَى: فَيَشْفَعُ فِي أَهْلِ الْمَوْقِفِ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَهُمْ بَعْدَ أَنْ يَتَرَاجَعَ الأَنْبِيَاءُ: آدَمُ، وَنُوحٌ، وَإِبْرَاهِيمُ، وَمُوسَى، وَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَنِ الشَّفَاعَةِ حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَيْهِ. وَأَمَّا الشَّفَاعَةُ الثَّانِيَةُ: فَيَشْفَعُ فِي أَهْلِ الْجَنَّةِ أَن يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ. وَهَاتَانِ الشَّفَاعَتَانِ خَاصَّتَانِ لَهُ. وَأَمَّا الشَّفَاعَةُ الثَّالِثَةُ: فَيَشْفَعُ فِيمَنِ اسْتَحَقَّ النَّارَ، وَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ لَهُ وَلِسَائِرِ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَغَيْرِهِمْ. فَيَشْفَعُ فِيمَنِ اسْتَحَقَّ النَّارَ أَن لاَّ يَدْخُلَهَا، وَيَشْفَعُ فِيمَنْ دَخَلَهَا أَن يَخْرُجَ مِنْهَا. وَيُخْرِجُ اللهُ مِنَ النَّارِ أَقْوَامًا بِغَيْرِ شَفَاعَةٍ؛ بَلْ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَيَبْقَى فِي الْجَنَّةِ فَضْلٌ عَمَّنْ دَخَلَهَا مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، فَيُنْشِئُ اللهُ لَهَا أَقْوَامًا فَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ.

وَأَصْنَافُ مَا تَضَمَّنَتْهُ الدَّارُ الآخِرَةُ مِنَ الْحِسَابِ وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَتَفَاصِيلُ ذَلِكَ مَذْكُورَةٌ فِي الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ مِنَ السَّمَاءِ، وَالآثَارِ مِنَ الْعِلْمِ الْمَأْثُورِ عَنِ الأَنْبِيَاءِ، وَفِي الْعِلْمِ الْمَوْرُوثِ عَنْ مُحَمَّدٍ. صلى الله عليه وسلم. مِنْ ذَلِكَ مَا يَشْفِي وَيَكْفِي، فَمَنِ ابْتَغَاهُ وَجَدَهُ.

الشرح

ابن تيمية –رحمه الله تعالى– في الحديث عن استفتاح النبي ﷺ باب الجنة ، وعن الشفاعة ومراتبها ، وهذه الأحكام متعلقة باليوم الآخر، والمسلمون يؤمنون بذلك، واتفقت الشرائع والأديان كلها على الإيمان باليوم الآخر، وخالف في ذلك المشركون حيث زعموا أن الأرحام تَدفع والأرض تَبلع ﴿**زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ**﴾، وأما اليهودية والنصرانية والمنتسبون للكتاب فيؤمنون بهذه الأصول على شطط في اليهودية والنصرانية في بعض المراتب ، لكن الأصل في دينهم هو الإيمان باليوم الآخر ، لا يختلفون في ذلك، وهذا الإيمان لا ينفع فيمن أدرك منهم محمداً ﷺ – إذا لم يؤمن بالنبي ﷺ ؛ لأن النبي ﷺ قال:((**لا يسمع بي أحد من هذه الأمة لا يهودي ولا نصراني ثم لم يؤمن بما أرسلت به إلا كان من أصحاب النار**)) وهذا الخبر في صحيح مسلم.

قوله:وأول من يستفتح باب الجنة محمد ﷺ:

وهذا الخبر جاء في الصحيح، ((**آتي الجنة فأستفتح فيقال من، فأقول محمد، فيقول أمرت ألا أفتح لأحد قبلك**)) وهذا لا يعارض الحديث المتفق على صحته أن النبي ﷺ قال:((**يا بلال ما أرجى عمل عملته، ما استفتحت باباً من أبواب الجنة إلا وسمعت دُف نعليك أمامي**)) ظاهره أن بلالاً يتقدم رسول الله ﷺ في الدخول، والخبر متفق على صحته، وهذه رؤيا ، لكن رؤيا الأنبياء وحي، فيجاب عنه بأحد

جوابين:

الجواب الأول ذكره ابن القيم –رحمه الله تعالى– في حادي الأرواح، قال: "إن بلالاً يتقدم النبي ﷺ لأن أهل الشـــام من الملوك والأكابر يتقدمهم من هو دونهم يمهد لهم الطريق ويفتح لهم الأبواب وليس لفضلهم، بمنزلة العبد عند سيده يتقدم ويفتح له الأبواب ونحو ذلك" وهذا الجواب صحيح حين نقول بأنه لا يدخل باب الجنة ابتداء، إنما في الأبواب الأخرى.

الجواب الثاني: أن يُحمل على قوله ﷺ لبلال:((**ما اســـتفتحت باباً من أبواب الجنة**)) أي حين الدخول للجنة ، وأما بداية الدخول فلا يســـبق النبي ﷺ أحد ؛ لأن الملك قال: أمرت ألا أفتح لأحد قبلك؛ فإذا دخل النبي ﷺ الجنة دخل معه بلال ثم بعد ذلك الأبواب الأخرى يسبق بلال إلى فتحها.

يؤخذ من هذا فضيلة نبينا محمد ﷺ على بقية الأنبياء –عليهم الصلاة والسلام–، ويؤخذ من هذا الإيمان بالجنة، ويؤخذ من هذا الإيمان باليوم الآخر، ويؤخذ من هذا أنه لا يلزم من التأخر أن يكون أقل قدراً من غيره فالنبي ﷺ يقول:((**نحن الآخرون الأولون**))الآخرون في ترتيب الأمم، الأولون في دخول الجنة والفضـــل ، ولذلك جاء وورد عن النبي ﷺ أنه قال:((**أمتي كالغيث لا يدري أوله خير أم آخره**)) هذا رواه خمسة من الصحابة -رضي الله عنهم- وفي صحته خلاف، والصواب أنه حسن بشواهده.

قوله:وأول من يدخلها من الأمم أمته:

وهذا لا يختلف فيه العلماء، فإن أول من يدخل الجنة من الأمم هم أمة محمد ﷺ، وفضـــل التابع لفضل المتبوع، فأتباع محمد ﷺ أفضل من أتباع موسى وعيسى، والسبب في ذلك أن الذي يتبعونه أفضل من متبوعي الأمم السابقة، فشرف هذه الأمة لشرف نبيها، ومكانتها لمكانة نبيها، وعظمتها لعظمة نبيها، ومنزلتها لمنزلة نبيها وقد قال ﷺ:((**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**))

وقد حكى غير واحد من العلماء الإجماع على تقديم نبينا محمد ﷺ على بقية الأنبياء في الفضـــل والمنزلة والرفعة، فحين يدخل نبينا محمد ﷺ الجنة تتبعه أمته، فإذا دخلوا الجنة بدأ دخول الأمم الأخرى، والجنة مراتب ومنازل، والذي ورد في صـــحيح مســـلم أن الله –جل وعلا– أعد للمجاهدين فقط في سـبيل الله مائة منزلة ما بين كل منزلتين كما بين السـماء والأرض، كما قال ﷺ:((**وأخرى يرفع الله بها العبد مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض**)).

قوله:وله صلى الله عليه وسلم في القيامة ثلاث شفاعات:

هذا على وجه الإجمال، وعلى وجه التفصيل الشفاعات أكثر، فإن النبي ﷺ له شفاعة عامة وله

شفاعة خاصة؛

النوع الأول من الشفاعة: الشفاعة العامة في أهل الموقف؛ وهذه التي أشار إليه الشيخ -رحمه الله تعالى- في قوله: حتى يقضى بينهم بأن يتراجع آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى حتى تنتهي إلى النبي ﷺ فيقول:((**أنا لها، أنا لها**)) فيأتي ربَّه ويسجد ويحمده ويبدأ بالشفاعة أولاً، حتى يقال له:((**ارفع رأسك، وقل تُسمع، واشفع تُشفع**))، فيشفع النبي ﷺ في أهل الموقف أن يقضي بينهم، ودليل هذه المسألة جاء في الصحيحين.

النوع الثاني من الشفاعة: الشفاعة الخاصة، وهي خاصة بشفاعته ﷺ في عمه أبي طالب، لأن أبا طالب كان يحمي النبي ﷺ وينصره ويذب عنه وكان يقول في شعره:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسَّد في التراب دفيناً

وكان يقول:

لولا الملامة أو حذار مسبة لوجدتني سمحاً بذاك مبيناً

وفيه قال الله تعالى على قول بعض المفسرين: ﴿**وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْه**﴾ ينهون عن أذيته وينأون عن أتباعه، وحين أتى العباس للنبي ﷺ فقال:((**يا رسول الله، إن عمك الضال كان ينصرك ويحميك فهل نفعته بشيء**، فقال النبي ﷺ : **نعم، نعلان يغلي منها دماغه، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار**)) وهذا متفق على صحته، وهذا يفيد عدة أمور:

الأمر الأول: مجازاة من صنع فيك معروفاً وإن كان كافراً ، ولذلك يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله تعالى- في تفسيره حين ذكر أشعار وأقاويل أبي طالب في نصرة النبي ﷺ يقول:" والله لو يجوز الاستغفار لأحد من المشركين لاستغفرت لأبي طالب" ولكن الله نهى عن ذلك ﴿**مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ**﴾ ولذلك قال الله -جل وعلا- عن إبراهيم: ﴿**فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ**﴾.

الشفاعة الثانية: الشفاعة الخاصة ؛ متعلقة بتخفيف العذاب عن أبي طالب، ولم يرد في ذلك غير هذا الخبر فلم يشفع النبي في تخفيف عذاب أحد إلا في تخفيف عذاب أبي طالب، وقد جاء في مراسيل عروة في صحيح البخاري أنه يخفف العذاب عن أبي لهب حين أعتق ثويبة حين بشرته بولادة النبي ﷺ ، وهذا لم يثبت مرفوعاً موصولاً إلى النبي ﷺ، فلا يعتمد عليه، وأيضاً دلالة الأثر تفيد أنه خفف عنه مرة ، وليس على وجه الدوام، وأيضاً هذا بفضل ومنٍّ الله دون شفاعة أحد، وعلى كل هذا لا يعتمد

عليه.

يستفاد من الحديث أن عذاب أهل النار مراتب وقوله ﷺ:((**لولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار له نعلان يغلي منهما دماغه**)) أي بالنسبة للكفار، أما من عذب من الموحدين فهم أحسن حالاً من أبي طالب، هذا بالنسبة لأهل الكفر، فأبو طالب أخف الكفر عذاباً ((**نعلان يغلي منهما دماغه**)) يستفاد من الحديث أن الأصل في الكفار واليهود والنصارى والمشركين أنهم حطب جهنم ، وأنهم يخلدون في الجحيم ، والحديث صريح في هذا، ويؤخذ من الحديث إثبات الجزاء والحساب وعذاب الآخرة.

الشفاعة الثالثة: شفاعة الرسول ﷺ في أهل الجنة أن يدخلوا الجنة ، والأدلة في هذا متواترة، ولا يدخل الجنة أحد قبله ﷺ، فحين يأذن لهم يدخلون، وأسعد الناس بشفاعته ﷺ من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه، فحين قال أبو هريرة للنبي ﷺ:((**يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك؟ فقال النبي** ﷺ: **لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا أحد قبلك، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه**)) رواه البخاري وغيره.

ويؤخذ من هذا أن الشفاعة خاصة بأهل التوحيد، أما الوثنيون والمشركون فلا شفاعة لهم؛ قال الله تعالى: ﴿**فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ**﴾.

الشفاعة الرابعة: شفاعته ﷺ في قوم دخلوا الجنة ترفع منازلهم، فقال النبي ﷺ في أبي سلمة: ((**وارفع درجته في المهديين**)) شفع له في رفع درجته.

الشفاعة الخامسة: شفاعته صلى الله عليه وسلم فيمن استحق النار ألا يدخلها، وقد ذكر ابن القيم –رحمه الله تعالى- في تهذيب السنن أنه لم يقف على نص في هذه المسألة وهذا حق؛ لم يرد نص صريح في هذه المسألة ، هناك حديث ضعيف رواه أبو نعيم في الحلية ، وجاءت الأدلة العامة في هذا الباب.

الشفاعة السادسة: شفاعته ﷺ فيمن دخل النار أن يخرج منها وهذه التي يكابر بها أهل البدع من المعتزلة والخوارج وغيرهم حيث يرون تخليد أصحاب الكبائر في النار وأن من دخل النار لا يمكن أن يخرج منها، وقد جاءت الأحاديث عن النبي ﷺ متواترة ، وجاء في الباب ما لا يقل عن أربعين حديثاً ، ويقول الله –جل وعلا- يوم القيامة:((**شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا شفاعة أرحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار فيخرجهم ويدخلهم الجنة**)) وهذا جاء في الصحيح،

وهو نص صريح في خروج قومٍ من النار، والنبي ﷺ يشفع في هؤلاء .

والشفاعة غير خاصة أيضاً بالنبي ﷺ تقدم أن الرب يشفع والملائكة تشفع والنبي يشفع والمؤمنين يشفعون، هذا نص صريح، قال الله –جل وعلا-" شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون.

فالشهيد يشفع في سبعين من أهل بيته ، فهذا ضرب من ضروب الشفاعة، أما الشفاعة العامة فخاصة بالنبي ﷺ، شفاعة النبي ﷺ في أبي طالب خاصة به، أما الشفاعة في قوم استوجبوا النار ألا يدخلوها أو قوم دخلوها أن يخرجوا منها فهي عامة له ولأمته، فإنه أتى بأمر يستحق أن يكون شفيعاً، وهذا الأمر كما تقدم تنكره المعتزلة والخوارج، للأصل الثابت الموجود في مذاهبهم من دعوى تخليد أصحاب الكبائر في النار ، وهذا خلاف الإجماع ، وخلاف كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وما أجمع عليه الصحابة والتابعون والأئمة المتبوعون.

والأدلة في هذا الباب متواترة ليست من أخبار الآحاد كما يدعي أهل البدع بل هي أدلة متواترة، ولو كانت من أخبار الآحاد لوجب العمل بها، فما ثبت إسناده إلى النبي ﷺ وجب العمل به ، إلا أن الأمر بخلاف ما يتوقعون أو يتصورون فالأدلة في هذا الباب متواترة ولذلك قال النبي ﷺ:((**إن اللعانين لا يكونون شفعاء يوم القيامة**)) صحيح أن الشفاعة مثبتة وواقعة لا محالة.

قوله:ويخرج الله من النار أقواماً بغير شفاعة، بل بفضله ورحمته:

أي بغير شفاعة أحد من البشر، يدل على ذلك الحديث المتقدم، ولكن تسمى شفاعة من رب العالمين، لأن الله سمى ذلك شفاعة؛ قال في الحديث ((**شفاعة الملائكة وشفاعة النبيين وشفاعة المؤمنين ولم يبق إلا شفاعة أرحم الراحمين**)) وهو الحديث الصحيح، فسمى الله ذلك شفاعة، وقد يقصد الشيخ أيضاً الأمر الآخر، أنه يبقى في الجنة فضل عمن دخل النار من أهل الدنيا، فينشئ الله أقواماً فيدخلهم الجنة، أي يخلق الله أقواماً فيدخلهم الجنة.

والجنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطرت على قلب بشر، والصواب أن الشيخ – رحمه الله تعالى- يقصد في قوله يخرج الله من النار أقواماً بغير شفاعة، أي إشارة إلى ما تقدم، وهذا الذي تقدم يسمى شفاعة ويبقى في الجنة فضل عمن دخل من أهل الدنيا ، فينشئ الله أي : يخلق الله أقواماً فيدخلهم الجنة، فيؤخذ من ذلك :

الأمر الأول: الإيمان بالجنة والنار.

الأمر الثاني: أن الله –جل وعلا– يخلق أقواماً فيدخلهم الجنة ولم يكن لهم سابق حياة في الدنيا.

الأمر الثالث: سعة رحمة الله في هذا الموقف، يدل على ذلك أن الله –جل وعلا– أنزل مائة رحمة واحدة يتراحم بها أهل الأرض، واختبأ عنده تسعة وتسعين رحمة، ولذلك أيضاً يقول النبي ﷺ: ((**ما من نبي إلا تعجل دعوته لأمته قبل يوم القيامة، واختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله لمن مات لا يشرك بالله شيئاً**)) وهذا في الصحيح.

ومن فوائد هذا أيضاً، ذاك اليوم الآخر ، وأن هذا الأمر متحقق لا محالة، ما تسمعون عن قريب تعاينون، وفي الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، قال تعالى: ﴿**فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ فالذين يسمعون هذا لا يحصلونه إلا بالجد والاجتهاد والعمل وأداء الواجبات والانتهاء عن المحرمات فإن الجنة طيبة ولا يدخلها إلا الطيب ، ولذلك اشتكت النار والجنة إلى ربها فقالت النار: يا رب مالي لا يدخلني إلا المتكبرون والمتجبرون، وقالت الجنة: يا رب مالي لا يدخلني إلا الضعفاء والمساكين فقال الله –جل وعلا– للنار: أنت عذابي أضع فيك من أشاء، وقال الله –جل وعلا– للجنة: أنت رحمتي أضع فيك من أشاء ولكل ملؤها.

قوله: "وأصناف ما تضمنته الدار الآخرة والثواب والعقاب والجنة والنار وتفاصيل ذلك مذكورة في الكتب المنزلة من السماء" قدم في بداية الشرح أن هذا الأمر سبقت عليه اليهودية والنصرانية واتفق عليه أهل الإسلام، وأن هذا مما جاءت به الكتب المنزلة، والذين لا يؤمنون بذلك هؤلاء ممن نالتهم أيدي التحريف، وإنه في الأصل في الكتب المنزلة أن هذه الغيبيات موجودة في كتبهم، فأصناف اليوم الآخر من الحساب والثواب والعقاب والجنة والنار، هذا موجود في التوراة والإنجيل والزبور والقرآن، والذين لا يؤمنون بذلك كالدهرية المنتسبين لأمة محمد ﷺ ، أنزل عليهم القرآن ولكن ضلوا الطريق واحتوتهم أسباب الشقاوة فلا يؤمنون باليوم الآخر ولا يختلف العلماء بأن هذا كفر بالإجماع المسلمين سواء كان في اليهودية أو النصرانية أو في الإسلام،

قوله: والآثار من العلم المأثور عن الأنبياء:

أي: وهذا جاء في الآثار وفي الكتب وفي المأثور عن الأنبياء كما قاله عنهم أصحابهم فلا يختلفون في الإيمان بالحساب والعقاب والجنة والنار.

قوله: "فالعلم الموروث عن محمد ﷺ من ذاك ما يشفي ويكفي "

فنحن نستغني بالمنقول عن محمد عن المنقول عن غير الأنبياء ولكن لابد أن نبلغ الآخرين أنه موجود في كتبهم الإيمان بالجنة والنار والحساب والعقاب وهذه الأمة مأمورة بتبليغ الحق وتبليغ الإسلام

إلى اليهود والنصارى والمشركين والمجوس وغيرهم.

قال الله -جل وعلا-: ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي**﴾ وقد كان النبي ﷺ يبعث أصحابه إلى الهجر والقرى والأمصار يبلغون الحق ويعلمون الناس ويدعونهم إلى الإسلام، فقد بعث معاذاً إلى اليمن، ويوم خيبر بعث علياً ، وأمره أن ينزل إلى ساحتهم ويدعوهم إلى الإسلام وقال: ((**فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم**)) والخبر في الصحيحين.

وقال تعالى:﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ**﴾ قال الحسن البصري:هذا ولي الله، هذا حبيب الله، هذا صفوة الله دعاه الله فأجابه، معنى الآية: لا أحد أحسن قولاً ممن دعا إلى الله، وقد بعث الله الرسل مبشرين ومنذرين، وقال الله تعالى في حق نبينا ونحن مأمورون باتباعه: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**﴾، ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا * وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا * وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا**﴾.

قوله:فمن ابتغاه وجده:

أي فمن ابتغى الحق والمأثور عن النبي ﷺ أو المأثور عن الأنبياء في هذا الباب يجده فلا يعوزه ، والذي يعوز المعرضين وقد توعدهم الله بقوله: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا**﴾ والآية الأخرى:﴿**فَأَعْرَضَ عَنْهَا**﴾ وقد قال الله عن الكفار: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ**﴾ فالذين يعرضون عن الحقائق، يعرضون عما جاءت به الرسل، هؤلاء يعرضون عن الله أبداً.

وأهل السنة يؤمنون بكل ما جاء وبكل ما ذكر في هذا المقطع ، وأن الأدلة متواترة فيه ، وليست هذه المسألة ممالم يتفق عليه العلماء، بل هم متفقون على الحساب والعقاب والثواب والجنة والنار وغير ذلك.

الإيمان بالقدر :الدرجة الأولى

وَتُؤْمِنُ الْفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ - أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ - بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، وَالإِيمَانُ بِالْقَدَرِ عَلَى دَرَجَتَيْنِ: كُلُّ دَرَجَةٍ تَتَضَمَّنُ شَيْئَيْنِ.

فَالدَّرَجَةُ الأُولَى: الإيمَانُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى عَلِيمٌ بِالْخَلْقِ، وَهُمْ عَامِلُونَ بِعِلْمِهِ الْقَدِيمِ الَّذِي هُوَ مَوْصُوفٌ بِهِ أَزَلاً وَأَبَدًا، وَعَلِمَ جَمِيعَ أَحْوَالِهِم مِّنَ الطَّاعَاتِ وَالْمَعَاصِي وَالأَرْزَاقِ وَالآجَالِ، ثُمَّ كَتَبَ اللهُ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ مَقَادِيرَ الْخَلْقِ. فَأَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ قَالَ لَهُ: اكْتُبْ. قَالَ: مَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. فَمَا أَصَابَ الإِنْسَانَ لَمْ يَكُن لِّيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُن لِّيُصِيبَهُ، جَفَّتِ الأَقْلامُ، وَطُوِيَتِ الصُّحُفُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى:﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠]، وَقَالَ:﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢]. وَهَذَا التَّقْدِيرُ التَّابِعُ لِعِلْمِهِ سُبْحَانَهُ يَكُونُ فِي مَوَاضِعَ جُمْلَةً وَتَفْصِيلاً: فَقَدْ كَتَبَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ مَا شَاءَ. وَإِذَا خَلَقَ جَسَدَ الْجَنِينِ قَبْلَ نَفْخِ الرُّوحِ فِيهِ؛ بَعَثَ إِلَيْهِ مَلَكًا، فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، فَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ: رِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَعَمَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ.. وَنَحْوَ ذَلِكَ. فَهَذَا التَّقْدِيرُ قَدْ كَانَ يُنْكِرُهُ غُلاةُ الْقَدَرِيَّةِ قَدِيمًا، وَمُنْكِرُهُ الْيَوْمَ قَلِيلٌ.

الشرح

العقيدة الواسطية على اختصار كلماتها وقلة ألفاظها مشتملة على أصول عقائد أهل السنة والجماعة، فالشيخ –رحمه الله تعالى– يفصل في موضع ثم يختصر في موضع آخر ويأتي بالمقصود بعبارة واضحة جلية لا لبس فيها.

قال الشيخ –رحمه الله تعالى-: فهم الفرقة الناجية وهم الطائفة المنصورة سماهم النبي ﷺ بذلك لنجاتهم من أهل البدع، وسلامة عقائدهم ومقاصدهم وحسن سيرهم، وهم وسط بين أهل البدع في كل شيء؛ في أسماء الله وصفاته، وفي القدر، وفي الوعد الوعيد، وفي أسماء الإيمان والدين، ولقد تواتر النقل عن النبي ﷺ أنه قال:((**ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورين، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم**)) هذا إشارة إلى قلتهم، وفي نفس الوقت هم فئة يلاقون ويعانون من الآخرين فيكون هذا معيناً على ثباتهم ومثبتاً لأقدامهم، **حتى يأتي أمر الله** الريح التي تقبض روح كل مؤمن لأن الساعة لا تقوم إلا على شرار الخلق، حين لا يقال في الأرض الله الله.

قوله:من أهل السنة والجماعة:

من أهل السنة أي المتبعين لسنة النبي ﷺ، المقتفين لآثار ذلك، فقد قال بعض السلف: السنة التي ليس لها اسم إلا السنة، والسنة تطلق على عدة معانٍ وقد جرت عادة الفقهاء على إطلاق السنة على ما أثيب فاعله ولم يعاقب تاركه، وهذا اصطلاح فقهي، والسنة أعم من هذا، السنة مشتملة على كل أفعال النبي ﷺ وأقواله واعتقاده فمن ذلك الواجب والمندوب والمستحب وغير ذلك، ولا يجوز حمل لفظ السنة في الوارد عن النبي ﷺ على المعنى الفقهي الاصطلاحي، فحين نقول من السنة إعفاء اللحية، لا يعني هذا أن حلقها جائز ولا يأثم، لا يقول بذلك أحد من العلماء، المقصود من السنة إعفاء اللحية أنها سنة النبي ﷺ بصرف النظر عن حكم ذلك.

حكى الإمام ابن حزم الإجماع في مراتب الإجماع على أن إعفاء اللحية فرض، ولا يزال العلماء يقولون في سنة النبي ﷺ كذا، وهذا الذي نقله عنه أهل الحديث، حين يسمون كتبهم كتب السنة؛ قال عبد الله ابن الإمام أحمد في كتابه الاعتقاد يقول: كتاب السنة، والسنة للخلال، والسنن لأبي داود، سنن الترمذي، سنن النسائي، سنن ابن ماجة، كل هذا من هذا القبيل، إذًا السنة تطلق على عدة معانٍ؛ تطلق على الفرض، تطلق على الركن، تطلق على الواجب، تطلق على المسنون، والمسنون مراتب، والسنة المؤكدة، التطوع، المستحب وغير ذلك.

قوله:الجماعة:

أي اجتمعوا على كتاب الله، واجتمعوا على سنة رسول الله ﷺ وعلى حب الصحابة وعلى موالاتهم ونصرتهم.

قوله:في القدر:

قال الإمام أحمد -رحمه الله تعالى- في تعريف القدر: هو قدرة الرحمن، ومعنى قدرة الرحمن: أي لا يمنع من قدر الله شيء، وقد أشار إلى هذا الإمام ابن القيم -رحمه الله تعالى- في النونية فقال:

وحقيقة القدر الذي حار الورى		**في شأنه هو قدرة الرحمنِ**
واستحسن ابن عقيل ذا من		**لما حكاه عن الرضا الرباني**
قال الإمام شفى القلوب بلفظةٍ		**ذات إختصار وهي ذات بيان**

ولا يختلف العلماء على تحريم الاحتجاج بالقدر على فعل المعاصي، بخلاف وقوع المصائب.

عند مراد الله تفنى كميّتٍ		**وعند مراد النفس تُسدي وتلحمُ**

وعند خلاف الأمر تحتج بالقضـــا	ظهيراً على الرحمن بالجبر تزعمُ

فالاحتجاج بالقدر على المعاصي نوعان:

النوع الأول: أن يجعل هذا مبرراً ومسـوغاً لفعل المعاصـي وهذا لا يختلف العلماء في تحريمه وتجريم فاعله ووصفه بالضلال والابتداع والانحراف.

النوع الثاني: أن يبذل جهده ويفعل بالأسـباب ويترتب على ذلك فعل المعصـية لخروج ذلك عن قدرته، فلا حرج أن يقول هذا قدّره الله عليّ، كما قال آدم لموسى: (تلومني على أمر قد قدره الله عليّ) لأنه فعل الأسباب، فلم يجعل القدر مسوغاً لفعل المعصية، فهو قد جعل القدر حين وجدت الأسباب مسوغاً للعذر، وليس مسوغاً للمعصية، ففرق بين الأمرين.

والذين يحتجون بالقدر على فعل المعاصـي يناسـبهم إلقاء أنفسـهم مَنْ الجبال الشـاهقة والعمائر المرتفعة، ويحتجون للناس بالقدر؟ ! لا يصـنعون ذلك، أو بطعن أنفسـهم بالسـكاكين والخناجر ؟ ! لا يفعلون ذلك، فهم يحتجون بالقدر على فعل المعصية، ولا يتجاسرون على الاحتجاج بالقدر على إلقاء النفس في التهلكة.

ولذلك ذكر العلماء – رحمهم الله تعالى – عن القدرية في هذا الباب مَنْ الأدلة على ضـــلالهم وتجردهم مما أمر الله به الشـيء الكثير، حتى إن بعضـهم مَنْ ضـلاله وحمقه حين رأى رجلاً فوق امرأته، وأراد أن يعاقبه قال له الآخر:قدر قال: صدقت.

فهم بهذا الاعتقاد الفاسـد والفهم الخبيث لكلام الله وكلام رسـوله – صـلى الله عليه وسـلم – و الواقع يقعون في مثل هذه الجرائم، في مثل هذه التجاوزات والمخالفات، حتى الإنســـانية ولذلك يقول ابن القيم – رحمه الله تعالى – عن القدر: نظام التوحيد. لا ينتظم التوحيد إلا بالإيمان بالقدر، ولذلك يقول النبي – صلى الله عليه وسلم – ((**وَمَنْ لم يؤمن بالقدر خيره وشره أحرقه الله بالنار**)). وحين جاء أناسٌ إلى ابن عمر يقولون: إن الأمر أنف، قـال ابن عمر: أخبرهم، أني بريء منهم، وأنهم برءاء مني، والذي يحلف به ابن عمر: لا يؤمن أحدهم حتى يؤمن بالقدر خيره وشـره، قال تعالى:﴿**إِنَّا كُلَّ شَـيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾.

قوله:خيره وشره:

أي الفرقة الناجية – أهل السنة والجماعة – يؤمنون بالقدر خيره وشره، لا يؤمنون بالخير دون الشر، أو بالشر دون الخير، كما تقول القدرية حيث يقولون: إن الشر غير مخلوق لله. هذا ضلال وانحراف، الشر مخلوق لله كالخير، لا يخرج شيء عن خلق الله – جل وعلا – ولذلك هم بهذا الاعتقاد يجعلون مع الله إلهاً آخر، وهذا هو السر في كون العلماء يسمون القدرية مجوس هذه الأمة، المجوس يجعلون للعالم خالقين، خالق النور وخالق الظلمة، وعند المجوس أن خالق النور أعظم مِن خالق الظلمة. وهذا بلا ريب كفر بالله، لا يختلف في ذلك العلماء. تروى أحاديث مرفوعة عن النبي صلى الله عليه وسلم أن ((**القدرية مجوس هذه الأمة**)) ولا تصح، والصواب وقفها على الصحابة – رضي الله عنهم – الذي تأخرت وفياتهم.

والقدرية يسمون مجوس هذه الأمة لأنهم يقولون إن الله – جل وعلا – خلق الخير ولم يخلق الشر، ففي هذه الحالة يشابهون المجوس في جعل خالق مع الله.

قوله:والإيمان بالقدر على درجتين، كل درجة تتضمن شيئين:

وأهل السنة يؤمنون بكل ذلك، يؤمنون بالقدر إجمالاً في الإجمال وتفصيلاً في التفصيل.

وأقوى مَنْ كتب في هذا الموضوع هو الإمام ابن القيم – رحمه الله تعالى – في كتابه (شفاء العليل)، وجميع مَنْ كتب بعده استفاد منه، لأن الكتاب جامع في هذا الباب، فتحدث عن هذا الموضوع بقوة، وتحدث عن أهمية هذا الباب، وأن طوائف مِنْ أهل البدع قد ضلت أفهامهم، وزلت أقدامهم في هذا الباب العظيم الذي هو سر الإيمان ونظام التوحيد.

وتحدث عن هذا الموضوع أيضا بتوسع شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى – في كتابه القدر، وهو مطبوع وموجود في الفتاوى، وفي صلب هذا الكتاب أسئلة وأجوبة للشيخ – رحمه الله تعالى – عن هذا الموضوع.

قوله:الدرجة الأولى: الإيمان بأن الله – تعالى– عليم بالخلق:

الله جل وعلا – موصوف بالعلم، ولا يخفي عليه شيء في الأرض ولا في السماء، " وما هم عاملون" بعلمه القديم، أي عليم بالخلق وبما يعملون بعلمه القديم الذي هو موصوف به أزلاً وأبداً، وأن الله يعلم ما كان وما يكون، وما لو كان سوف يكون، هذا رد على القدرية الذين يقولون إن الله لا

يعلم بالأشياء إلا حين وقوعها، وهذا وصف لله بالجهل وعدم القدرة وعدم العلم، تعالى الله عن قولهم علوا كبيراً.

الدرجة الأولى أن أهل السنة يؤمنون بأن الله عليم بالخلق وبما كانوا يعملون بعلمه القديم الذي هو موصوف به أزلاً وأبداً.

وهو العليم أحاط علماً بالذي
في الكون من سر ومن إعلان
وبكل شيء عِلْمُهُ سبحانه
فهو العليم وليس ذا نسيان

قال تعالى:﴿**لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا**﴾.

قوله:وعلم جميع أحوالهم:

حيث لا يخفى عليه شيء، يعلم الكليات، ويعلم الجزئيات. ويعلم ما كان، ويعلم ما يكون، ويعلم ما لو كان سوف يكون.

والإيمان بكل ذلك فرض، لا يعذر أحد بإنكار شيء من ذلك، والناس يتفاوتون في قوة الإيمان والصدق واليقين في هذا الباب على حسب تفاوت إيمانهم، فإن الإيمان مراتب ودرجات.

قوله: من الطاعات والمعاصي:

أي علم الله جل وعلا أحوال العباد مما سوف يفعلون، مما فعلوا ومما سوف يفعلون من الطاعات والمعاصي والأرزاق والآجال، وقد جاء في صحيح مسلم ان النبي صلى الله عليه وسلم قال:((**إن الله قدر مقادير الخلق قبل أن يخلقهم بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء**)) إذًا "لو" لا تنفع في هذا الباب فحين يمر بالطريق ويسقط عليه حجر ويؤلمه، فلا وجه لقوله: لو أنني لم أمر من هذا المكان ما أصابني شيء، هذا اعتراض على القدر، النبي – صلى الله عليه وسلم – قال:((**فإن أصابك شيء فلا تقل: لو أنني فعلت كذا وكذا. ولكن قل: قَدَّرَ الله وما شاء فعل**)). وهناك قراءة في هذا اللفظ: ((**ولكن قل: قَدَرُ الله وما شاء فعل**)) يضبط بالوجهين، وكلاهما صحيحان عند أهل العلم، قَدَّرَ الله وما شاء فعل، قَدَرُ الله: أي هذا قدر الله: خبر لمبتدأ محذوف، وما شاء فعل.

قال تعالى:﴿**مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ**

﴿نَبْرَأَهَا﴾أي نخلقها ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

قوله:ثم كتب الله في اللوح المحفوظ مقادير الخلق:

قال الله جل وعلا:﴿**مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ**﴾، إذا ما معنى قوله – صلى الله عليه وسلم ((**من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه**)). إذا كان هذا مكتوباً لا يتغير ولا يتبدل فما معنى قوله – صلى الله عليه وسلم: ((**من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه**)) مفهومه أن الذي لا يصل رحمه يختلف أجله عن أجل الذي يصل رحمه.

الجواب عن هذا أن الذي يتغير ويتبدل هو ما كان في علم الملائكة، وأن ما كان في علم الله فإنه قد فُرغ منه، قال الله – جل وعلا:﴿**وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ**﴾، بمعنى أنه في علم الملائكة وما كان في صحفهم أن من يصل رحمه سوف يكون عمره ثمانين عاماً، ومن لم يصل رحمه سوف يكون عمره خمسين عاماً، وفي علم الله قد فرغ منه، سوف يصل أو لن يصل، لأن الله عليم أن الخلق عاملون، وموصوف -جل وعلا- بالعلم الذي هو صفة أزلية أبدية، لا يمكن أن تنفك عن الله في يوم من الأيام أو ساعة من الساعات أو لحظة من اللحظات، فيوصف بأنه ليس بعالم، هذا لا يمكن أبداً.

وعلى هذا تحمل الأحاديث الواردة في مثل هذا، والله – جل وعلا – كتب ذلك في اللوح المحفوظ، فيؤخذ من ذلك وصف الله – جل وعلا – في كتابه، فتقدم قوله – صلى الله عليه وسلم – أن الله قدر مقادير الخلق، وجاء في الحديث أن الله كتب مقادير الخلق، وقال عبد الله: إن الله كتب. وغير ذلك من الأدلة الواردة في هذا الباب.

قوله:فأول ما خلق الله القلم:

يحتمل هذا أحد معنيين: المعنى الأول: أن أول خلقٍ لله هو القلم، والمعنى الثاني: أن القلم ليس بأول المخلوقات، ولكن معنى الحديث أنه حين خلق الله القلم قال: اكتب، فهذا هو معنى: إن أول ما خلق الله القلم، أي: حين خلقه، وقت خلقه قال له: اكتب. وهذا المعنى أفصح من القول بأن القلم هو أول المخلوقات. هذا فيه نظر، وقد أشار إلى هذا الخلاف ابن القيم في النونية فقال:

والناس مختلفون في القلم الذي
كتب القضاء به من الديانِ
هل كان قبل العرش أو هو بعده
قولان عند أبي العلا الهمذاني

والحق أن العرش قبلُ لأنه
وقت الكتابة كان ذا أركان

قوله: قال له اكتب ، قال: ما اكتب ؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة:

والأدلة في هذا كثيرة، كحديث عبادة عند الإمام أحمد وغيره.

ولا يختلف العلماء أن الإيمان بالقدر هو أحد أركان الإيمان الستة، فحين قال جبريل صلى الله عليه وسلم: قولا يختلف العلماء أن الإيمان بالقدر هو أحد أركان الإيمان الستة، فحين قال جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم: ((**ما الإيمان ؟ قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت، وأن تؤمن بالقدر خيره وشره**)).

وحين خُلِقَ القلم أمره الله أن يكتب، قال القلم: وما أكتب؟ أنطقه الله الذي أنطق كل شيء هذا على حقيقته، أن القلم تكلم، نؤمن بذلك لأن الله أخبر عن ذلك، قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة. إشارة إلى علم الله، ففيه إثبات صفة العلم، فيه إثبات صفة القدرة، وفيه إثبات صفة العظمة لله -جل وعلا – فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه، جفت الأقلام وطويت الصحف، إشارة إلى كتابة كل شيء، فإن طي الصحف وجفاف الأقلام دليل على أن الأقدار قدرت، وفرغ منها.

كما قال تعالى:﴿**أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ**﴾ فيه إثبات صفة العلم لله – جل وعلا – ﴿**مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ**﴾ فيه إثبات صفة الخلق، وذلك في ذكر ما في السماء والأرض، ﴿**إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ**﴾، الكتاب هذا هو اللوح المحفوظ،﴿**إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ**﴾: أي لا يعجزه، ولا يكرثه، ولا يثقله، ولذلك جاء في الصحيحين أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال:((**إن الله كتب كتاباً، فهو موضوع عنده فوق العرش، إن رحمتي سبقت – وفي رواية: غلبت – غضبي**))

وقوله:﴿**مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ**﴾. أي من الأمراض والفقر والشدائد والحوادث والفتن وغير ذلك ﴿**فِي الْأَرْضِ**﴾: أي من قلة النبات ونحو ذلك ﴿**وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ**﴾: أي من الفقر أو الأمراض، ﴿**إِلَّا فِي كِتَابٍ**﴾أي:هذا أمر مقدر قبل أن يخلق الله السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، حين كان عرشه على الماء.

قوله: ﴿**مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا**﴾ أي نخلقها، ﴿**إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ**﴾ أي: لا يعجزه. ففيه إثبات صفة القدرة لله – جل وعلا – وفيه بيان عظمة الله – جل وعلا – وفيه ضرورة الإيمان بالقدر خيره

وشره وأنه خلق الخير وخلق الشر، فكلاهما مخلوقان لله – جل وعلا.

وهذا التقدير التابع لعلمه- الشيخ ذكر في ذلك الباب درجة العلم المتضمنة لشيئين:

١-: أن الله عليم أن الخلق عاملون.

٢-: مرحلة أو مرتبة الكتابة.

وهذا التقدير التابع لعلمه – سبحانه – يكون في مواضع جملة وتفصيلا، فقد كتب في اللوح المحفوظ ماشاء، يقول- جل وعلا – ﴿**كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ**﴾، ما معنى﴿**كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ**﴾؟ معنى ذلك أنه كل يوم هو في شأن: يعز ذليلاً، يذل عزيزاً، يخلق، يميت، يدبر، يبيد، ينفع، يضر، وغير ذلك كل يوم هو في شأن.

وقوله: إذا خلق جسد الجنين قبل نفخ الروح فيه بعث إليه ملكاً:

الصواب أن نفخ الروح يكون بعد مائة وعشرين يوماً، " بعث إليه ملكاً فيؤمر بأربع كلمات فيقال له اكتب رزقه"، فيه إشارة إلى أن كتب الرزق والأجل تعلمه الملائكة بعد أمرهم بذلك، إذًا لا يختص به الرب – جل وعلا – إذًا ما معنى قول الله – جل وعلا: ﴿**وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ**﴾.

اختلف العلماء في معنى هذه الآية: ﴿**وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ**﴾ على مذاهب.

-**المعنى الأول**: المذهب الذي يظنه كثير من الناس:﴿**وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ**﴾ أي لا يعلم ما في بطن المرأة من الذكر أو الأنثى إلا الله، وهذا غلط، لأن الحديث صريح في رده. ولذلك بعض الناس الآن يتأولون بمعرفة الأطباء بما في بطن المرأة، ويعتبرون هذا من علم الغيب، ويلجأ البعض إلى التبديع والتضليل وغير ذلك، فهذا ليس له أصل من الصحة ولا أثارة من العلم، وهذا جهل ممن يتكلم في هذه القضايا بدون علم.

-**المعنى الثاني**: ﴿**وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ**﴾: أي قبل أمر الملك. وهذا أيضا فيه نظر.

-**والمعنى الثالث**: ﴿**وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ**﴾: أي يعلم ما يودع في الرحم من ذكر أو أنثى. وهذا الصواب في المسألة، ﴿**وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ**﴾: أي يعلم ما يودع في الأرحام من الذكر أو الأنثى، هذه النطفة التي تكون ذكراً أو تكون أنثى، وإن كان هذا لا يختص بعلمه الرب – جل وعلا.

قوله:بعث إليه ملكاً:

لا يختلف العلماء أن الملائكة مخلوقون من نور، فإن قال قائل: إذا كان الملائكة مخلوقين من نور، فكيف يكون إبليس مخلوقاً من نار وهو من الملائكة ؟ الجواب: أنه لم يثبت أن إبليس من الملائكة.

وأما قوله –جل وعلا:﴿**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ**﴾ فهذا الاستثناء استثناء منقطع وليس بمتصل، كقول الله جل وعلا: ﴿**لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى**﴾، وكقول العرب: قام القوم إلا حماراً. الحمار ليس من جنس القوم، فهذا الاستثناء منقطع، فإبليس كان من المقربين، ولم يكن من الملائكة المخلوقين من نور، كان مخلوقا من نار، والدليل على هذا قوله – جل وعلا – في سورة الكهف:﴿**إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ**﴾نص صريح ﴿**إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ**﴾ فهذه الآية توضح كل آية في القرآن، والآيات يفسر بعضها بعضاً، وهو نفسه يقول:﴿**خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ**﴾ فهو مخلوق من نار، ما خلق من نور، والنور أشرف من النار.

قوله: فيؤمر –أي الملك – بأربع كلمات:

يقال له اكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد ونحو ذلك. يعني أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك:

توكلت في رزقي على الله خالقي
وأيقت أن الله لاشك رازقي
ومايك من رزق فليس يفوتني
ولو كان في قاع البحار العوامق
سيأتي به الله العظيم بموضع
ولولم يكن مني لسان بناطق

وليس معنى هذا أن العبد لا يعمل بالأسباب هذا غلط، فالأمر كما قال شيخ الإسلام – رحمه الله تعالى – في الفتاوى:(**الاعتماد على الأسباب شرك في التوحيد، وترك الأسباب خلل في التوحيد**)، فالذين لا يأتون بالأسباب هؤلاء يخالفون منهج الرسل، والذين يعتمدون على الأسباب دون الله هؤلاء المشركون بالله – جل وعلا – الموحد يسير في هذه الحياة على فعل الأسباب، وعلى التوكل على خالق الأسباب:﴿**وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**﴾، ﴿**وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾، ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾

إذا انقطعت أطماع عبد عن الورى
تعلق بالرب الكريم رجاؤه
فأصبح حراً عزة وقناعة
على وجهه أنواره وضياؤه
وإن علقت بالخلق أطماع نفسه
تباعد ما يرجو وطال عناؤه
فلا ترج إلا الله في الخطب وحده
ولو صح في خل الصفاء صفاؤه

قال الشيخ:هذا التقدير كان ينكره غلاة القدرية قديما، ومنكروه اليوم قليل:

يعني الشيخ بكلامه أن القدرية كانوا من قبل بقيادة الجعد بن درهم يقولون أن الله — جل وعلا — غير موصوف بالعلم القديم، وأن الله لا يعلم الأشياء إلا بعد وقوعها، وقد كان أئمة القدرية من قبل ينكرون هذا، وكان هذا بكثرة في بداية ظهور أهل البدعة،

ولكن يقول الشيخ:ومنكروه اليوم قليل:

نعم، ولا يزالون ينقصون في كل عصر، ولكن القسم الثاني هم الذين يتواجدون بكثرة.

الإيمان بالقدر: الدرجة الثانية

وَأَمَّا الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: فَهِيَ مَشِيئَةُ اللهِ النَّافِذَةُ، وَقُدْرَتُهُ الشَّامِلَةُ، وَهُوَ: الإِيمَانُ بِأَنَّ مَا شَاءَ اللهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَأَنَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ حَرَكَةٍ وَلاَ سُكُونٍ: إِلاَّ بِمَشِيئَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ، لاَ يَكُونُ فِي مُلْكِهِ مَا لاَ يُرِيدُ، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ وَالْمَعْدُومَاتِ، مَا مِنْ مَخْلُوقٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ إِلاَّ اللهُ خَالِقُهُ سُبْحَانَهُ، لا خَالِقَ غَيْرُهُ، وَلاَ رَبَّ سِوَاهُ.

وَمَعَ ذَلِكَ: فَقَدْ أَمَرَ الْعِبَادَ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رُسُلِهِ، وَنَهَاهُمْ عَنْ مَعْصِيَتِهِ. وَهُوَ سُبْحَانَهُ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ وَالْمُحْسِنِينَ وَالْمُقْسِطِينَ، وَيَرْضَى عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، وَلا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ، وَلاَ يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ، وَلاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ، وَلاَ يَرْضَى لِعِبَادِهُ الْكُفْرَ، وَلاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ.

الشرح

المرتبة الأولى من مراتب القدر المتضمنة لأمرين: الأمر الأول: العلم، الأمر الثاني: الكتابة.

شرع – رحمه الله تعالى – يتحدث عن الدرجة الثانية المتعلقة بمشيئته وقدرته، فلا يختلف العلماء في إثبات مشيئة الله وقدرته على كل شيء، وأن هذه المشيئة نافذة لا يمنعها شيء، وأن هذه القدرة شاملة لا تختص بشيء دون شيء، كقول القدرية، فإن القدرية يقولون: إن الله شاء الإيمان، لكن لم يشأ الكفر، إذًا ما أثبتوا المشيئة الشمولية، وهذا يعني أن الله إذا شاء للكافر الإسلام لا يتأتى، لماذا ؟ لأن قدرة الله غير كاملة وغير شمولية، وهذا يعني أن العباد يشاؤن مالا يشاء الله، ويريدون ما لا يريد الله، ويقدرون على ما لا يقدر عليه الله.

والقدرية يصرحون في كتبهم ومؤلفاتهم بأن مشيئة الله غير شاملة للكفر، وقدرة الله غير شاملة. والسبب في ذلك أن القدرية كانوا امتدادًا وبقية لأهل البدع من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة، وإن كانت هذه البدع متفاوتة في الضلال، متفاوتة في المنطلقات متفاوتة في الأهداف والغايات، إلا أن هؤلاء يحكمون العقل ويقدمونه على النقل، فكان هذا أعظم سبب في ضلالهم، وأعظم انحراف في فهومهم، وفي نفس الوقت لو كانت هذه العقول سليمة من الشوائب لكانت مدركة بأن قدرة الله كاملة، وقدرة الله شاملة، ومشيئة الله نافذة في كل شيء، ولم يحصل بذلك تناقض في فهومهم ولا عقولهم، قال الله – جل وعلا – ﴿**لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ ﴿**شَيْءٍ**﴾ نكرة، والنكرة في سياق النهي والنفي تفيد العموم باتفاق الأصوليين.

واختلف الأصوليون في النكرة في سياق الإثبات، والصواب أنها قد تفيد العموم، ﴿**لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ**

عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ ولا يكون قاهرًا حتى يكون قادرًا، وقال تعالى:﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وهذا لإثبات الأفعال الاختيارية، والقدرية مضطربون في هذا الباب، شأنهم في ذلك شأن الجهمية والمعتزلة والأشاعرة، فإن هؤلاء مضطربون في باب إثبات الأفعال الاختيارية لله، ولذلك ينكرون الاستواء، ينكرون العلو، ينكرون النزول، تبعاً لإنكار الأفعال الاختيارية لله.

ولذلك من اللوازم التي يُلزم بها الأشاعرة باعتبارهم أقرب الطوائف إلى أهل السنة– إذا كانوا ينكرون الأفعال الاختيارية– يُلزمون بإنكار القدرة، والأشاعرة لا ينكرون القدرة، الأشاعرة يثبتون القدرة، والذي ينكر الأفعال الاختيارية يلزمه أن ينكر قدرة الله، لأن من أثبت أن الله على كل شيء قدير لزمه أن يكون الله فاعلا مشيئاً قادرًا باختياره على كل شيء، وهذا دليل واضح جلي على أن هؤلاء في تحكيم عقولهم مضطربون، ولذلك يأتون بالأشياء في موضع تناقض أشياء في موضع آخر.

قوله في التفسير:الدرجة الثانية، فهي مشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة، وهو الإيمان بأن ما شاء الله كان:

أي ما شاءه الله لابد أن يكون، لابد أن يقع، لأن الله لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجاً، قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

قوله:وما لم يشأ لم يكن:

أي الذي لايريده الله لا يقع، ولا ينفذ، لأن الله – جل وعلا – ما أراد، وقال النبي – صلى الله عليه وسلم – لابن عباس: ((**وما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، رفعت الأقلام وجفت الصحف**)).

قوله:وأنه ما في السماوات وما في الأرض من حركة ولا سكون إلا بمشيئة الله سبحانه:

وهذا ينازع فيه القدرية، ولا يرون الشمولية في قدرة الله ولا مشيئته، وهذا بلا ريب تكذيب لكلام الله، تكذيب لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – وخرق للإجماعات القطعية في هذا الباب، ومكابرة في المنقولات، ومنازعة في المعقولات، ولذلك كان السلف يضللون هؤلاء ويبدعونهم، ويرونهم خارجين عن مذاهب أهل السنة والجماعة، واقعين في البدع والضلالات.

وذهب بعض أئمة السلف إلى تكفير هؤلاء، كتكفير أصحاب الدرجة الأولى الذين ينكرون علم الله واطلاعه على الكليات والجزئيات، وينكرون أن الله يكون عالما بالسر قبل وقوعه. ولذلك يقول الشافعي – رحمه الله تعالى: ناظروهم بالعلم، فإن أقروا به قُصموا، لأن ما جحدوه حجة على ما أثبتوه، وإن جحدوا كفروا، والحديث في هذا الباب- في تكفير هؤلاء- حديث عن النوع، لأن هؤلاء مراتب، وهؤلاء لهم شُبَه فيما يتحدثون عنه، والباعث لهم في هذا هو التقرب لله، لم يكن عن بغض للإسلام، أو محاربة لما في كتاب الله وفي سنة رسوله – صلى الله عليه وسلم.

وأهل السنة متفقون على إثبات مشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وما من حركة ولا سكون في الأرض إلا بمشيئة الله – جل وعلا – فلا يكون في ملكه ما لا يريد، وأنه – سبحانه – على كل شيء قدير من الموجودات والمعدومات.

فمن الموجودات خلق السماء والأرض وما بينهما، خلق الإنسان وما في جوفه، والبحار وما في أعماقها وغير ذلك.

ومن المعدومات التي سوف تكون، أو أخبر الله عن وقوعها في المستقبل، أو غير ذلك، لا يخرج شيء عن قدرة الله – جل وعلا.

وهذا من كمال عظمته وقدرته على كل شيء، فمن ظن أن الله يقدر على شيء دون شيء فهذا ضال منحرف، وقد حكى شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى – في الفتاوى في المجلد الثالث على الحديث الوارد في الصحيحين في الرجل الذي قال: ((**إذا أنا مت فذروني**)) قال شيخ الإسلام: "فهذا أنكر قدرة الله، وهذا قد يكون كفرًا بالإجماع"، يقول: وهذا كفر بالإجماع.

الشاهد أنه من أنكر قدرة الله فإنه كافر بالإجماع، ولكن الله عذره،لأنه ظن أن الله – جل وعلا – لا يقدر على جمعه إذا تفرق، وإذا قدر على جمعه فسوف يعذبه.

كما قال عقب ذلك:والحريص من أهل العلم والاجتهاد أولى بالعذر من هذا الرجل .

قوله:فما من مخلوق في الأرض ولا في السماء إلا الله خالقه:

وهذا رد على القدرية، لأنهم ينازعون في مسألة الخلق، وهم مضطربون في هذا الباب، فلا يثبتون على قدم واضحة.

لا يختلف أهل السنة في أن الله خلق العباد وخلق أفعالهم وخلق مشيئتهم وخلق قدراتهم وخلق كل

شـيء فيهم، وهذا نص القرآن، ونص السـنة، وأن الله جل وعلا – خلق الخير وخلق الشـر، لا خالق غيره. ولا رب سـواه، قال تعالى:﴿**اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ**﴾ لا يخرج شـيء عن خلق الله. ومع ذلك فقد أمر العباد بطاعته وطاعة رسـله، بمعنى أنهم فيهم إرادات، لا كما تقول طائفة من القدرية بأن العباد مجبورون، أو طائفة أخرى يقولون بأن العبد يخلق فعل نفسه، فانشـق عن القدرية الجبرية، يقولون بأن العبد لا قدرة له بمنزلة الشـجرة، تصـرفها الرياح كما تشـاء، لا قدرة له ولا مشـيئة له ولا حركة له ولا سكون له، هو يُتَصَرَّفُ فيه بدون اختيار.

طائفة أخرى يردون على هؤلاء يقولون: لا، العبد له كل شـيء، حتى إنه يخلق فعل نفسـه، وأهل السـنة لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، يقولون بأن العبد له مشـيئة وله إرادة وله قدرة، ولكن مشـيئته تابعة لمشيئة الله، هذا نص القرآن:﴿**وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾، وقال تعالى:﴿**وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ**﴾، قال غير واحد من المفسرين: أي بينا له طريق الخير وطريق الشر، فالله – جل وعلا – أتاه سمعاً وبصرا ووهبه عقلا يفكر، وهداه، بمعنى بيَّن له طريق الخير وطريق الشر، فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها.

وهذا دليل أن له إرادة وله قدرة وله تصـرفًا، فهو حين يبحث عن الضـلال، وعن الشـهوات، والولوج في المحرمات، هو في نفس الوقت يبتعد عن الوقوع من الأماكن الشـاهقة، وعن قتل النفس، وعن الجوع، ويتقي الجوع بالطعام، ويتقي الشـتاء بالملابس، فهو الذي يؤدي هذه الأمور تحت غطاء القدرة والعقل والفهم، فهو بهذا حجة على فعله وممارسـته للمعاصـي تحت غطاء أن هذا بقدر، فلماذا لا يكون الأول بقدر ؟ ولماذا صار الثاني بقدر:

عند مراد الله تفنى كمـيِّتٍ		**وعند مراد النفس تُسـدي وتلحمُ**
وعند خلاف الأمر تحتج بالقضا		**ظهيراً على الرحمن بالجبر تزعمُ**

قوله:فقد أمر العباد بطاعته:

وفي هذا أمور:

– **الأمر الأول**: فيه إثبات صفة الكلام لله – جل وعلا، لأن الأمر دليل أنه هو المتكلم:﴿**أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ**﴾.

– **الأمر الثاني**: فيه أن العمل سبب لدخول الجنة.

– **الأمر الثالث**: أن الأعمال داخلة في مسمى الإيمان.

– **الأمر الرابع**: حينما أمرهم الله بالطاعات ونهاهم عن المعاصي دليل أن لهم إرادة ومشيئة، ففي هذا الرد على القدرية والرد على الجبرية.

وأهل السنة يكرهون القول بأن الله "أجبر" العباد، ويتحدثون ويقولون: " جبل". ولا يقولون: " جبر". أو: "لم يجبر". وحين تنازع اثنان عند الأوزاعي، الأول: سني، والثاني: مبتدع، فحين قال المبتدع: إن الله جبر العباد، رد عليه السني بأن الله لم يجبر العباد. فقال له الأوزاعي: ما أردت إلا أن خرجت من بدعة ووقعت في بدعة، وأقر ذلك الإمام أحمد – رحمه الله تعالى.

وقوله: طاعة رسله:

فيه إثبات النبوات وإثبات الرسالات ذات الأمر، ذات النهي، ذات القدرة، ذات المشيئة، فيه الرد على القدرية والرد على الجبرية.

قوله:ونهاهم عن معصيته:

لأنه لابد أن يؤدي الأوامر، وينتهي عن النواهي، وجاء في صحيح البخاري حديث فليح عن هلال بن علي عن عطاء عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: ((**كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى**)). قالوا: يا رسول الله، ومن يأبى ؟ قال:((**من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى**)).

والعصيان نوعان: إما بفعل الحرام، أو بترك الواجبات، ولذلك الفعل عند أهل السنة يطلق على الأداء ويطلق على الترك، فأهل السنة حينما يقولون على الإيمان بأنه قول وعمل: ليس معنى العمل أن تؤدي فقط، هو أيضا بمعنى أن تترك، ولذلك أهل السنة يقولون: إن الترك قد يكون كفرًا. كترك الصلاة بالكلية مثلا، إذًا العمل عند أهل السنة نوعان: أما تجاوب وإما ترك.

ومن الردود على القدرية في هذا الباب أن العبد لو كان يخلق فعل نفسه لما كان عليه حساب ولا عقاب في ذلك.

ومن ذلك أنهم في هذه الحالة يثبتون خالقا مع الله، ومن ذلك أيضا الغلو في المخلوق ورفعه فوق منزلته، ويأتي إن شاء الله غدا الحديث عن كون القدرية مجوس هذه الأمة، ووجه المشابهة، وإيراد الآثار الواردة في هذا الباب، وبعض ذلك تقدم الإشارة إليه بالأمس، أن هذا لم يرد فيه شيء مرفوعاً عن النبي

صلى الله عليه وسلم ولكن ثبت ذلك عن جمع من الصحابة – رضي الله عنهم.

قوله:وهو سبحانه يحب المتقين:

فيه إثبات صفة المحبة لله: قال تعالى:﴿**يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**﴾ والله – جلا وعلا – حين يحب أهل الطاعات يبغض أهل المعاصي، ففيه إثبات الإرادة لله – جل وعلا – وفيه إثبات كمال القدرة لله – جل وعلا – وفيه إثبات شمول المشيئة لله – جلا وعلا.

قوله:يحب المتقين:

أجمع ما قيل في التقوى: فعل المأمور واجتناب المحظور.

قوله:المحسنين:

والإحسان أخص من التقوى، فهو يشمل التقوى وزيادة، والمقصود بالإحسان في هذا الموضع في كل شيء: ولذلك قال الله –جل وعلا:﴿**وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾ أي في أقوالهم وأفعالهم واعتقاداتهم وأخلاقهم وتصرفاتهم.

وأما الإحسان فهو أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

قوله:المقسطين:

والمقسط غير القاسط، فالقاسط هو الجائر، قوله – جل وعلا: - ﴿**وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا**﴾ وأما المقسط فهو العادل، المقصود بالمقسطين هي: (العادلين) في أقوالهم وأفعالهم وتصرفاتهم، فإن هؤلاء يحبهم الله – جل وعلا – ولذلك لا يختلف العلماء في أن الله يحب العدل، وأنه اتفقت عليه الشرائع كلها، والناس كلهم مؤمنهم وكافرهم وإنسهم وجنهم يحبون العدل، ويكرهون الظلم، ولذلك حرم الله – جل وعلا – الظلم على نفسه، قال: ((**وجعلته بينكم محرماً**))، ولكن يجب أن نفهم الظلم بكل صورة وبكل معانيه، من الغيبة والنميمة والبهت والتقصير في حق الله – جل وعلا – والتقصير في حق النفس وأذيه العباد، ومن ذلك التجاوز إلى فعل الحرام، هذا يعتبر ظلمًا، يظلم العبد نفسه بفعل الحرام، من حلق اللحى، وإسبال الأُزر، ومن النمص والنامصة، ومن أكل الربا، وغير ذلك مما حرم الله – جل وعلا – هذا كله من الظلم.

قوله:ويرضى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات:

فيه إثبات صفة الرضا لله – جل وعلا – قال تعالى: ﴿**رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ**﴾ وقال تعالى: ﴿**وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ**﴾ وقال النبي – صلى الله عليه وسلم: ((**إن الله يرضى لكم**)) والأدلة في هذا عن النبي – صلى الله عليه وسلم – متواترة، الأشاعرة يتحدثون عن ذلك، ويقولون: إن الرضا علامة للقبول. وهذا عند أهل السنة من لوازم الرضا، وليس هو معنى الرضا، وأهل السنة يثبتون الصفة، ثم يذكرون لوازمها.

ويؤخذ من قوله إن الله – جل وعلا – يحب المتقين ويرضى عن الذين آمنوا. إثبات القدرة وإثبات المشيئة الكاملة وإثبات العدل، لأن الله قال: ولا يحب الكافرين. وقال تعالى:﴿**أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ**﴾ وقال تعالى: ﴿**وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ**﴾ ولكن ماذا قال: ﴿**وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ**﴾ فالذي يحب الطاعات يكره ويبغض المعاصي.

قوله:ولا يرضى عن القوم الفاسقين:

الفسق نوعان: فسق مخرج من الملة، وفسق غير مخرج من الملة، كلاهما جاء في القرآن، أما ما جاء في القرآن من الفسق المخرج من الملة فكقوله – جل وعلا:﴿**أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا**﴾، الفسق هنا فيه اتفاق أنه مخرج من الملة، وأما الفسق الذي لا يخرج من الملة فكقول الله – جل وعلا: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ**﴾، الفسق هنا لا يخرج من الملة.

وقوله:ولا يحب الفساد:

ولا يخرج ذلك عن كونه مخلوقاً لله، ليس معنى ذلك أن الله إذا كان لا يحبه أن الله ما خلقه، الله خلق الخير وخلق الشر، وهذا هو اللبس عند القدرية، يقولون: إذا كان الله لا يحب الفساد فكيف يخلقه؟ إذا لم يكن الله – جل وعلا – خالقًا له فمن الخالق ؟ إذًا لابد أن يوجد خالق آخر و إثبات إله آخر:﴿**مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ**﴾، سماه الله شركًا، فمن جعل مع الله إلها آخر فإنه قد أشرك بالله، ولذلك قال الله – جل وعلا –:﴿**قَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ * اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾.

خلق أفعال العباد

وَالْعِبَادُ فَاعِلُونَ حَقِيقَةً، وَاللهُ خَلَقَ أَفْعَالَهُم. وَالْعَبْدُ هُوَ: الْمُؤْمِنُ، وَالْكَافِرُ، وَالْبَرُّ، وَالْفَاجِرُ، وَالْمُصَلِّي، وَالصَّائِمُ. وِلِلْعِبَادِ قُدْرَةٌ عَلَى أَعْمَالِهِمْ، وَلَهُمْ إِرَادَةٌ، وَاللهُ خَالِقُهُمْ وَقُدْرَتَهُمْ وَإِرَادَتَهُمْ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى:﴿لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير: ٢٨]. ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلاَّ أَن يَشَاء اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]. وَهَذِهِ الدَّرَجَةُ مِنَ الْقَدَرِيُكَذِّبُ بِهَا عَامَّةُ الْقَدَرِيَّةِ الَّذِينَ سَمَّاهُمُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم:((مَجُوسِ هَذِهِ الأُمَّةِ))، وَيَغْلُو فِيهَا قَومٌ مِنْ أَهْلِ الإِثْبَاتِ، حَتَّى سَلَبُوا الْعَبْدَ قُدْرَتَهُ وَاخْتِيَارَهُ، وَيُخرِجُونَ عَنْ أَفْعَالِ اللهِ وَأَحْكَامِهِ حُكْمَهَا وَمَصَالِحَهَا.

الشرح

إن العقل السليم يوافق النقل الصحيح، وقد دل النقل الصحيح على أن الله – جل وعلا – خلق العباد وخلق أفعالهم وقدرتهم وإرادتهم، وأن للعبد مشيئة، وهذه المشيئة تابعة لمشيئة الله تعالى.

قال رحمه الله تعالى:والعباد فاعلون حقيقة:

هذا رد على الجبرية، حيث ينفون عن العبد قدرته ومشيئته، ويقولون بأنه مجبور على كل شيء، وأن حركات العبد بمنزلة حركات الشجر والجمادات وغيرها، وأنه لا قدرة له على دفع هذه التصرفات ولا هذه الأفعال، ولذلك يجعلون فعل العبد مراداً لمشيئة الله وقدرته، فما يقول به العبد من خير أو من شر هو محبوب لله، لأن هذا محض مشيئة الله. وهذا ضلال، وهو قول المشركين:﴿**لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ**﴾.

قوله:وخالق أفعالهم:

فالعباد لهم قدرة ولهم مشيئة، والله خالقهم وخالق أفعالهم، فهذا رد على القدرية الذين يقولون بأن العبد يخلق فعل نفسه، فالجبرية منشقون من القدرية، إلا أن القدرية لم يقولوا بجُرم الجبرية، فجُرم الجبرية أغلظ وأعظم من جُرم القدرية.

وتقدم أن القدرية نوعان:

– **النوع الأول**: الذين ينكرون علم الله، ويقولون عن علم الله، أو عن الله – جل وعلا- أنه لا يعلم الأشياء إلا حين وقوعها. وهؤلاء كفّرهم الإمام الشافعي وأحمد – عليهما رحمة الله – لأن هذا يقتضي وصف الله بالجهل، ويقتضي عدم إحاطة علم الله بكل شيء، ويقتضي عجز الله، ويقتضي

عدم قدرة الله، وفيه من الضلالات والانحرافات الشيء الكثير.

النوع الثاني– من القدرية وهم مراتب أيضاً-: منهم من يقول أن العبد يخلق فعل نفسه، ومنهم من يقول بأن الخير من الله والشر من غيره. وهم مراتب متعددون؛ لأن البدعة لا تثبت على شيء، فيترقى صاحبها على حسب هواه. والاثنان طائفة من طوائف أهل البدع، سواء البدع المنتسبة للإسلام أو البدع الأخرى، وليس لهم جميعًا أصول يرجعون إليها، ويتحاكمون إليها، فهم مضطربون ومتناقضون ولا يثبتون على شيء.

وما من بدعة إلا وتنقض الأخرى وتلعنها، فأوائل بدعهم تنقض أواخرها، وأواخر بدعهم تلعن أوائلها، قال الله – تعالى – عن هؤلاء القوم:﴿**وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا**﴾ قال بعض السلف في تفسير هذه الآية: ما يأتي صاحب بدعة بباطل إلا وفي القرآن ما ينقضه ويبطله، قال الله – جل وعلا:﴿**وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ**﴾.

اختلف المفسرون في معنى قول الله – جل وعلا- ﴿**وَمَا تَعْمَلُونَ**﴾، فقوله:﴿**وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ**﴾ فيه إثبات صفة الخلق لله – جل وعلا – وأن العباد مخلوقون لله – جل وعلا.

﴿**وَمَا تَعْمَلُونَ**﴾ قال أكثر المفسرين: إن «ما» بمعنى الذي، والعائد محذوف تقديره: والله خلقكم والذي تعملونه. وهذا الذي نصره شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره من المحققين.

القول الثاني: قال الحافظ ابن كثير: إن الآية تحتمل أحد معنيين: أن تكن «ما»بمعنى الذي، أو تكون «ما» مصدرية فيكون معنى الآية: والله خلقكم وعملكم. والأول – المعنى الأول- أعم والثاني ليس بباطل كناحية شرعية، هو معنى مستقيم، لكن الأول أعم، فهذه الآية رد على القدرية الذين يجعلون من العبد خالقاً، ومن المخلوق خالقاً، فإنهم يجعلون للخير خالقا وللشر خالقا، ومن هذا الباب كانوا ألصق وأشبه الناس بالمجوس.

قوله:والعبد هو المؤمن والكافر:

لقول الله – جل وعلا-:﴿**إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آَتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا**﴾ وأطلقت العبودية في القرآن على معنيين:

– **المعنى الأول**: المعنى العام المقتضي لدخول البر والفاجر، المسلم والكافر، المطيع والعاصي. من ذلك قوله – جل وعلا – ﴿**إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آَتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا**﴾.

– **المعنى الثاني**: إطلاق العبد على المطيع وعلى البر وعلى الخيّر وعلى الصالح وعلى المسلم، بمعنى العبودية لله، وصرف خالص حق الله له، لا يصرفه لغيره، ولذلك نادى الله – جل وعلا – نبيه بمقام العبودية، قال تعالى:﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ**﴾ والعبد هنا من العبودية بمعنى أنه عبدٌ الله، مطيع لله، منقاد لله.

ويطلق العبد في القرآن على الرقيق المملوك الذي يباع ويشتري، ولا علاقة للَّون بذلك، من ذلك قوله – جل وعلا: ﴿**وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ**﴾.

وأراد الشيخ – رحمه الله تعالى – بقوله والعبد هو المؤمن والكافر والبر والفاجر والمصلي والصائم – الرد على القدرية، لأن العبد لو كان يخلق فعل نفسه جعل من نفسه خيِّرًا صالحاً تقيًا، والرد على الجبرية في نفس الوقت الذين يقولون عن العبد بأنه مجبور على كل شيء، فبالتالي لا يحاسبه الله على شيء، لأنه لا قدرة له على العمل، فكيف يحاسبه الله على ما لا قدرة له فيه ؟ ! هذا رد عليهم.

قوله:وللعباد قدرة على أعمالهم:

ولا يختلف في ذلك أهل السنة، لقوله صلى الله عليه وسلم:((**اعملوا، فكل ميسر لما خلق له**)) فلو لم يكن للعبد قدرة على العمل لم يأمر الله بالعمل، ولم يأمر الرسول بالعمل، إذ هذا تكليف بما لا يطاق.

وأمر آخر: عزل الأعمال عن العباد يقتضي إبطال الرسالات كلها، ويقتضي إبطال الشرائع بالكلية، ويقتضي أنه لا ضرورة للكتاب ولا للسنة، إذ نحن تخلق فينا الطاعات والخير والشر، فلسنا بحاجة إلى أحد يدعونا لأنه لا قدرة لنا، إذًا فما الفائدة من خطابنا، كيف تخاطب أقوامًا لا حاجة لهم في ذلك، هذا يعني إبطال الرسالات بأسرها، وأنه لا ثمرة من دعوة الرسل ولا من الكتاب ولا من السنة.

وهذا يفيد أيضا أن أهل البدع في أمر مريج، ما عندهم حتى العقول، دائما ينادون بالعقول، دائما ينادي بالعقل والحكمة ونحو ذلك، وتجده أقل الناس عقلًا وحكمةً، ولكنه يجعل من المناداة بالعقل والحكمة غطاء لتعمية بدعته وضلاله وانحرافه، فهم يرون أنفسهم أصحاب العقل، وهم أصحاب الجهل، وهم المبرسمون، لأنه لو كان عندهم شيء من العقول ما قالوا هذه الأقوال السمجة المخالفة للكتاب وللسنة ولإجماع الرسل وللعقول الصحيحة.

أمر آخر الذي اتفق عليه الأنبياء والمرسلون وأتباعهم إلى يوم الدين، أن العقل السليم لا يخالف

العقل الصحيح أبدا، لأن الفطر تتجاوب مع الحق تلقائيا، بدليل قوله – صلى الله عليه وسلم: ((**كل مولود يولد على الفطرة**)). ولذلك حكى ابن القيم وغيره الاتفاق على أن التوحيد معروف بالفطرة كما هو معروف بالشرع، وأن الناس لو تركوا وشأنهم بدون أناس يلبسون عليهم لعبدوا الله تلقائيا، بدليل قوله – صلى الله عليه وسلم: ((**كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**)) هنا يأتي دور علماء السوء ودعاة الشر كما قال – صلى الله عليه وسلم: ((**دعاة على أبواب جهنم**)).

وأن الناس كما يقول ابن القيم: لو تركوا وشأنهم لما وجد عندهم شرك، لأنهم بالفطرة يدركون قبح الشرك، فالتوحيد تتجاوب معه الفطر، والشرك تتجاوب الفطر مع ذمة وتهجين فاعله، إذ كيف يعبد حجرا لا ينفع ولا يضر، كيف يعبد آدمياً لا يستطيع أن ينفع نفسه؟!

وقال ابن القيم – رحمة الله تعالى: "كما أن التوحيد معروف بالفطرة، الشرك قبيح بالفطرة "، وبعثت الرسل في هذا الباب مبشرين ومنذرين كما هو نص سورة الأحزاب:﴿**إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا * وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا * وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا**﴾.

قوله:ولهم إرادة:

وهذا تابع لأمرهم بالأعمال، فلو لم يكن لهم إرادة لم يكن لأمرهم معنى. ولذلك أثبت الله – جل وعلا – لهم المشيئة، كما قال تعالى:﴿**لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ**﴾ أثبت الله لهم مشيئة، ﴿**وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ**﴾ لكن جعل الله مشيئتهم تابعة لمشيئة الله، فهم ومشيئتهم مخلوقون لله، فهذه الآية فيها رد على الجبرية، ورد على القدرية، القدرية يقولون أن العبد يخلق فعل نفسه من القدرة والمشيئة والإرادة. وهذا ضلال، لو كان يخلق إرادة نفسه لم تكن مشيئته تابعة لمشيئة أحد، ولو كان العبد يستقل بالمشيئة لم يكن لأمره معنى، ولو كان العبد ليس له مشيئة أصلاً، وكانت حركاته وسكناته وأفعاله وإرادته كحركة الأشجار ونحو ذلك لم يكن لأمره ولا لنهيه معنى، ولكانت طاعته عصيانه سيّان.

قوله:﴿**وَمَا تَشَاءُونَ**﴾:

إثبات أيضا للمشيئة، ﴿**إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾ مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله: يؤخذ من هذه الآية إثبات توحيد الإلهية والربوبية والأسماء والصفات، آية واحدة فيها توحيد الإلهية والربوبية والأسماء والصفات.

قوله:وهذه الدرجة:

من القدر يكذب بها عامة القدرية – أي المتأخرون منهم، لأن صفة العلم كما تقدم في قول شيخ الإسلام – رحمه الله تعالى –" ومنكروه اليوم قليل"، كما قال: " وهذا التقدير التابع لعلمه قد كان ينكره غلاة القدرية قديماً، ومنكروه اليوم قليل"، بخلاف هذا النوع من أنواع القدر فإن منكروه اليوم كثير.

قوله:الذين سماهم النبي صلى الله عليه وسلم مجوس هذه الأمة:

ذكر – رحمه الله – في رده على الرافضة في المنهاج أنه لا يصح إنكار شيء مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم، معنى هذا أنه جزم بنسبة ذلك إلى النبي – صلى الله عليه وسلم، والصواب الذي عليه أكابر المحدثين أنه لم يثبت عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه سمى القدرية مجوس هذه الأمة، وأن هذا ثابت عن الصحابة، كجابر وحذيفة وابن عمر وآخرين – رضي الله عنهم، هؤلاء يقولون عن القدرية: مجوس هذه الأمة.

المجوس يقولون: إن للعالم خالقين: خالق نور، وخالق ظلمة، وهم يتفقون أن خالق النور أعظم من خالق الظلمة، القدرية يشبهون المجوس في أنهم يقولون: إن الله خلق الخير، ولم يخلق الشر، فمن هذا الوجه يشابهون القدرية في جعل خالق مع الله،﴿**مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾.

قوله:ويغلوا فيها قوم من أهل الإثبات:

الذين هم الجبرية، الذين هم فرع عن القدرية، إلا أن الجبرية في هذا الباب أغلظ بدعة وأضل سبيلا من القدرية.

وهم متناقضون في هذا الباب، حيث إنهم يسلبون العبد قدرته وإرادته ويجعلونه في نفس الوقت مأمورا ومنهياً، إلا أنهم في نفس الوقت يرون أن الله – جل وعلا – لا يجازيه على سيئاته، لأنه لا حركة له في ذلك، فهم في الحقيقة يقولون بإنكار الحساب والجزاء والبعث وهذا في الحقيقة مطية إذًا لعذر الكفار، وهذا تكذيب للقرآن في كون فرعون في النار، فكيف يعذبه الله بالنار وليس له إرادة وليس له قدرة ؟ ! فكفى بهذا القول قبحاً أن يكون فرعون وأبو لهب وأبو جهل وأعداء الرسالات، أن يكونوا معذورين، فلذلك هذا القول مكابرة للمنقول، ومخالفة للمعقول.

قوله:ويخرجون عن أفعال الله وأحكامه، حِكَمها ومصالحها:

كقول الجهمية، لأن الجبرية يلتقون في النهاية مع الجهمية، لأن الجهمية ينكرون الحِكَم والمصالح في أفعال الله ويقولون أن الله يخلق لغير حكمة، ويفعل لغير حكمة، ولذلك ذكر عن جهم بن صفوان أنه كان يمرّ بالمجزومين وأمثالهم ويقول عنهم: أهذا فعل أرحم الراحمين ؟! والجهم بن صفوان هو الذي تنتسب إليه بدعة الجهمية، وسبقه إلى ذلك الجعد بن درهم، إلا أنه لم ينظِّر المذهب كتنظير الجهم، فنسبت البدعة إلى الجهم، لكن أصل البدعة عن الجعد بن درهم، والجعد أخذها من أبان بن سمعان، فالجهمية يخرجون عن أفعال الله وحكمه أحكامها ومصالحها، والله يقول:﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا**﴾والله يقول ﴿**أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى**﴾أي: لا يؤمر ولا ينهي ؟ ! فما من شيء من الخلق إلا وقد خلقه الله لحكمة ولغاية ولمصلحة، سواء علم العباد ذلك أم لم يعلموا، والمسلمون مطالبون بالإيمان بالله والتسليم له، سواء ظهرت لهم الحكمة أم لم تظهر لهم الحكمة.

وليس بلازم أن يعلم المسلم حكمة كل خلق، وهوغير مطالب بذلك، ولكنه مطالب بأن يعلم بأن الله لم يخلق شيئا عبثا، وأنه ما من شيء إلا ومخلوق لحكمة ولمصلحة علم ذلك من علمه وجهله من جهله.

الإيمان قول وعمل

فَصْلٌ

وَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ أَنَّ الدِّينَ وَالإِيمَانَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ. قَوْلٌ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ، وَعَمَلُ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالْجَوَارِحِ. وَأَنَّ الإِيمَانَ يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ، وَيَنْقُصُ بِالْمَعْصِيَةِ. وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ لا يُكَفِّرُونَ أَهْلَ الْقِبْلَةِ بِمُطْلَقِ الْمَعَاصِي وَالْكَبَائِرِ؛ كَمَا يَفْعَلُهُ الْخَوَارِجُ؛ بَلِ الأُخُوَّةُ الإِيمَانِيَّةُ ثَابِتَةٌ مَعَ الْمَعَاصِي؛ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة:١٧٨]، وَقَالَ:﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تبغي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات:٩]. ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات:١٠].

وَلاَ يَسْلُبُونَ الْفَاسِقَ الْمِلِّيَّ اسْمَ الإِيمَانِ بِالْكُلِّيَّةِ، وَلاَ يُخَلِّدُونَهُ فِي النَّارِ؛ كَمَا تَقُولُ الْمُعْتَزِلَةُ. بَلِ الْفَاسِقُ يَدْخُلُ فِي اسْمِ الإِيمَانِ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء:٩٢].

وَقَدْ لاَ يَدْخُلُ فِي اسْمِ الإِيمَانِ الْمُطْلَقِ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال:٢]، وَقَوْلُهُ:صلى الله عليه وسلم:((لاَ يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَنْتَهِبُ نُهْبَةً ذَاتَ شَرَفٍ يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَنْتَهِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ)). وَيَقُولُونَ: هُوَ مُؤْمِنٌ نَاقِصُ الإِيمَانِ، أَوْ مُؤْمِنٌ بِإِيمَانِهِ فَاسِقٌ بِكَبِيرَتِهِ، فَلاَ يُعْطَى الاسْمَ الْمُطْلَقَ، وَلاَ يُسْلَبُ مُطْلَقَ الاسْمِ.

الشرح

شرع يتحدث عن أصول أهل السنة والجماعة في باب الإيمان ومسماه، لأن غالب أهل البدع يضل في هذا الباب، ويترتب على ذلك ضلال آخر، أول بدعة في الإسلام وقعت هي بدعة الخوارج، ثم مضادة لهذه البدعة خرجت بدعة المرجئة، فحين ننظر لبدعة الخوارج ولبدعة المرجئة وللجهمية والمعتزلة والأشاعرة، فيم كان الغلط والضلال؟ في باب الإيمان، فبقدر ما يضل العبد في هذا الباب بقدر ما يكثر خلطه وغلطه في الأبواب الأخرى.

وليس الضلال خاصا بمن يعرِّف مسمى الإيمان، لأن المعتزلة يعرفون الإيمان بتعريف أهل السنة، والخوارج يعرفون الإيمان بتعريف أهل السنة، يقولون قول وعمل واعتقاد، فجاءهم الضلال، لأن الكلام على الضبط، تنزيل الكليات على الجزئيات، تنزيل الأصول على الفروع، القدرة على تنزيل الأدلة في

مواطن الاستدلال، فإن الخوارج حين كانوا يحتجون ويناظرون الصحابة لم يكونوا يحتجون لا بالتوراة ولا بالإنجيل، كانوا يناظرون بالقرآن، ويحتجون بالقرآن ولذلك كان السلف يقولون: إن القرآن حمَّال للوجوه، فخذوهم بالسنة، فإن السنة تفسر القرآن وتبينه وتدل عليه وتوضح ما أجمل فيه.

وحقيقة أخرى، أنه لا توجد بدعة في الإسلام إلا ويستدل أهلها بأدلة ويوردون حججًا، وهذا مذكور عن الأمم السابقة، كما قال الله – جل وعلا – عنهم: ﴿**فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ**﴾وكما قال الله – جل وعلا: ﴿**وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا**﴾.

والنجاة في هذا الباب الاعتصام بثلاثة أمور:

الأمر الأول: الكتاب على فهم السلف، فلا يستقل العبد بفهمه فتزل بقدم بعد ثبوتها.

الأمر الثاني: السنة الصحيحة الثابتة عن النبي – صلى الله عليه وسلم –بفهم الصحابة وأئمة التابعين.

الأمر الثالث: الإجماع القطعي الحقيقي.

هناك مرحلة رابعة يحتاجها العلماء وطلبة العلم: مراحل التعامل، فلا يكفي للإنسان أن ينطلق من منطلق أدلة الكتاب أو السنة حتى ينظر مراحل تعامل السلف مع هذه الأدلة في واقعهم، حتى ينظر مراحل تعامل الأئمة في الكتاب والسنة في واقعهم، وكيف يتعاملون مع الأحداث المشابهة لأحداثكم.. وهلم جرا.

قال الشيخ رحمه الله تعالى:ومن أصول أهل السنة والجماعة:

الأصل هو ما يبني عليه غيره، " أهل السنة " تقدم الحديث عن لفظ السنة، وأنه أعم مما يتحدث عنه الأصوليون بأنها ما يثاب فاعله ولا يعاقب تاركه، وهذا غير مراد طبعا في هذا الباب.

المراد بالسنة الهدي العام للنبي – صلى الله عليه وسلم – وقد يطلق على الأمور الاعتقادية، ويطلق على المنهج العام الكلي

قوله:(والجماعة) أي:المجتمعين على الحق المناصرين للحق، وليس بلازم أن تكون الكثرة على الصواب، فإن أهل الإسلام في أهل الكفر كالشعرة البيضاء في الثور الأسود، فأهل السنة في أهل البدع مثل ذلك.

وأهل السنة مراتب أيضا، ولذلك قال النبي – صلى الله عليه وسلم – عن الطائفة المنصورة:((**لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى**)) إشارة إلى قلتهم وكثرة المناوئين لمذاهبهم والمخالفين لسلوكهم وطريقتهم.

والاحتجاج بالكثرة من صنيع أهل الجهل، ولذلك كانوا يقولون عن موسى وأصحابه: ﴿ **إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ** ﴾ فكانوا يستدلون على ضلالهم بقلتهم، وهذا غير صحيح، يعرف الحق من الباطل بالكتاب والسنة على فهم الصحابة وأئمة التابعين.

لكن كيف تقنع صاحب الهوى، إن لم يكن معه أحد قال: هكذا الحق غريب في كل عصر، ثم يأتي بالأدلة الدالة على غربة الحق وقلة أهله، وإن كان معه أتباع قال: الحق أبلج والباطل لجلج، والناس يعرفون الحق ويلتزمونه.

هؤلاء يستدلون بالكثرة لصالحهم، وبالقلة لصالحهم، هذا كيف تقنعه ؟ وبالتالي فنحن بحاجة إلى معرفة الكتاب والسنة والتمسك بهما.

ثم دائما أكرر وأشير إلى أنه ليس بلازم أن من وقع في بدعة من بدع الخوارج أن يكون خارجيا، أو وقع في بدعة من بدع المرجئة أن يكون مرجئا، أو وقع في بدعة من بدع الجهمية أن يكون جهميا، أو وقع في بدعة من بدع المعتزلة أن يكون معتزليا، هذا من الخطأ الذي يعذر به صاحبه إن كان من أهل التأويل والاجتهاد، فمن كانت أصوله أصول أهل السنة ثم ضل في مسألة أو أخطأ في قضية فلا ينسب إلى أهل البدع.

ومن ينسب إلى الخوارج أو ينسب إلى المعتزلة أو إلى المرجئة أو إلى الجهمية إذا كان يأخذ بأصولهم ويقدم العقل على النقل، أو يقدم النقل ولكن على فهومهم، ولا يأخذ بدلالة الكتاب والسنة على فهم الصحابة – رضي الله عنهم، لأن هؤلاء لو كانوا يأخذون فهوم الصحابة لما حصل لهم من الضلال ما وُجد في واقعهم وفي مذاهبهم.

قوله:أن الدين والإيمان قول وعمل:

الدين يطلق، أو يشمل الإسلام والإيمان والإحسان، لأن جبريل حين أتى إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – وسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان، فماذا قال النبي صلى الله عليه وسلم لعمر؟ ((**أتاكم جبريل يعلمكم أمر دينكم**)) فكان الدين شاملا للإسلام والإيمان والإحسان، فإذا أُطلق الدين فإنه متضمن لكل هذه الأمور، وإن أُطلق الإسلام دخل في الإيمان، وإن أُطلق الإيمان دخل في الإسلام، لأنه لا يصلح الإيمان إلا بإسلام يصححه، **وإذا قرنا معا فالإسلام له تعريفان:**

الإسلام العام: الذي جاءت به كل الرسل، يعني لا تختلف الرسل فيه، وهو مشروع للناس، لأنه الإسلام العام، ليس هو الإسلام الخاص، هو الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله. هذا هو الإسلام العام الذي اتفقت عليه الرسل.

الإسلام الخاص: هو الأعمال الظاهرة المذكورة في حديث ابن عمر: بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج بيت الله الحرام.

والخبر في الصحيحين.

والإيمان يعرَّف بأنه قول وعمل، الشيخ- رحمه الله تعالى – هنا عرف الإيمان بأنه قول وعمل، قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح.

لماذا لم يقل الشيخ – رحمه الله تعالى – التعريف المشهور عن تعريف الإيمان: قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالأركان. مع أن هذا التعريف يذكره ابن تيمية في كتب أخرى؟ لماذا لم يذكره في هذا الموضوع؟ لماذا في العقيدة الواسطية قال إن الإيمان قول وعمل، قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، ولم يذكر التعريف الذي ذكره في كتب أخرى، وهو مشهور الآن عند الناس وفي مؤلفاتهم ومصنفاتهم وغير ذلك، أنه قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالأركان، لماذا ؟

لأنه مختلف فيه، نعم، ذكرت هذا في بداية الشرح، فضيلة الشيخ ابن عثيمين لا يذكره في العقيدة المجمع عليها، يعني هناك تعريفات صحيحة، تعريف الإيمان، قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان، هذه جملة صحيحة، لكنه ناقص، لأنه لم يذكره عمل القلب، لكن هنا ذكر التعريف المتفق عليه بين كل طوائف أهل السنة، قول وعمل الإيمان، الإيمان قول وعمل، قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، قول القلب هو تصديقه، أريد أن أفرق هنا بين قول القلب وعمل القلب، قول القلب هو تصديقه، وعمل القلب حبه وخوفه ورجاؤه وولاؤه وبراؤه ومحبته، وغير ذلك، هذا عمل القلب.

وقد حكى الإمام البخاري – رحمه الله تعالى – بأنه التقى بألف شيخ، كلهم يقولون: الإيمان قول وعمل، وهذا الذي ذكره في صحيحه، قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح.

الشافعي – رحمه الله تعالى – يعرف الإيمان بأنه قول وعمل ونية، ثم ماذا قال؟ ولا يجزئ واحد دون الآخر.

أهل البدع مختلفون ومضـــطربون في هذا الباب، منهم من قال: الإيمان قول واعتقاد. ومنهم من قال: الإيمان قول وعمل واعتقاد، كالخوارج والمعتزلة، ولكنهم يجعلون الكل عملًا، لا في جنس العمل، هذا الفرق بينهم وبين أهل السنة، وهذا هو السبب الخاص الآن في أن المرجئة المعاصرين يخلطون بين مســمى تعريف الخوارج وبين تعريف أهل الســنة، الخوارج يقولون، والمعتزلة يتابعونهم على هذا، أن كل عمل شر، بمعنى أنه مثلا لو زنى أو شرب الخمر أو أكل الربا –كفر وخرج عن الإسلام، أهل السنة يقولون إن جنس العمل ترك للإيمان، بمعنى أنه إن قال أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ولا يعرف ربه، هذه ما فيها كلام، أهل الســـنة يقولون: يكفر. لماذا ؟ لأنه ترك جنس العمل، ما ترك المفردات، ترك الجنس، فهذا الفرق بين الجنس وبين المفردات.

هؤلاء الموجودون الآن في عصرنا المنتسبون طبعا لأهل السنة في الجملة – سبب وقوعهم في البدع الآن والانحرافات أنهم يقولون عن الإيمان قول وعمل – مثل تعريف أهل الســـنة – ولكن يقولون الإنسان لا يكفر بالعمل دون الاعتقاد، الإيمان قول وعمل، فإذا لم يأت بالعمل صار مؤمنًا ؟ ! فلماذا صـــار للإيمان هذا التعريف ؟ إذًا التعريف غلط، ولكن الشـــافعي يقول: ولا يجزئ واحد دون الآخر، أرأيت لو أتى بالعمل دون القول – هل يسلم ؟ لا يسمى مسلمًا أصلًا، لكن من لا ينكر في يوم من الأيام: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، أفتعامله بأنه مؤمن ؟ هناك فرق بين هذا وهذا.

فهذا كما قلت لكم أنه من أصول الضلال الموجودة في هذا العصر، طوائف كثيرة ينتسبون إلى أهل السنة وهم جهمية طبعا في باب الإيمان، وإن كانوا منتسبين لأهل السنة، لأنهم يقولون عن الإيمان بأنه قول وعمل، قول القلب باللسان وعمل القلب باللسان والجوارح، ولكن يقولون أن من ترك عملًا لا يكفر، ولا يخرج من الملة.

وذكر الإمام أحمد في مسائل الخلاّل: سئل عمن قال هذا القول فكفَّره، كما في مسائل الخلال، فإذًا الإيمان قول وعمل، قول القلب واللســـان وعمل القلب واللســـان والجوارح، (أل) للجنس، ليس الفرد، لأني لا أبغي الخلط بين الفرد وبين الجنس، أهل السنة متفقون على أن من زنا أو سرق أو شرب الخمر أو أكل الربا – أنه لا يكفَّر، هذا محل إجماع، ما لم يســتحل ذلك، ولكن إذا أتى بقول أو فعل ينافي أصل الإيمان فهذا له حكم آخر.

فالذنوب مرتبتان:

١–ذنب ينافي كمال الإيمان.

٢– وذنب ينافي أصل الإيمان: كالشرك وكَسَبِّ الله أو سب رسول الله سباً صريحًا – عياذا بالله

من ذلك، هذه الذنوب تنافي أصل الإيمان، فالذي لا ينافي أصل الإيمان يبقى في دائرة الإسلام.

قوله:وأن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية:

هذا لا يختلف فيه أهل السنة، أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، إذا ذكر الله زاد الإيمان، وإذا عصى الله نقص إيمانه.

الخلاف بين أهل السنة والخوارج، الخوارج يقولون: إذا ذهب بعض الإيمان ذهب كله. والمرجئة يقولون: لا يضر مع الإيمان ذنب. أهل السنة وسط بين المرجئة وبين الخوارج، المرجئة يقولون: لا يضر مع الإيمان ذنب. من زنى أو سرق لا يتأثر إيمانه، وإيمان أبسط الناس كإيمان جبريل وميكائيل، الخوارج بعكس هؤلاء، يقولون: إن ذهب بعض الإيمان ذهب الإيمان كله، من مات وهو يشرب الخمر – هذا يخلد في النار، ولا يترحمون عليه، وهذا ضلال:﴿**مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ**﴾ فعرف أن ما دون الشرك يجوز الاستغفار له، وهذا محل إجماع، والأدلة على هذا قطعية واضحة البيان نمر عليها إن شاء الله تعالى بعد قليل.

وهذا الضلال تابع لضلالهم في مسمى الإيمان، الجهمية يقولون عن الإيمان بأنه معرفة، هذا قول القدرية، الأشاعرة يقولون عن الإيمان بأنه تصديق، المرجئة مراتب في هذا الباب، منهم غلاة وهم الجهمية، ومنهم من يقول: الإيمان قول واعتقاد، المعتزلة يقولون عن الإيمان: قول وعمل واعتقاد. و هذا قول الخوارج، ولكنهم يجعلون كل عمل شرطا للإيمان، أهل السنة يجعلون جنس العمل شرطا للإيمان.

بقي الحديث عمن يسمون بمرجئة الفقهاء، وهم أهل الرأي الذين يعرفون الإيمان بأنه قول واعتقاد، طبعا هذا القول مبتدع؛ لأنه لا يتفق مع تعريف أهل السنة المذكور في الكتاب والسنة، لكن يعذر عمن قال بهذا القول كأبي حنيفة رحمه الله في أنه يقصد بالاعتقاد الذي تنبعث منه أعمال الجوارح، إن قال قائل لم تعبرون بهذا التعبير؟

الجواب: لأن الثابت في مذهب أبي حنيفة أنه يؤثم أصحاب الذنوب والمعاصي، إذًا لا يقول بأنه لا يضر مع الإيمان ذنب، أبو حنيفة يصرح بأن شارب الخمر فاسق، لو كان لا يضر مع الإيمان ذنب ما فسق، فعلم أنه يقصد بالاعتقاد الذي تنبعث منه أعمال الجوارح، وفي نفس الوقت أهل السنة يخطئونه في هذا التعريف، ولكن يعذرون له ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً.

حسن الظن بما عرف منهجه وطريقته وشهدت له الأمة بالخير، هذا مطلب من مطالب الشريعة، ولا يضر أن تعتذر عن العالم، لأنه لا يهم أن نوقع العالم أو طالب العلم بخطأ، أو أن نصعد على أكتاف بعض، بعض الناس يحب أن يُخَطِّئ ليظهر نفسه، وهذا غلط، ويجب أن يضع كل شخص

فريسة لبذاءات لسانه، أو سوء طويَّته أو غير ذلك، هذا غلط، فما دام هناك سبيل للتعذير عن أهل السنة أو العلماء الذين أجمعت الأمة على هدايتهم ودرايتهم وصدقهم، فهذا هو المطلب، فحينئذ نعذر عن هؤلاء بأنهم يقولون: الإيمان قول وعمل، ولكن اللفظ مبتدع، ولكن نقول أنه لا يخرجون العمل عن مسمى الإيمان من كل وجه، بدليل أنهم يؤثمون من فعل ذنبا أو ارتكب كبيرة، فكان هذا دليلا أنهم يقصدون بقول القلب وعمل القلب الذي تنبعث منه أعمال الجوارح.

وهذا الذي قاله أيضا بعض من الأئمة والعلماء في هذا الباب، ولذلك يسميهم ابن تيمية رحمه الله تعالى مرجئة الفقهاء، وإن كان بعض العلماء يختلف مع ابن تيمية في هذه التسمية، ولكن قلت لكم: التعذير مطلب، فهذا منهج عام، سواء كان في المتقدمين أو المتأخرين، من عُلم صدقة وعُلم مذهبه وكان من أهل السنة وأتى بعبارة موهمة، فمن سلمت طويته وحسن قصده وعُلم إخلاصه حمل العبارة على ما يتوافق مع مذاهب أهل السنة، ولا حرج أن يقول إن كان يعني بهذا اللفظ كذا وكذا فالجواب كذا وكذا، وإن كان يعني بهذا اللفظ كذا وكذا فالجواب كذا وكذا، يعني هذا جيد، وإن كان يقول: لأنه يقصد كذا وكذا مباشرة لتوضيح أن الكلام الآخر يخل بما هو ظاهر من لفظة أو كلامه.

ولذلك روي عن عمر – وهو قول ابن سيرين وجماعة:(لا تظن بكلمة خرجت من أخيك المسلم شرا، وأنت تجد لها في الخير محملا)، فإذا وُجد محمل للكلمة فهذا مطلوب، ما وُجد محمل يُبَيَّنُ أيضا بأدب واحترام للآخرين، من ينتقد الآخرين لا يستطيع أن يفرق الآن في كل شيء، في كل أموره، إذا هجر سوَّى المسلم بالكافر، وإذا غضب سوى السني بالمبتدع، ينبغي أن نفرق بين هؤلاء وهؤلاء، إذا أردنا أن نعامل كل شخص بغلطه فنحن أول من يحاسب على أغلاطنا قبل أن يحاسب غيرنا، وبقدر ما يعذر الإنسان عن الآخرين، وبقدر ما يحمل كلامه على أحسن محمل بقدر ما يتعامل معه الناس بهذا المنهج، لأن الله جل وعلا – يسخر له عباده.

فهذا هو توجيه لقول أبي حنيفة – رحمه الله تعالى – في مسألة الإيمان، وأكرر أن هذا اللفظ غلط، الإيمان قول وعمل، قول القلب واللسان وعمل القلب واللسان والجوارح، من قال أن الإيمان قول واعتقاد هذا غلط، هذا غلط، هذا قول أهل البدع بالجملة.

ومن قال به ممن ينسب إلى أبي حنيفة فنقول أنه يقصد الاعتقاد الذي تنبعث منه أعمال الجوارح، لكن نشير إلى مسألة مهمة: طوائف من أصحاب أبي حنيفة من المتأخرين لا يقولون بهذا التأويل، بل يقولون بأن الإيمان قول واعتقاد، يخرجون الأعمال عن مسمى الإيمان، وهذا قول عامة الماتريدية.

والماتريدية المعاصرون هم على مذهب الأشاعرة في الإيمان، وعلى مذهب أهل البدع، ولذلك

يقعون في الشرك بسبب خللهم في باب بالإيمان، ولذلك ذهب المتأخرون من أتباع أبي حنفية إلى خلاف اعتقاد أبي حنيفة، فهم يقولون بمذهب أبي حنيفة الفقهي، ويأخذون المذهب العقدي عن الماتريدية، فهم يقلدون في الفقهيات لأكابر العلماء، ويقلدون في العقائد من هو غير معلوم هدايته ورشده.

ثم قال:لا يكفرون أهل القبلة بمطلق المعاصي والكبائر:

وهم مجمعون على هذا لأنهم يفرقون بين من أتى بعمل ينافي أصل الإيمان، وبين من أتى بعمل ينافي كماله الوافي أو المستحق، فأهل السنة لا يكفرون بمطلق المعاصي ولا الكبائر، لأن الله فرق بين الذنوب فقال:﴿**وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ**﴾الله – جل وعلا- يقول:﴿**وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ**﴾فرق الله – جل وعلا – بين الكفر وبين الفسوق وبين العصيان، والكتاب صريح في أن من أتى بكبيرة فإنه لا يكفر.

والسنة متواترة عن النبي - صلى الله عليه وسلم – في هذا، ولذلك قال الله – جل وعلا: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ**﴾، والكفر داخل في هذا بالإجماع، ﴿**وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ**﴾: ﴿**وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ**﴾ هذا رد على الخوارج قول الله – جل وعلا ﴿**لِمَنْ يَشَاءُ**﴾رد على المرجئة، آية واحدة تمثلت فيها حقيقة مذهب أهل السنة، وفي الرد على الخوارج والمرجئة، آية واحدة، فالقرآن كله إذا صريح في هذا لمن تأمل وتدبر كلام الله جل وعلا في هذا الباب.

يقول الشيخ رحمه الله تعالى:كما يفعل الخوارج:

أي من التكفير بمطلق الذنوب والكبائر، الخوارج يقتلون أهل الإسلام، ويدعون أهل الأوثان، ويكفرون بمطلق الذنوب، يأتون إلى صاحب الكبيرة فيكفرونه، وقلت قبل قليل أن العبد قد يخطئ ويقول بقول من أقاويل الخوارج، ولا تجوز نسبته إلى الخوارج، وآخر يخطئ ويقول بقول من أقاويل المرجئة أو من أقاويل المعتزلة أو من أقاويل الجهمية ولا تجوز نسبته إلى هؤلاء، من يبن في كلامه وأصوله على الكتاب والسنة، إن زل في هذا المسألة فوافقهم لا يعني أنه منهم.

فمن قال بمطلق التكفير، إذا أتى شخص مثلاً فقال: من ارتكب كبيرة فهو كافر. هذا يسمى خارجي، من أول وهلة نحكم عليه بأنه خارجي، أتى آخر لم يقل بهذا القول، ولكن وقعت عنده شبهة في مسألة وقال: إن هذه ليست من الكبائر: هذه من نواقض الإسلام؛ فلا تجوز نسبته إلى الخوارج؛ حتى لو أخطأ في المسألة؛ حين نضربُ مثلا بالحكم بغير ما أنزل الله؛ حكى الإمام ابن حزم في الإحكام، وابن تيمية في الفتاوى، وابن كثير في البداية والنهاية: هؤلاء يحكون الإجماع على أن من غير

دين الله وحكم بغير ما أنزل الله، فهو مرتد عن الدين؛ لنفترض أن هذا القول غلط، فلا يُنْسَبُ من قال بهذا القول إلى الخوارج؛ العجيب في هذا الواقع الآن أن من قال بظاهر الآية:﴿**وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ**﴾ ليسوا هم الخوارج؛ لم يقل بذلك الخوارج، ولم تكن بدعة الخوارج أنهم يكفرون من حكم بغير ما أنزل الله؛ ومن قال ذلك؟ ! ولكن كانوا يُكفِّرون الصحابة؛ يُكفِّرون عليًّا، يكفرون عثمان، يكفرون كافة الصحابة –رضي الله عنهم-؛ هذه بدعة الخوارج، ويقولون لا حُكم إلا لله، مع أنه لم يُعرف عن أحد من الصحابة أنه حكم بغير ما أنزل الله؛ حتى يقال إن الخوارج يُنزِّلون هذه الآية عليهم؛ فهم أخطؤوا في الاستدلال بها، ولم يكونوا يُنزِّلون الآية على وجهٍ مشروع ثم أجمع الصحابة على خلافه.

وأما ما أثر عن ابن عباس:(كفر دون كفر) فهذا أثر منكر جاء من رواية هشام بن حجير عن طاوس عن ابن عباس؛ وإن كان ابن حجير ضعيف الحديث؛ ضعفه الإمام أحمد ويحيى بن معين والعُقيلي وغير هؤلاء من الأكابر، وفي نفس الوقت جاء عن ابن عباس ما يخالفه؛ جاء عنه بسند كالشمس: قال عبد الرزاق: حدثنا معمر، حدثنا عبد الله بن طاوس عن أبيه عن ابن عباس قال: (هي به كُفْرٌ)، هذا سند كالشمس، وروى ابن جرير بلفظ:(هي كفر).

بمعنى أن الآية على إطلاقها، وأن الكفر كما قال ابن تيمية عن أهل اللغة وعن العلماء: الكفر إذا عُرِّف بالألف واللام لا يَحتمِل إلا الأكبر، وفي نفس الوقت من قال بأن هذا كُفر دون كُفر ولم يظهر له مفسدة، وكان عن اجتهاد، وعن بحث، وعن اطلاع، ولم يكن عن خُبثِ طُوية ولا عن فساد ولا عن تأصيل فاسد، وكان يقول هذا ليتوصل إلى اجتهاد، فكيف نقول عنه أنه من علماء الإرجاء؛ لأنه بحث المسألة، واستفرغ وسعه، وضل في هذه، وقد خرق إجماع أئمة السلف في هذه القضية؛ لا نقول عنه بأنه مُرجيء؛ لكن يقال عنه أنه مُرجيء لو قال: إن كل عمل لا يُكفَّرُ به أحد، نقول: مرجئ؛ لكن لو قال: لا؛ أنا ما أقول بهذا القول؛ كما يقول به الجهمية، فأنا أقول بقول ابن عباس؛ الذي يذهب إلى صحته، ليس من باب أنه عمل، بل بعض المعاصرين يقول أنه عمل؛ فبالتالي يكفر لأنه عمل؛ هذا مُرجئ؛ كبعض الفقهاء الذين يقولون: تارك الصلاة لا يَكْفُر لأن الصلاة عمل، ما يكفر بترك الصلاة، هذا مُرجيء؛ لكن لو قال آخر: أنا لا أكفر تارك الصلاة، كما قاله أبو حنيفة وقاله مالك وقاله الشافعي؛ لا نقول عن هؤلاء أنهم مُرجئة؛ فرق بين من يقول بهذا القول لأنه عمل، وبين من يقول هذا القول لأنه صار له دليله، فيجب أن نُفرق بين من يقول بمقتضى الدليل وبين من يقول ويُنزل هذه المسائل على أنها أعمال، أهل السنة لا يُكَفَّرون بالعمل؛ لماذا لا يكفرون؟ لأن هذا محل إجماع عند أهل السنة؛ سواء كان العمل إيجابيًا بمعنى أنه يفعل، أو كان تركًا؛ كما قال الله –جل وعلا–لمن تاب مع وجود الكبائر والمعاصي ﴿**فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ**﴾:

﴿عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ﴾ مع وجود الكبائر، سماه الله أخًا **﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾**: الشاهد من الآية: **﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ﴾**: لم تنتف الأُخوة الإيمانية مع الإصرار على الكبيرة، وهذا لا يختلف فيه أهل السنة والجماعة.

ويؤخذ من ذلك مسألة أخرى: أن من قتل مؤمنا متعمدا لا يكفر؛ وهذا لا يختلف فيه أهل السنة والجماعة أيضا؛ لأن قتل النفس ليس من نواقض الإسلام؛ قتل النفس بدون حق؛ أو قتل النفس المعصومة –هذا من الذنوب والمعاصي، وليس من الكفر بإجماع المسلمين؛ **لأنه لا يكفر أحد إلا إذا أحل الحرام المُجمع عليه؛ يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في الفتاوى وهذا لفظه يقول: "من حلل الحرام المُجمع عليه أو حرم الحلال المُجمع عليه، أو بدَّل الشرع المُجمع عليه فإنه كافر مرتد باتفاق الفقهاء".**

المصيبة الآن في هذا العصر أن من قتل يُكفَّر، ومن بدَّل لا يُكفَّر؛ فهم يعكسون الإجماع؛ شيخ الإسلام يقول: من حلل الحرام المُجمع عليه، أو حرَّم الحلال المُجمع عليه، أو بدَّل الشرع المُجمع عليه فإنه كافر مُرتد باتفاق الفقهاء.

الفهرس

مقدمة ٢
شرح مقدمة المصنف ٣
اعتقاد الفرقة الناجية إجمالا ٥
معتقد أهل السنة والجماعة في باب الأسماء والصفات ٧
الإيمان بما وصف الله به نفسه في كتابه... ١١
صفة العلم ١٥
صفتا الرزق والقوة ١٩
صفتا السمع والبصر ٢٣
صفتا الإرادة والمشيئة... ٢٤
صفة المحبة ٢٥
صفة الرحمة ٣٥
صفات الرضا والغضب والسخط والكراهية والمقت ٤٢
صفتا الإتيان والمجيء ٤٩
صفتة الوجه ٥٧
صفة اليد ٦١
صفة العينين ٦٣
صفتا السمع والبصر ٦٨
صفات المحال والمكر والكيد... ٧٤

صفات العفو والمغفرة والرحمة والعزة ٧٨

نصوص النفي المفصل ٨٦

صفة الإستواء ٩٩

صفة العلو ١٠٣

صفة المعية ١٠٩

صفة الكلام ١٣٠

القرآن كلام الله ١٣٦

القرآن منزل من عند الله ١٣٨

الإيمان بما وصف به الرسول ﷺ ربه ١٣٩

نزول الرب إلى السماء الدنيا ١٣٤

صفات الضحك والفرح والعجب ١٣٦

صفة الرجل ١٤١

صفة الكلام والصوت ١٤٣

صفات العلو والمعية والقرب والرؤية ١٤٥

وسطية أهل السنة والجماعة بين الفرق ١٦٥

نصوص العلو لا تنافي معية الله لعباده ١٧٤

نصوص العلو لا تنافي قرب الله من عباده ١٨٨

القرآن كلام الله منزل غير مخلوق ١٩٣

رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة ٢٠٠

فتنة القبر وأحوال الخلق يوم القيامة ٢٠٤

الحوض،والصراط،والقنطرة ٢١٧

الشفاعة... ٣٢٤
الإيمان بالقدر: الدرجة الأولى ٣٣١
الإيمان بالقدر: الدرجة الثانية ٣٤١
خلق أفعال العباد.. ٣٤٩
الإيمان قول وعمل ٣٥٥
الفهرس... ٣٦٥